عبد الوهاب مطاوع

هو وهي والآخرون



هو وهي والآخرون

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250 202+
فاكس: 23909618 202+ - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 11844 / 2001
الترقيم الدولى : x - 689 - 270 - 977

الطبعة الثالثة : محرم 1427 هـ - فبراير 2006 م
الطبعة الرابعة : محرم 1430 هـ - يناير 2009 م

عبد الوهّاب مُطاوع

هو وهي والآخرون

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

هذا الكتاب

منذ سنوات قليلة كنت أشاهد بالفيديو فيلما مصريا جميلا، فإذا بى أتوقف أمام مشهد عابر من مشاهده وأتأمله طويلا.. ثم أعيد عرضه عدة مرات وأستسلم بعد ذلك لتأملاتى وخواطرى حوله.

أما المشهد الذى شد انتباهى فلقد كان لرجل أُمِّى لا يقرأ ولا يكتب ولا يفهم كلام المثقفين عن السعادة والحب ولغز الحياة، ويتلمس الرزق من أى طريق ولو كان غير مشروع، لكنه فى النهاية إنسان وله مشاعره التى قد لا يجيد التعبير عنها، وقد كانت تشاركه حياته فتاة جميلة ضائعة، تلح عليه من حين لآخر بأن يتزوجها لتشعر بالأمان وتتخلص من إحساسها الغامض بالإثم، فيعدها بذلك ويستمهلها بعض الوقت للوفاء بوعده، حتى ضاقت بمراوغاته وهجرته وتزوجت من شاب آخر فقير، وأقامت معه فى بيت متهالك آيل للسقوط.

وأفاق الرجل من غفوته بعد اختفاء فتاته من حياته وأحس بمرارة افتقاده لها، لكنه تظاهر بالاستهانة وعدم المبالاة موقنا بأنها لن تلبث أن ترجع إليه كما فعلت من قبل ومستنكرا أن يضعف «كالنساء» ويتحدث عن همومه وأشجانه، فمضت الأيام بغير أن ترجع .. وبدا له أن الفتاة جادةِ هذه المرة فى هجر الحياة غير الشريفة التى كانت تحياها معه، فإذا بقناع الصلابة التى كان يتظاهر بها يسقط فجأة، وإذا به يمضى إلى بيتها مخمورا ويقف فى ساحة البيت يبكى ويولول كالأطفال أمام الجميع بلا حياء، ويصيح مناديا فتاته مطالبا إياها بالعودة إليه ولو كان الزواج هو الثمن، ومهددا بقتل كل من يعترض طريقه، فلا يلبث أن يتصدى له بعض الجيران فينهار على الأرض بلا كرامة ويستسلم بلا مقاومة لمن يرجوه العودة إلى رشده، ويمضى به مبتعدا عن البيت فلا يملك إلا أن يزفر زفرة ثقيلة ويصيح مولولا وهو يغادر المكان :

- عِدْ الجروح يا قلم !

هذا هو المشهد الذى توقفت أمامه متفكرا .. وهذه هى العبارة الفريدة التى تأملتها طويلا وتعجبت لبلاغتها التلقائية وتعبيرها الموجز عن الألم .

فلقد تخيلت هذا الرجل الأمّى وهو ينطق بها بمرارة، وكأنه يتمنى لو كان يستطيع الكتابة لكى يفضى إلى الورق بكل ما يشعر به من

وحدة ووحشة وحزن وضياع بعد افتقاده لمن كانت تشاركه حياته .

وتخيلت أيضا أن كل المحزونين والمهمومين الذين يكتبون إلىّ بآلامهم وهمومهم فى بريد الجمعة بالأهرام، إنما يهمسون بنفس هذه العبارة لأقلامهم حين يضعونها على الورق لتعبر عما يشكون منه ويضيقون به .

إننى كثيرا ما أقرأ فى رسائل المهمومين عبارات تختلف أحيانا فى كلماتها لكنها تتفق دائما فى المعنى، وهو أنهم لو أطلقوا العنان «للقلم» لكى يصور ما يشعرون به من قهر ووحدة وألم لنفد مداد القلم، ولضاقت بكلماته الصفحات الطوال .

أفليس هذا هو نفس المعنى الذى أوجزته ببلاغة نادرة كلمات ذلك الرجل الأمِّى التلقائية، وهو أن الجراح كثيرة حتى لتحتاج من القلم إلى أن يعددها ويحصيها وليس فقط أن يعبر عنها !

وأليس من يستطيع الجهر بأحزانه وآلامه بلا تحفظ أحسن حالا ممن يضاعف من آلامه بمعاناته لها وحده فى السر لأنه لايستطيع الجهر بها.. أو لأنه لا يجد من يسمع له ويحترم آلامه !

إن الألم المكتوم أشد وطأة على النفس من الألم الصريح المعلن الذى لا يجد صاحبه حرجا فى أن يتحدث عنه ويشكو منه .. وجزء هام مما

تقوم به وظيفة الإفضاء النفسية، هو أن تخفف عن المهموم بعض ضغوط هذا الألم عليه بمجرد الحديث عنه والتعامل معه كحقيقة من حقائق الحياة، التى لا يخجل منها الإنسان ولا يحتاج إلى التخفى بها عن الآخرين .

وفى هذا الكتاب مجموعة مختارة من قصص بعض المهمومين، الذين تخلصوا من قيد الكتمان و «أذنوا» للقلم بأن يعبر عنها .. ويعدّدها !

فإذا كنت قد اخترت له عنوانا : هو .. وهى .. والآخرون ! فلأنى قد أردت أن أشير به إلى أضلاع المثلث الأبدى الذى تدور فى إطاره دائما حياة الإنسان وتمضى فى طريقها المقدور لها متراوحة دائما بين السعادة حينا والشقاء أحيانا .

ولو أنى تركت نفسى لهواها، لما قاومت إغراء استعارة هذه العبارة البسيطة من ذلك الفيلم الجميل، ولما اخترت لهذا الكتاب سواها عنوانا.

لكن هذه قصة أخرى ربما نعود للحديث عنها فى كتاب آخر من نفس هذه السلسلة من كتبى، التى أجمع بين دفتيها نماذج متباينة لأحوال البشر وشاغلهم، وصورا متنوعة لحلمهم الأبدى القديم فى نيل السعادة.. وتجنب الشقاء .

عبد الوهاب مطاوع

الحلقة الثالثة

أريد أن أتحدث معك على سجيَّتي وأروى لك قصتى، أنا إنسان مصرى أقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ اثنى عشر عاما، وقبل أن ينتهى بى المطاف إلى هنا، نشأت فى مصر ودرست بكلية التجارة، وخلال دراستى بالكلية انتقلت إلى الحى الذى نقيم به أسرة جديدة من الجيران، وتعرفت إلى ابنة هذه الأسرة وتعلقت بها على الفور، وكانت تكبرنى بعامين وجميلة وقوية الشخصية، فأسلمت قيادى لقلبى ومشاعرى معها، وقررت الارتباط بها ولم يرض أهلى عن نيتى فى ذلك لأنها تكبرنى بعامين ولأننا لا نكاد نعرف شيئا عن أسرتها، لكنى كنت كالمسحور لا أسمع لأحد.

وكنت يتيم الأب، وقد ترك لى أبى شيئا من الميراث أستطيع الاعتماد عليه مؤقتا حتى أتخرج وأعمل، «فأخذتنى» فتاتى وتزوجنا على غير إرادة أهلى ورضاهم، وبدأت حياتى الزوجية معها، وعرفتنى زوجتى بأحد أقاربها المقربين وهو خالها الذى يكبرها بستة عشر عاما، فلاحظت عليه أنه خدوم وودود ويسعد بتأدية أية خدمة لنا، ويكثر من

زيارتنا ومجاملتنا، ثم حصلت على البكالوريوس، والتحقت بالخدمة العسكرية كضابط احتياط وشاركت فى حرب أكتوبر. وعملت بعد انتهاء الحرب فى مصر لبعض الوقت، وكانت زوجتى قد أنجبت خلال ذلك طفلين، ومازلت مقبلا عليها وسعيدا بحياتى معها.. لكنى أشعر رغم ذلك بشىء غير طبيعى فى شخصيتها وطباعها وأسلوب حياتها. فكل شىء لديها بمقابل حتى أوقات الصفاء بيننا، ولابد لى دائما من أن أقدم شيئا لكى أحصل على أى شىء.. ولو كان جلسة آمنة بلا نكد، وخالها يقضى معنا أوقاتا طويلة.. ويزورنا أحيانا من الظهيرة فيبقى معنا حتى بعد منتصف الليل .

وبعد فترة من العمل فى مصر أتيحت لى فرصة طيبة للعمل بشركة أجنبية تعمل بإحدى الدول العربية وسافرت إليها وحدى، وأخلصت لعملى وحققت فيه تقدما كبيرا حتى أصبحت خلال ثلاثة أعوام مديرا ماليا وإداريا بالشركة. وبعد ٥ سنوات من زواجى، عرفت من زوجتى بالمصادفة أن خالها هذا ليس شقيق أمها، كما قدمته لى فى البداية لكنه من أقاربها وبمنزلة خالها وأنها نشأت منذ صغرها على اعتباره خالها. وتعجبت لإخفائها عنى هذه الحقيقة المهمة، لكنى واصلت حياتى معها فى سلام ورزقنى الله رزقا واسعا خلال عملى بهذه الشركة الأجنبية .

وكانت لى فى مقر عملى شقة فاخـرة مؤثثة بأفخر الأثاث والأجهزة، وأرجع إلى أسرتى كل عـام فى إجـازة طـويلة حـامـلا الهدايا والنقـود، فنعيش بضعـة أسابيع من أجمل أيام العمـر. وفى إجازة عامـى السادس بهذه الدولة العـربيـة، رجعت إلى بلـدى فلم أكـد أستقـر بين أسرتى الصغيرة بضعة أيام حتى جاءنى مـن يقول لى إن «خال» زوجتى هذا لا تربطه بها ولا بأسرتها أية صلة قـرابـة، وأن زوجتى مـرتبطة به ارتبـاطا شخصيـا من قبل أن أعرفهـا، واستمر ارتبـاطها به بعـد الزواج وطوال السنوات الماضيـة ! ولم يكتف من همس لى بهذه الصـاعقـة بذلك، وإنما قدم لى أدلة وبراهين وإشارات غير قابلة للشك .

ومـادت الأرض بى حتى لم أعد أرى من يحدثنى ولا أسمع صـوته، وراجعت حيـاتـى مع زوجتى التى فتنت بها منذ أول يوم رأيتهـا فيـه، فوجـدت هذا «الرجل» كان موجـودا بيننا بالفعل منذ الأيام الأولى ولم يسـاورنى فيـه أى شك.. إذ كيف أشك فى «خـالها» أو فى زوجتى التى قبلت الارتبـاط بى دون أهلى ورغما عن إرادتهم؟! وكـدت أصـاب بالجنون ولم أجـد مفـرا من مـواجهـة زوجتى بما عـرفت ففـوجئت بها تعترف بصحة كل ما عرفت بلا أية محاولة للدفاع والإنكار!.. وتسألنى فى هدوء : ومـاذا بعـد ؟ولم يكن هنـاك «بعـد» آخـر فى هذه الظروف القاسية سوى الطلاق .. خاصة وقد هربت من البيت واختفت لبعض

الوقت بعد هذه المواجهـة خوفا مما قد أفعل بعـد أن أستوعب الموقف. وطلقتها بعد ١٥ عاما من الغـش والخديعة والغدر، واسودت الدنيا فى وجهى.. وانهرت نفسيا وصحيا حتى وجـدتنى بعد أيام أبصق دما من فمى وأنزف الـدم من أنفى، وعـرضت نفسـى على الطبيب فنصحنى باتبـاع تعليمات العـلاج بدقـة والابتعـاد عن أى انفعـال مع التعجيل بالسفر والعـودة إلى عملى بعيدا عما يثير انفعـالاتى ورجعت بالفعل إلى عملى، فلم أستطع الاستمـرار به بضعـة شهور أخـرى.. وكـرهت كل شىء وفقـدت الثقـة فى نفسى وفى الحب والإخـلاص والوفـاء والبشر وكل شىء.

ووجدتنى عـاجزا عن احتمال الحيـاة فى تلك الدولة العربيـة بعد أن جـرى لى ما جـرى وصحتى تزداد تدهورا يوما بعـد يوم فقررت إنقـاذ نفسى بأن أبدأ من جـديد فى أرض بعيدة عن ذكريـات الماضى وآلامه. وسعيت للحصـول على تأشيرة دخول وهجـرة إلى الولايات المتحـدة، وبمجرد أن حصلت عليها ركبت الطائرة متجهـا إليها عن طريق روما تاركا خلفى شقتى الفـاخرة بتلك الدولة بكل أثاثها وأجهـزتها الحديثة إلى غير رجعة ..

وخلال رحلة الطائرة إلى رومـا رحت أراجع شريط حياتى مع هذه السيدة التى عشت معها ١٥ عـاما، وأتساءل طوال الطريق : لماذا ؟!..

ومـــاذا جنت هى مما فعلت..؟! وكيـف تواجــه به ربها وأولادها حين يكبرون ويسألون عن سبـب انفصـال أبويهم؟! واستغــرقتنى الأفكار والتساؤلات حتى بدأت أشعـر بنفس الآلام المرضية التى عـانيت منها من قبل، وتشاغلت عن هــواجسى وأفكارى بالتفكير فى الحياة الجديدة التى تنتظرنى فى الطرف الآخـر من الدنيـا.. حيث ينتظرنى شقيق يقيم فى كليفلانـد بولاية أوهايو لأستعين به وببعض أقاربى الآخـرين هناك على بدء حياتى الجديدة.

وهبطت الطائرة فى مطار رومـا، وكان علىَّ أن أتجه إلى صـالة أخرى من صالات السفـر لأركب الطائرة الأخرى المتجهـة إلى نيويورك، وفى المطار وأنا أبحث عن البـوابة المؤدية لطائـرة نيـويورك وجـدت سيـدة سمراء بعض الشىء، تسأل أحد الركـاب عنها وتستعلم منه وتصورت أنها إيطاليـة من الجنوب حيث البشرة السمـراء من أثر أشعـة الشمس، فسألتها بالإيطاليـة التى أعرفها ودرستهـا بمعهد خاص خـلال مرحلة الجامعة عن البـوابة المنشودة ففوجئت بها تجيبنى بالعربيـة، وعرفت أنها مصرية تقيم فى أمــريكا منذ ١٦ عـــامـا واسترحت إليهـــا من اللحظة الأولى، وعـرفتهـا بنفسـى وبخططى للإقـامـة فى أمــريكا خـلال فترة الانتظار وشجعتنى على التجـربة وأجـابـت على تسـاؤلاتى العـديدة، وعرضت علىّ مسـاعدتى فى حجز الطائرة من نيـويورك إلى كليفلاند،

وأبلغتها أنني سأمضى فترة فى نيويورك فعرضت علىّ إرشادى إلى فندق صغير، وشكرتها وتحدثت إليها طويلا خلال رحلة الطائرة فلم يمض على لقائنا هذا شهور أخرى حتى كنت قد غيرت كل خططى.. وتزوجت هذه السيدة.. وانتقلت إلى المدينة التى تعيش فيها.. فكأنما قد استجابت الأقدار لدعائى ووضعت هذه السيدة الطيبة فى طريقى، فقد وجدت لديها كل ما كنت أحتاج إليه بشدة فى هذه المرحلة العصيبة من حياتى وأعادت إلىّ ثقتى بنفسى وبالنساء وبالخير والحق والعدل فى الحياة .

واحتمت هى بى من الوحدة والغربة واحتميت أنا بها من أحزانى وجراحى، وكانت مشكلتها الوحيدة هى أنها قد بلغت سن الأربعين ولم تنجب من قبل، وقال لها الأطباء إن فرصتها فى الحمل ضعيفة للغاية فقررت أن ترعى طفلين من أحد ملاجىء الأيتام، وناقشتنى فى ذلك فوافقتها على رغبتها تقديرا لمشاعرها، فإذا بالحلم المستحيل يتحقق وتحمل وينجح حملها ويثبت خلال فترة إتمام إجراءات الحصول على الطفلين، فأوقفنا الإجراءات على الفور، وتفرغت للعناية بها خلال فترة الحمل والولادة القيصرية، وأنجبت زوجتى طفلة جميلة أسميتها «رضا» تعبيرا عن شكرى وامتنانى لله سبحانه وتعالى الذى عوضنى بهذه السيدة عما لقيت فى حياتى من غدر وخديعة، واستمر زواجنا

وأبلغتها أننى سأمضى فترة فى نيويورك فعرضت علىّ إرشادى إلى فندق صغير، وشكرتها وتحدثت إليها طويلا خلال رحلة الطائرة فلم يمض على لقائنا هذا شهور أخرى حتى كنت قد غيرت كل خططى.. وتزوجت هذه السيدة.. وانتقلت إلى المدينة التى تعيش فيها.. فكأنما قد استجابت الأقدار لدعائى ووضعت هذه السيدة الطيبة فى طريقى، فقد وجدت لديها كل ما كنت أحتاج إليه بشدة فى هذه المرحلة العصيبة من حياتى وأعادت إلىّ ثقتى بنفسى وبالنساء وبالخير والحق والعدل فى الحياة.

واحتمت هى بى من الوحدة والغربة واحتميت أنا بها من أحزانى وجراحى، وكانت مشكلتها الوحيدة هى أنها قد بلغت سن الأربعين ولم تنجب من قبل، وقال لها الأطباء إن فرصتها فى الحمل ضعيفة للغاية فقررت أن ترعى طفلين من أحد ملاجىء الأيتام، وناقشتنى فى ذلك فوافقتها على رغبتها تقديرا لمشاعرها، فإذا بالحلم المستحيل يتحقق وتحمل وينجح حملها ويثبت خلال فترة إتمام إجراءات الحصول على الطفلين، فأوقفنا الإجراءات على الفور، وتفرغت للعناية بها خلال فترة الحمل والولادة القيصرية، وأنجبت زوجتى طفلة جميلة أسميتها «رضا» تعبيرا عن شكرى وامتنانى لله سبحانه وتعالى الذى عوضنى بهذه السيدة عما لقيت فى حياتى من غدر وخديعة، واستمر زواجنا

عشر سنوات هادئة وسعيدة وتشاركنا معا فى أكثر من مشروع تجارى صغير.

وكنت خلال هذه السنوات على اتصال بالولدين اللذين أنجبتهما من زوجتى الأولى، فراح ابنى الأكبر يلح علىَّ فى استقدامه للدراسة بأمريكا، وتشاورت مع زوجتى فى ذلك فشجعتنى عليه، وأحضرته بالفعل وحصل على شهادته من هنا وعمل ونجح فى عمله واشترى بعد سنوات بيتا صغيرا بالتقسيط وأحضر أمه وشقيقه ليعيشا معه .

ومنذ عامين ونصف العام تقريبا شعرت زوجتى برغبة قاتلة فى الهرش بصفة دائمة ليل نهار ، واستشارت الطبيب فوصف لها دواء فلم يفعل شيئا ولم يتوقف الهرش القاتل الدامى وأجرينا فحصا شاملا لزوجتى، ففوجئت بالطبيب يقول لى : لدىّ أنباء سيئة لك.. إن زوجتك تعانى من المرض الخبيث وهو فى مرحلة متقدمة جدًا !

يا ربى.. أبعد أن عوضتنى بها وحققت لها حملها المستحيل فى الإنجاب وهى فوق الأربعين تقع زوجتى صريعة لهذا المرض الغادر؟!

وتمالكت نفسى بصعوبة وبدأنا مراحل العلاج وعذابه الطويل، وأجابنى الطبيب ذات يوم حين سألته عن الأمل فى نجاتها من الخطر قائلا فى جمود : فى مثل حالة زوجتك المتقدمة، فإننا لا نجرى وراء أمل الشفاء بقدر ما نجرى وراء «شراء» بعض الوقت الإضافى لحياتها !

ولم تستطع جهـود الأطبـاء «أن تشترى» لها - أستغفـر الله العظيم - سـوى ١٥ شهرا فقط، ثم رحلت زوجتى الثـانيـة إلى رحمة ربها مودعـة منى بأحر الدمع وأطيب الدعاء، فلقد كانت إنسانة مسالمة مثلى وترغب فى الحياة فى سلام لهذا نجحت عشرتنا المشتركـة، وحرصت على وداعها الوداع اللائق بنفسهـا الطيبـة وروحها الخيرة فصلينـا عليها فى المسجـد الذى يبعد عن مدينتى الصغيرة مسافـة كبيرة، وجعلت مثواها فى مقابر المسلمين، وتكبـدت فى سبيل ذلك بعض العناء لبعـد المسافـة. وعشت لطفلتى الصغيرة التى تركتها أمها وهى فى عمرها العاشر فوجدت طعم الحياة مريرا بغير هذه الزوجة الطيبة.. ومضى عام آخر فأصبحت الحياة شديدة الصعـوبة علىَّ من كل الجوانب فـالطفلة لا تتكلم العربيـة، وقد فشلت وحـدى فى تعليمهـا الصلاة وقـراءة بعض السـور القصيرة من القرآن .

وقـد بدأت المخـاوف والهواجـس تنتـابنى بشـأنها فى هذا المجتمع المفتـوح الذى أعيش فيه، وكلما شـاهدت أو سمعت عن مـآسى بعض الأسر العربية التى انفلت منها عيار بناتها واندمجن فى المجتمع الأمريكى بكل تقـاليـده المتحـررة تملكنى الـرعب والخوف من أن تتعـرض ابنتى لنفس هذا المصير وأفقـد السيطرة عليهـا خـلال فترة قصيرة.. وقـد تسألنى ومـا المشكلة فى أن تجد لنفسك زوجـة أخـرى حيث تعيش..

وأجيبك بأن نسبة السيدات هنا مرتفعة بالفعل لكنى لا أريد الزواج من أمريكية أو أجنبية تزيد حيرة طفلتى وتمزقهـا بين ما أقوله لها عن تعاليم دينها، وبين ما تلمسه وتراه فى المجتمع الأمريكى.. فماذا أفعل يا سيدى لأخرج من هذه الحيرة؟ هل أبحث هنا لنفسى عن شريكة حيـاة أخرى تتحمل معى مسئوليـة هذه الطفلة، أم أسـافر لبـلادى لأبحث عن هذه الشريكة وأرجع بها لأمـــريكا، أم أرجع نهائيـا وأستقـــر فى بلدى وأبدأ حياتى فيها من جـديد للمرة الثالثة؟.. خاصـة وأن مطلقتى سامحها الله قد أفسـدت علىّ مشاعر الولدين اللذين يعيشـان هنا مع أنى لم أذكر لهما بقليل مما فعلت ..

إننى فى الثانية والخمسين من عمرى، وصحتى جيدة لأننى لم أسلك مسـالك بعض الشباب فى سن الطيش ، وأملك بيتـا فى المدينة الصغيرة التى أعيش بها هنا، وأتقـاضى معاش زوجتى لأنها عملت ٢٨ عـاما فى أمـــريكا، فبماذا تشير علىّ؟.. وهـل أستطيع أن أجـــد عن طـريقك من ترغب فى مشـاركتـى مـا بقى لى من رحلة الحيـاة، وتـربيـة هذه الطفلة وحمايتهـا من أخطار الحياة فى مجتمـع مفتوح، بشرط أن تكون راغبـة فى الحياة بأمـريكا وقادرة عليها، لأن بعض الزوجات القـادمات من مصر يفقـدن حماسهن للحياة فى أمـريكا بعـد فترة حين يجدن كل إنسان فيهـا مشغولا بنفسه.. ولا أحـد يتكلم مع أحد أو يسأل عنه، فيشعرن بالملل

والغربة ويفقدن الإحساس حتى بجمال الطبيعة بعد فترة قصيرة..؟

إننى أنتظر منك ردا عاجلا . وقاك الله وإيانا والجميع شر الوحدة والحيرة وغدر الأيام.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا أريد أن أنكأ الجراح القديمة بالحديث عن تجربتك المحزنة الأولى بعد أن تجاوزتها أنت بسلام والحمد لله وعوضتك الحياة بمن كانت بلسما لجراحك وآلامك رحمها الله، غير أن حياة الإنسان يا صديقى كتاريخ الشعوب، حلقات متصلة ومراحل تفضى كل منها إلى الأخرى، وليس من المفيد أن يتوقف الإنسان عند إحدى هذه المراحل ويحيا أسيرا لأحزانها ومؤثراتها على نفسه وشخصيته إلى نهاية العمر، وليس من المفيد أيضا أن يسقطها نهائيا من حياته وذاكرته كأنها لم تكن ولم يعشها ولم يتفاعل مع مؤثراتها سلبا وإيجابا.

والأجدى دائما هو أن يستفيد الإنسان بأخطاء كل مرحلة من مراحل العمر.. وأن يستعين بخبرة الألم التى اكتسبها منها على تفادى أشواك الحياة فى باقى الرحلة وتجنب المزالق والعثرات. ومهما كانت الأحزان والآلام فلا مفر من أن يراجع الإنسان حياته من حين لآخر.. ليرى هل ازدادت خبرته حقّا بالحياة وبالنفس البشرية وعثرات الأيام

واختبـاراتها الصعبـة أم لا؟! وهل ازداد فهما لنفســه ولنقـاط القــوة والضعف فى شخصيتـه واستفـاد بهذا الفهم المكتسب على التعـامل مع الآخرين أم لا ؟!

ومع أن مأســاتك الأولى كانت مـرحلة من العمـر وانقضت بخيرها وشرها.. إلا أنها من ناحية أخرى كانت أيضا الجسر الذى انتقل بك إلى المرحلة التـاليــة من عمـرك وهى الحلقــة التى بدأت فيهـا هجــرتك لأمـريكا.. وتعــرفت خـلالها على زوجتك الثـانيــة وأنجبت طفلتك الصغيرة التى تشقى الآن بهواجسك حول مستقبل أيامها .

ولأنه ليست هناك فى النهاية معـاناة إنسانية بلا جـدوى، فلعلك قد عـرفت الآن وبعد تجربـة الألم القاسيـة فى حيـاتك، أن السبب الرئيسى لمأساتك الأولى التى مازلت تعانى من ذيولها حتى الآن فى موقف ابنيك منك، كان هو الاندفـاع والانقياد الأعمى للعاطفة الهوجـاء من جانب فتى فى العشرين أو الحادى والعشرين من عمـره دون الاحتكام فى ذلك إلى ضوابط العقل وكـوابح المسئولية العائليـة والإنسانية للمـرء.. فلقد قـادتك العاطفـة الهوجاء وحـدها إلى الاختيار السيىء لشريك الحيـاة، ليس فقط قبل التأكــد من رسـوخ مشـاعـرها نحــوك، بل وحتى قبل التعرف جيـدا على شخصيتها الحقيقية وظـروفها العائليـة والاجتماعية، بدليل عجزك فيما بعد حتى عن التمييز بين أقاربها الأقربين ومن تستروا

بادعـاء القـرابة على أغـراضهم، فـأى دليل أكثـر من ذلك على التعجل والاندفـاع بغير دراسـة كـافيـة لشخصيـة شريكة الحيـاة وظـروفهـا العائليـة؟!.. وأى دليل أكثر من ذلك على أن الانقياد للعاطفـة وحدها بغير استشارة العقل لا يثمر إلا الأخطاء الفادحة فى النهاية ؟!

لقد كان القانون الفرنسى حتى القرن الثامن عشر لا يسمح للشاب بأن يتزوج قبل سن ٢٥ سنة بغير موافقة أبيه أو ولى أمره، ولم يكن ذلك نابعا من فـراغ، وإنما من إدراك أن الزواج شأن عائلى بقـدر ما هو شأن شخصى . ولهذا فإنه من المفيـد لمن لم يكتمل نضجه النفسى والعقلى ولم يكتسب بعـد الخبرة الكافية بالحيـاة، أن يستعين بعقول من يهمهم أمـره على حسن اختيار شريكة الحياة، بغير أن يتعارض ذلك أبدا مع حقه فى الاختيار الحر. وسن العشرين لا يمكن أن تكون سن النضج الكامل أو الخبرة الكافيـة أو الفهم الصحيح للحيـاة سـواء بالنسبـة للشبـاب أو الفتاة، وما اعتبرته أنت دليلا على الحب ووقفت أمامه مذهولا تتعجب كيف غـدرت بك زوجتك الأولى مع أنها قـدمتـه لك، وهو أنها قـد «أخذتك» وتزوجتـك رغما عن إرادة أهلك، هو نفسه ما كـان ينبغى له أن يكون من أسبـاب تحفظك عليهـا وتشكك فى قيمهـا الأخـلاقيـة والعـائليـة وليس العكس، فمـن ترحب بفتى فى العشرين من عمـره يصغـرها فى السن ويعترض أهله على اختيـاره لها، ثـم تأخـذه من يده

وتتزوجـه دون أن تقيم وزنا لموقف أهله.. أو تطلب منه أن يبذل بعض الجهد معهم لإقناعهم بها.. مثل هذه الفتاة لا ينبغى الثقـة أصلا بقيمها الأخلاقية والدينية والعائليـة، وتصرفها هذا لم يكن دليلا على الأعراف السائدة والقيم العائلية المستقرة. ولهذا أيضا فلم يكن غدرها بك ضعفا بشريا عابرا ولا نزوة طارئة وجدت من الظروف ما يساعد عليها، وإنما كـان غدرا متـأصلا، ومع سبق الإصرار والترصـد أيضـا.. بدأ قبلك. واستمر بعدك للأسف .

ولأننا جميعا تلاميذ حائرون فى مـدرسة الحياة وسنظل كذلك حتى النهاية ، فلابد لنا من أن نضيف إلى خبرتنا بالحياة من تجربتك شيئا آخر جديرا بالاعتبار، هو أنه حين يجد المرء فى محيط أسرته الصغيرة رجلا لا تربطه بـالأسرة عـلاقـة مشروعـة أو صلة المحـارم، لكنـه مع ذلك «مـوجـود» دائما فى سمائهـا.. وفى كـل الأوقـات والمناسبـات.. ورهن الإشارة فى كل حين ويسعـد دائما بتلبية الطلبات والرغبـات والخدمات بلا تذمر، بل يتهلل لأدائها بـاستمتاع.. أقول إنه حين يجد المرء مثل هذا الشخص «الخدوم» للغـايـة والذى يضحـى دائما بوقتـه ومصـالحه واعتباراته الشخصية لصالح اعتبارات هذه «الأسرة»، فإنه ينبغى له أن يتشكك فى دوافعـه وليـس أن يحسن الظن به ويركن للثقـة العميـاء به ويتغنى بطبعه السمح الخدوم، فالأهل الأقربون لا يفعلون ذلك بنفس

هـــــذا التهلل والاستمتاع.. وليس هناك عادة من يضحى باعتباراته الشخصية على طول الخط لصالح اعتبارات الآخرين دون هدف أو مقابل، والعاقل هو من لا يدفعه «حسن الظن» بنفسه هو وبقيمته «الشخصية» لدى مثل هذا الشخص إلى الظن بأنه المستهدف بهذا العطاء الإنسانى السخى، لأنه لابد أن هناك «طرفا» آخر من الأقرب للمنطق ولفهم النفس البشرية أن يكون هو هدف هذا العطاء. وهذه القاعدة تنطبق بصفة عامة على الطرف الزائد الموجود دائما فى محيط الأسرة الصغيرة بغض النظر عن نوعه رجلا كان أو سيدة. وفى كل الأحوال ، فإن الاختلاط الزائد على كل حد مقبول فى المحيط العائلى يفتح الباب دائما لمثل هذه الكوارث، ولا جدوى له غالبا إلا تهيئة الظروف المناسبة لاستدعائها والتشجيع عليها.

ولأن حياة الإنسان حلقات متصلة - كما قلت لك من البداية - فلقد أدت هذه الحلقة المأساوية فى حياتك إلى الحلقة الثانية منها التى كانت أكثر رشدا وأكثر عدلا إنسانيا معك، فعشت مع زوجتك الثانية عشر سنوات هادئة وسعيدة.. ووجدت لديها كل ما كنت تحتاج إليه من الأمان والحنان والثقة والرغبة المشتركة فى العيش فى سلام، لكن الأوقات السعيدة لا تطول كثيرا فى معظم الأحيان للأسف ، فرحلت الزوجة الطيبة العطوف عن الحياة بعد أن حققت حلمها الصعب فى

الإنجاب، وها أنت تواجه الآن الحياة وحيدا تتناوبك الهواجس بشأن مستقبل ابنتك الطفلة واحتمال تأثرها بمؤثرات الحياة فى المجتمع الأمريكى. وأنت محق فى هواجسك ومخاوفك يا سيدى لأن الطفلة لم تتشرب بعد من القيم الدينية ما يعينها على الصمود فى وجه هذه المؤثرات.. ولو نجحت فى غرسها فيها لكفتها وتكفلت بتحصينها ضدها وضد كل المؤثرات التى تستهدف هويتها .

والدافع الأول دائما لقرار بعض الأسر المصرية المهاجرة إلى الغرب على وجه التحديد بإنهاء هجرتها والعودة لبلادها بعد عشرين أو أكثر من الغربة، هو هاجس الخوف على ضياع هوية بناتها على وجه التحديد وسط مؤثرات الحياة الغربية.. وكثيرا ما ضحى آباء وأمهات بمناصب كبيرة فى المهجر ومكاسب مادية كبيرة ورجعوا لبلادهم تفضيلا لمصلحة بناتهم فى المقام الأول، على الاعتبارات مهما بلغ شأنها. لكنى أتصور أن ظروفك الشخصية لا تعينك الآن جديا على العودة النهائية لبلدك، وأنك ترغب فى الاستمرار فى الحياة حيث تقيم، وتحتاج إلى شريكة حياة تتحمل معك أمانة المسئولية عن غرس القيم الدينية والأخلاقية فى هذه الطفلة ورعايتها معك .

وما أكثر من تناسبهن ظروفك وقد يجدن فى مشاركتك حمل هذه الأمانة حلا لمشكلتهن.. ومعنى جديدا لحياتهن.. وقربى مؤكدة إلى

الله..، والطريق الأمثل للاهتداء إلى مثل هذه الشريكة المناسبة هو العودة فى إجازة طويلة لبلدك خلال فصل الصيف والاستعانة بالأهل والأقارب على ذلك. لكن للضرورة أحكامها من ناحية أخرى، وإنى لأستشعر من كلماتك أنك فى حاجة ملحة لأى جهد يعينك على الاهتداء لشريكة الحياة المنشودة هذه فى أقرب فرصة ولن أتردد فى تقديم هذا العون البسيط لك إذا استطعته بإذن الله.. واسمك وعنوانك لدى، وأرجو ألا يطول انتظارك قبل أن يجمع الله سبحانه وتعالى بينك وبين من يختارها لك فى هذه المرحلة من حياتك، كما أرجو أن تكون هذه الحلقة الثالثة من حلقات عمرك هى أكثرها سعادة وأمانا وسلاما وأقلها آلاما بإذن الله ..

وقديما قال شاعر الإغريق سوفوكليس فى النشيد الختامى لملحمة أوديب : لا ينبغى أن نحكم على أحد بأنه سعيد إلا إذا انقضت الساعة الأخيرة من عمره، وانتقل إلى العالم الآخر من غير ألم تجرعه أو وزر تحمله».

فعسى أن يكون الحساب الختامى لك مع الحياة لصالح السعادة والأمان وراحة القلب إلى النهاية فى حياتك بإذن الله.. والسلام !

* * *

العبارة القاسية

أردت أن أكتب لك منذ سنوات لكنى كلما قرأت فى بريد الجمعة آلام الآخرين وجدت غيرى أحق منى باهتمامك.. ومشكلتى يا سيدى هو ابنى الذى يبلغ من العمر ٢١ سنة ويدرس بإحدى الكليات ذات المصروفات الباهظة.. فبعد سنوات من فشله الدراسى ومعاناتنا معه كنت منذ فترة قصيرة أحدثه أنا وأبوه عن ضرورة تنظيم الوقت.. وتقسيم المنهج الدراسى فإذا به يرمينى فى وجهى بعبارة قاسية أدمت قلبى هى : أنت لست أما !

وذهلت .. وطفر الدمع إلى عينى ..

أنا لست أما ؟ لماذا يا حبيبى هل علمت عنى ما يشيننى ؟.. هل تركتك وحدك وسافرت للعمل فى دولة بعيدة ؟.. هل خرجت من البيت ذات يوم وتركتك مريضا بلا رعاية ؟.. هل بك عيب جسمى أو عقلى بسبب تقصيرى أو إهمالى فى رعايتك وأنت طفل ؟ ومن فى عائلتك أكثر أمومة منى !

إننى أرى الأمهات من حولى يعاملهن أبناؤهن بتقديس واحترام، حتى ابن جارتى طالب الطب المتفوق ينشر لأمه الغسيل ويساعدها فى صنع «المحشى» وهو سعيد بما يفعل، فى حين يجف حلقى معك لكى تلبى لى طلبا واحدا .

صعبت علىّ نفسى يا سيدى واغرورقت عيناى بالدموع، فأشار له والده بأنه أخطأ فى حقى، ثم قال لى : لا تتحدثى معه ودعيه لى، فتركته له، ولكنى كنت أنتظر من زوجى تصرفا أكثر إنصافا لى، لكن هذه هى عادته معى .

فأنا وزوجى من كبار موظفى الدولة أى من الكادحين، إذ لنا ابنتان أخريان لا تزالان تدرسان بمدارس اللغات، وقد تكلفنا الآلاف حتى حصل ابنى هذا بعد سنتين على الثانوية العامة، وها هو يعيد الآن سنته الدراسية الأولى فى التعليم الجامعى، ولا يقدّر معاناتنا رغم أنه يعرف جيدا كم نعانى حتى نحصل على القرش ودخلنا معروف ومكشوف له بالمليم الواحد، ونحن نلهث لتلبية احتياجاته المستمرة وكلها بمئات الجنيهات.. ومع ذلك فهو لا يسعد قلوبنا بأى تقدم دراسى، بالإضافة إلى تهربه من مشاركتنا أى احتفال عائلى. ولقد بدأت مشكلته هذه بعد حصوله على الإعدادية بتفوق.. وقدرنا وقتها أنها متاعب المراهقة وسوف تنتهى ببلوغه سن الحادية والعشرين، وقد رجع والده بعد ٤

سنوات من العمل فى إحدى الدول العربية كنت خلالها لأبنائى نعم الأم بشهادة كل من يعرفنى.. وكان ابنى هذا عند عودة أبيه فى الشهادة الابتدائية وأطفالى متفوقون ولا أعرف ماذا جرى بعدها ولا ماذا كان يثير زوجى ضدى، فقد بدأت سلسلة مستمرة من الإساءة لى وأصبح يحلو له أن يلعن على مسمع من الجيران بأعلى صوته الحظ الذى ربطه بى مع إنى اختياره الشخصى.. فلم يزدنى ذلك إلا احتراما فى نظر جيرانى الذين يتعاملون معى.. كما كان زوجى كثيرا ما يقلب الموقف فوق رأسى إذا وجهت ابنى هذا وهو فى سن التكوين والتربية بالنسبة لطريقة تناوله للطعام أو ملابسه أو طريقة مذاكرته، ويحدث هذا بالطبع أمام الولد.. وعشت وصبرت وتنازلت باختيارى عن كل حقوقى، فدخلى كله أنفقه فى البيت وأحاول جادة أن أحافظ على مظهرى بما يتناسب مع مركزى والوسط الذى أنتمى إليه، وليس لى مصروف شخصى ولا أتعامل مع الكوافير وأستخدم الأتوبيس فى تنقلاتى، بينما لكل زميلة لى فى العمل سيارة خاصة. ومع ذلك فلا زوجى راض ومعجب بى ولا ابنى يرى فىّ أمّا رءوما له. فماذا أفعل بحياتى ؟ إن احترام أهلى وزملائى لى يشبعنى ويصبرنى على ما أعانيه، لكن الإنسان تضيق نفسه أحيانا ويشعر بالهوان والألم حين ينكأ أحد جراحه.. فماذا أفعل يا سيدى، وكيف أتعامل مع تمرد ابنى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من حقك يا سيدتى أن تغرورق عيناك بالدَّمع الأسيف وأن تشعرى بغصة مؤلمة فى حلقك وفى قلبك حين يرميك هذا الابن الشارد بهذه العبارة القاسية الظالمة، أو حين تستشعرين عدم التقدير لتضحياتك وعطائك له وللأسرة من جانبه أو من جانب زوجك على السواء.. لكن هوِّنى على نفسك يا سيدتى فقد يجرح الابن المتمرِّد أحيانا فى عنفوان جهالته أمه الرءوم غير مدرك لعمق الجرح الذى حفره فى قلبها بكلماته الطائشة، وغير معبر بذلك عن حقيقة رأيه أو مشاعره تجاهها.

لكن ذلك لا يقلل من جريمته وحسابه عما رماك به مع ربه قبل أن يكون معك.. ولن يكتب له الله سبحانه وتعالى التوفيق أو السعادة فى حياته إذا لم يعتذر لك عن هذه العبارة القاسية وينال صفحك عنها وعنه، ويلتزم معك فى قادم الأيام بأدب الأبناء مع أمهاتهم وآبائهم وحسن مصاحبته لهما. أما زوجك فلقد شارك للأسف من حيث لا يدرى فى تجرؤ ابنك عليك بهذه العبارة القاسية.. وذلك بتشاحنه المستمر معك أمامه وهو طفل على أساليب توجيهك له.. وبإساءته العلنية لك ولعنه لسوء حظه الذى ربطه بك أمام الصغار. ومن واجبه أن يكف عن كل تصرف يمس رمز الأم فى نظر أبنائها.

على أن الأمر فى النهاية لا يجوز الحكم عليه حكما نهائيا بظاهر

الكلمات وحـدها، فما أكثر مـا تطيش الكلمات فتجرح لكنهـا لا تعبر فى الواقع عن تقييـم قـائلهـا لشريك عمـره، وآفـة البعـض منا هى أنهم يسارعـون بطريقة شبـه آلية إلى انتقـاص أقدار شركـاء حياتهم فتتقـافز الكلمات على ألسنتهم فى ذلك بسرعـة الصـاروخ، فإذا دعـوا لشهـادة الحق فيهم تثـاقلت كلمات الإنصـاف والإعجـاب والتقـدير على نفس الألسنة كأنما ينتـزعـونها من أفـواههـم انتـزاعـا.. مع أنها رغم شحهـا وتقتيرها إنما تعبر عن مـوقفهم الحقيقـى من هؤلاء الشركـاء، لكنهم لا يفرجون عنها غالبا إلا إذا واجهوا خطر فقدهم !

فلا تبتئسى كثيرا يا سيدتى فزوجك أول من يعرف لك قدرك، لكنه ليس فيما يبـدو ممن يستطيعـون الاعتراف بذلـك علنا أو ممن يبخلون به على شركاء الحياة ، مع أن كتمان الشهادة ليس من الإيمان.

وابنك الشارد.. يتخبط بين فشله الدراسى وإحساسه بالذنب عنه.. وبين رغبتـه فى الإحسـاس بالجدارة والاستقـلال وبأنه قـد تجاوز سن التوجيـه المتصل والتدخل الدائـم فى شئونه الخاصة كما يتصـور. وأزمة أمثاله أنهم يسيئون تفسير حـرص الأبوين على نجاحهم وشق طريقهم فى الحيـاة، وتعبيرهم عن هذا الحرص بالتـوجيهات والنصـائح والقلق عليهم، ويعتبرون كل ذلـك شيئا يتعـارض مع رجـولتهم ونمـوهم واستقـلال شخصيـاتهم.. كأنما يريدون أن يقـولوا لآبائهم وأمهـاتهم

بذلك إننا لم نعد أطفالا لكيلا تتحدثوا معنا إلا بالنواهى والنصائح والتحذيرات، وهى أزمة معروفة من أزمات سن المراهقة الذى يوشك ابنك أن يودعها، ومن آثارها ذلك النفور من التكليفات المنزلية بالنسبة للشباب من الأبناء على وجه الخصوص.. والنفور أيضا من المشاركة فى المناسبات العائلية باعتبارها لا تناسب فى نظرهم إلا الصغار الذين يسعدون بأمثالها.. وهم يرون أنفسهم كبارا ويبحثون عن ذواتهم مع أصدقائهم وفى عالمهم الخاص المستقل عن عالم الأسرة الذين يتصورون أنه لا يرتبط به إلا الأطفال .

ولا بأس بكل ذلك إذا عرفنا أنها فى النهاية مرحلة مؤقتة وعرفنا كيف نتعامل معها.. فنسلم لهم بقدر معقول من الاستقلالية.. ولا نحاول إجبارهم على مشاركتنا واجباتنا المنزلية أو مناسباتنا العائلية إذا شاءوا ذلك.. إلا بالترغيب وحده وليس باستثارة الإحساس بالواجب لديهم أو إشعارهم بالتقصير تجاه الأسرة إذا لم يؤدوه.. كما ينبغى أيضا أن نتجنب كثرة النصائح المباشرة لهم فى هذه السن الحرجة وأن نصوغها دائما فى شكل خبرات حياتية أتيح لنا الاطلاع عليها بحكم السن أو بمحض الصدفة، ولا بأس من أن نضعها عرضا تحت أنظارهم عسى أن يجدوا فيها ما يفيدهم، ثم نترك لهم ولعقولهم مهمة اكتشاف ما يناسبهم منها، وقد نعينهم على هذا الاكتشاف بطريقة غير

مباشرة.. فيشعر الابن فى هذه السن أنه هو الذى قرر واختار ولم يفرض أحد عليه رغباته كما يحدث مع الأطفال !

وخفضى أيضا من تذكيره بمعاناتكم من أجله فى كل مناسبة حتى لا يستثير ذلك رفضه وتمرده على غير المتوقع.. فلا تبتئسى، وتعاملى مع ابنك الشارد هذا بتحفظ يشعره بحزنك الشديد على ما بدر منه ولا تعودى إلى طبيعتك معه إلا بعد أن يعتذر لك اعتذارا كافيا ومرضيا، فإذا فعل وسوف يفعل بالضرورة فأطلقى العنان لعواطفك تجاهه وعبرى عنها أمامه بلا حرج وشجعيه أيضا على أن يعبر لك ولأبيه عن عواطفه تجاهكما بلا حرج، فنحن فى حاجة إلى استخدام كلمات الحب والاعتزاز كل يوم بل وكل ساعة فى علاقات الأبناء بالآباء والأمهات أكثر من أى شىء آخر.. وسوف تكون النتيجة مرضية لك بإذن الله.

* * *



الاعترافات المريرة

أنا يا سيدى من قراء بابك الأوائل منذ أنشأته فى بداية الثمانينيات، ولقد قرأت لك منذ فترة فى أحد ردودك عبارة تقول فيها إنك من كثرة ما قرأت من عجائب البشر فى رسائل القراء لم تعد تعجب لشىء أو تستبعد شيئا على النفس البشرية، التى لايعرف أحد كل غوامضها ونوازعها الخفية، وأنا أصدقك تماما فيما تقول لكنى متأكدة أيضا من أننى سوف أضيف إلى رصيد العجب عندك جديدا، إذا صبرت على قراءة رسالتى هذه حتى النهاية، فأنا سيدة فى الثلاثينيات من عمرى وزوجى فى الأربعينيات من عمره، وقد تزوجنا منذ ١٤ عاما بعد قصة حب جمعت بيننا برغم
معارضة أهلى فى هذا الزواج، لكنِّى تمسكت به وتم زواجنا ولم يحضره معظم إخوتى لسفرهم خارج البلاد وقتها، فأرسلت إليهم جميعا صور الزفاف والفرح، ومن بينهم شقيقة لى كانت تقيم مع زوجها وأولادها فى بلد غير عربى، فلم تمض أيام حتى فوجئت بشقيقتى هذه تدعونى

للسفر إليهـا مع زوجى لقضاء بضعة أيام من شهر العسل فى ضيـافتها، وسعدت بالدعوة وسافـرنا إليها بالفعل، ومن أول لقاء بيننا فى حضور زوجى أحسست بشىء غير مـريح فى نظرات أختـى لزوجى. لكنَّنى لم أعلِّق على ذلك بأهمية كبيرة؛ لأن كلينا يحب الآخر وقد خضنا معا حربا عـائليـة حتى يـرتبط كل منا بشريك قلبـه، وطردت على الفـور هذه الهواجس غير المريحة من رأسى، وساعـدنى على ذلك أن شقيقتى كانت قد تزوجت زوجها هى أيضا عن حب ولها منه أبناء .

واستمتعنا بإجـازة شهـر العسل فى ضيـافتهـا. ورجعنـا إلى بلدنا سعيدين ومضت حياتنا الزوجيـة هادئة وهانئة، وأنجبت طفلين سعدنا بهما غاية السعـادة رغم أنهما قد ولدا متعاقبين عـاما بعد عام، واحتـاجا منى إلى جهـد كبير لرعـايتهما معـا، وبعـد فترة قصيرة من مـولد الطفل الثـانـى فـوجئت بعـودة شقيقتـى من الخارج تاركـة زوجهـا وأبناءها وراءها، وبأنها تطلـب الطلاق من زوجهـا بإصرار بحجـة أنه يسىء معـاملتهـا فى الغـربة. وحـاولنا معـا المستحيل لكـى ترجع عن طلب الطلاق رفقا بأبنائها فلم تُجْدِ معها أية محاولة، ووقع الطلاق بالفعل بعد بضعة أسابيع واحتفظ زوجها بأبنائه معه؛ لأنهم تجاوزوا سن الحضانة، وقبعت أختى فى بيـت الأسرة مع أبى وأمى. وبعـد فترة قصيرة بدأت

تشعر بالملل والوحدة والفراغ لأنها لا تعمل ولا أمل لها فى عمل مناسب، فوجدت نفسى أعرض عليها الإقامة معى فى بيت الزوجية لكى تشغل نفسها برعاية الطفلين الصغيرين خلال فترة غيابى أنا وزوجى فى عملنا، ورحبت هى بهذا العرض رغم معارضة أهلى له فى البداية، وانتقلت أختى للإقامة معى، فعاملتها - يعلم الله - أحسن معاملة، وسعدت بوجودها معى ووضعت بيتى وملابسى كلها تحت تصرفها، فلم يمض وقت طويل حتى بدأت ألاحظ انشغال زوجى بها، وانشغالها هى أيضا بزوجى، فاستيقظت الهواجس غير المريحة التى كادت تفسد علىّ إجازة شهر العسل وراحت تطاردنى من جديد، وفكرت كيف أواجه هذا الموقف الذى وضعت نفسى فيه من حيث لا أقصد، فانتهى بى تفكيرى إلى أن أحصل على إجازة بدون مرتب من عملى، وأتفرغ لرعاية طفلى وبيتى فينتفى الغرض من إقامة أختى عندى وتجد نفسها بلا عمل تؤدِّيه فتشعر بالحرج وترجع لبيت الأسرة .

ونفذت ذلك بالفعل، وبعد أيام من حصولى على الإجازة رجعت أختى إلى بيت الأسرة، واسترحت بعض الشىء من هواجسى المكتومة التى لا أستطيع مصارحة أحد بها، لكنه لم تمض فترة أخرى حتى بدأت ألاحظ شيئا آخر مختلفا وغير مفهوم بالنسبة لى، فقد لاحظت أن زوجى لا يذكر أختى أمامى إلا بسوء وأنه ينتقدها وينتقد تصرفاتها دائما

ويبدى عدم ارتياحه لها، ولاحظت أيضا أن أختى فى المقابل لا تتحدث عنه أمامى إذا عرضت سيرته إلا بما لا يحب هو أن يسمعه عنه وأنها تسبه كثيرا وتنقده وتعيب عليه الكثير من تصرفاته وسلوكه وشخصيته! وحرت فى فهم هذا العداء الغريب وهذه الكراهية المتبادلة بينهما، واكتفيت بالصمت كلما تحدث زوجى عن أختى بسوء، وكلما تحدثت أختى عنه بنفس الطريقة .

ولن أنكر عليك أننى وجدت لذلك فى نفسى بعض الارتياح الصامت وبعض مما يبعد عنى تلك الهواجس الـمُقْلِقَة، وحرصت على ألا أنقل لأحدهما رأى الآخر فيه حفاظا على السلام العائلى، ولكى يظل بيت أسرتى الذى تقيم به أختى مفتوحا لى ولزوجى معى، ويظل بيتى مفتوحا لأسرتى وإخوتى ومنهم أختى هذه .

ومضت بنا الأيام ثم بدأت أسمع أن أختى تبالغ فى تلهفها على الزواج مرة ثانية، فتزيد من دائرة العلاقات الاجتماعية حولها، إلى حد يكاد يهددها بسوء السمعة من حيث لا تريد، وانتقد بعض الأهل بالفعل تصرفاتها هذه لدى أمى فدافعت عنها دفاعا أعمى، وقالت للجميع إنه يكفيها ما لاقته من سوء معاملة زوجها لها فى الغربة ! ولم تحاول نصحها بالاحتراس والحفاظ على سمعتها لكى تستطيع الزواج فعلا .

ثم ارتبطت شقيقتى ارتباطا سريعا بشخص مناسب وتزوجته خلال فترة قصيرة، فتنفست أنا الصعـــداء، ورجع الهدوء من جـديد لحيــاتى الزوجيــة، ورحت أتبادل مع أختى وزوجهــا الدعـوات المنزلية للغـداء والعشــاء فى بيتى وبيتها مــن حين لآخر، فـلاحظت مـرة أخرى نفـورا عجيبا ومتبادلا بينهــا وبين زوجى بلا مبرر واضح، وبدلا من أن أسعد هذه المرة بهذا النفور وأطمئن له، وجـدته على العكس يثير قلقى ويجدد هواجسى القـديمـة من جـديد، لأن وجـود هذا النفـور يعنى أن بينهما أسرارا لا أعرفها، ولهذا فهما يتنافران بلا سبب واضح لى أو لغيرى .

إلى أن حـدث ذات يوم منذ بضعـة شهـور أن كنت بدون زوجى فى بيت الأسرة وكانت شقيقتى هنــاك وحدها أيضا لأن زوجهــا على سفر قصير، وكــان مفهـومــا أنها ستبيت ليلتهــا فى بيت الأسرة لأن زوجهــا غــائب، لكنى فـوجئـت بها تنهض للانصراف إلى شقتهــا لأن زوجهــا سيتصل بها تليفـــونيــا، فعـــرضت عليهــا أمى إذا كــان ضروريا لها أن تنصرف أن تذهب معهــا إلى شقتهــا لكيلا تمضى الليـل وحيدة، لكنَّهــا رفضت ذلك وتعجلت الانصراف حتى لا تتـأخـر عن مـوعـد المكالمة وخرجت معهــا عائدة إلى بيتى وقامت بتــوصيلى إليه، ثم انصرفت على وعد منهــا بأن تتصل بى من شقتها لأطمئن على وصــولها إليها، وبقيت فى بيتى أنتظر زوجى إلى أن جاء فى منتصف الليل، وسألتـه بتلقائية عما

أخَّره كل هذا الوقت فاعتــذر بالعمل، وبدلا من أن أتقبل الأمر ببساطة وجــدت نفسى فجأة وبلا سبب واضح أسـأله عمَّا إذا كـان قــد التقى بأختى هذا المساء فى أى مكان ولو بالمصادفة ؟!

وفوجىء بالسؤال غير المتوقع وسارع بالنفى مضطربا فإذا بى ولغير سبب مفهـوم أيضا أقدِّم إليـه مصحفا شريفـا وأطلب منه أن يقسم على صدق ما قال، فنظر إلىّ مترددا وحائرا للحظات ثم أقسم على المصحف الشريف.. ورغـم ذلك لم تهدأ هواجسى فطلبـت منه أن يقسم أيضـــا بالطلاق أنه صادق فيما أجابنى به فأقسم على ذلك، وكان المفروض عند هذا الحد أن أقتنع بصــدقه وينتهى الأمر إلا أننــى لم أقتنع ولم أصدق ولم تهدأ هواجسى وظنونـى طوال الليل ونمت نومـا قلقـــا مضطربا طوال الليل، وفى الصبـاح كان أول مـا فعلت هو أن اتصلت بأختى وتجاذبت معها أطراف الحديث بطريقة عادية وسألتها عن مكالمة زوجها لها مساء أمس، ثم سـألتهـا على سبيل الثــرثرة عمَّا إذا كـــانت قــد رأت زوجى بالمصادفـة مساء أمس بعــد انصرافها عنى، فإذا بها تجيبنى فى زلـة لسان مؤلمة بأنها قــد رأته بالفعل وصافحتـه مصافحة عـابرة ! فأسقط فى يدى ومـــادت بى الأرض وانتظرت عـــودة زوجى من عملـه وأنا أحترق بالكمد والضيــق والغيظ، وواجهته بما عرفت من أختــى خلال المكالمة، ففوجئت به ينهار ويعترف لى بأنه كـان معها بالفعل مساء أمس فى أحد

المحـلات العامـة، وأنه قد سـأل عن جدية يمين الطلاق الذى أقسمـه فأفتاه البعض بوقوع الطلاق فردَّنى وأنه نادم على كل شىء.. ثم توالت اعترافاته المفجعة، فـاعترف لى بأنه على علاقة عاطفيـة معها طوال عشر سنوات، وبأن ذمّـه فيها معى وذمّهـا فيـه عندى والنفور المتبـادل بينهما أمامى، كانا من ضمن خطة التمويـه التى دبراها معا لكيلا أكتشف أمر هذه العـلاقـة، بعد أن لاحظا شكوكـى فيهما وأن علاقتـه بها قد بدأت وهى مـازالت تقيم فى بيتنا لرعـاية أطفـالنا، وأنه بدأها، بمحـاولة التـلامس معهـا، فلم تردعه عـن ذلك ولم تستجب له فى نفس الوقت، واكتفت بأن قـالت له إن هذا حـرام، وإنه عـرض عليهـا أن يطلقنى ويتزوجها، فأبت عليه ذلك خوفا من الأسرة وكلام الناس.

واستمـرت العـلاقـة بينهما على هـذا النحـو عن طـريق المكالمات التليفـونيـة الطويلة، واللقـاءات الخاطفـة واللفتـات العـاطفيـة طوال السنوات الماضية تخللتهـا فترات صلح وخصام كأى طرفين فى عـلاقة، حتى إنه - كما اعترف لى بلسانـه - قد تمنَّى لى فى بعض الفترات الموت، لأنه الحل المثالى الذى يمكّنه من الزواج منها بدون فضـائح عائلية! ولم أحتمل منه أكثـر من ذلك فخـررت مغشيـا علىّ، ولم أفق من إغمائى إلا على دموعه ونحيبه فحاولت تمالك نفسى بعض الشىء، وجلست أمام زوجى أحاول استيعاب الموقف، وانحنى هو على قـدمى باكيا بحرارة،

وطلب منى أن أصفح عنه وأسامحه لأنه قد رجع الآن إلى رشده وعرف خطأه وأدرك قيمتى عنده... إلخ .

وجلست شاردة ذاهلة لا أعرف بماذا أجيبه ولا ماذا ينبغى لى أن أفعل، ثم ألهمنى الله فجأة فكرة جريئة فطلبت منه أن يكتب كل هذه الاعترافات بخط يده على ورقة إذا كان صادقا حقا فى ندمه وتوبته لكى تكون تحت يدى إذا رجع إلى هذه العلاقة مرة أخرى، ويكون من حقى حينئذٍ أن أقدمها للمحكمة كدليل على خيانته لى وأطلب الطلاق وأحصل عليه وعلى كل حقوقى لديه !

ولا أعرف حتى الآن كيف استجاب زوجى لهذا المطلب الغريب، وربما كان ضعفه وانهياره قد ساعداه على ذلك، فجلس يكتب كل ما قاله لى فى ورقة ويقر فيها على نفسه بخيانته لى مع أختى ويتعهَّد أمام الله وأمامى ألا يعرف هذه «المرأة» وألا يخوننى مرة أخرى !

ولا أعرف أنا أيضا كيف مضت علينا الأيام التالية لهذه الطامَّة الكبرى بعد فجيعتى فى زوجى وأختى معا، لكنى على أية حال قد طلبت منه أن ننفصل مؤقتا داخل البيت فيقيم فى حجرة أخرى، حتى تهدأ نفسى وتشفى جراحى، وحدث ذلك بالفعل، ومازال كل منا يعيش فى حجرة منفصلة. لكن مصيبتى لم تتوقف عند حد فجيعتى فى زوجى وأختى فقط، وإنما امتدت إلى غيرهما وتضاعفت بعد هذه

الاعترافــات بفترة قصيرة، فلقــد فكرت فى أن أطلع أمى عليهــا لأنها شــاركت من حيث لا تدرى فى خطأ أختى بدفـاعهـا الأعمى المستمـر عنهـا فى كل الأحــوال ورفضها قبـول أى انتقـاد لها، وفكرت أيضـا فى إطلاع بقيـة إخوتى عليها ليعـرفوا «حقيقـة» أختهم هذه، فما إن فعلت ذلك ببيت أسرتـى وفى وجــود أمى وإخـــوتى وأختى الخائنـة، حتى هجمت علىَّ أختى هذه لتحـاول أن تضربنـى بدلا من أن تنهـار وتقبّل قدمى وتطلب أن أسامحها، وذلك لأننى «أظلمها» كما قالت وأرميها فى شرفها!

وفوجئـت أيضا بانقســام إخوتى إلى فـريقين أحدهما معهـا والآخر معى. أما أمــى فقد أنهت الموقف كله بطردى من بيتهـا بغير أن نتوصل إلى حل للمشكلة، ولم أجـد ما أقوله لها حين فعلـتْ سوى: حسبى الله ونعم الوكيـل فيك يا أمى، فأنـا وهى من أبنائك، لكنـك لا تشهــدين بالحق الذى تعلمين تماما أنه معى، فلم تكتف أمى بطردى بل وضربتنى أيضـا وغـادرت بيت أسرتى وأنا مقهـورة وقهـر الدنيـا كله فى داخلى، وبكيت كما لم أبك فى حياتى حتى عند وفاة أبى منذ بضع سنين، وعدت لبيتى ورويت لزوجى ما حدث فتأثر لحالى وقرر أن يرجع معى إلى بيت الأسرة ويعترف أمام أمى وإخوتى بصــدق ما رويته لهم لكى يرفع عنِّى هذا الظلم الذى تعرضت له منهم ورجع معى بالفعل واعترف أمامهم

بما قلتـه كلـه وأقسم عليـه بالطلاق أيضـا وقـال لأمى ولإخـوتى إنه لايتنصَّل من جريمته وأنه مستعد لتحمل أى عقاب يرون توقيعه عليه، فكذَّبتـه أختى مـرة أخـرى بجـرأة أعجـب وكـذَّبوه هم أيضـا معهـا ، ورجعنا كما ذهبنا .

وقد تسألنى الآن: لماذا أكتب لك هذه الرسـالة المخزية، وماذا أريده من ورائهـا ؟؟ وأقـول لك إننـى أكتبهـا لأن أمى قـد أغلقت الآن فى وجهى بيتها، فلم يعـد لى مكان آخر سـوى بيت الزوجية الذى أتمنى أن أتركـه، لكن إلى أين أذهب إذا تـركتـه ؟ لقـد حـاولت الانتحـار، لكن زوجى يطالبنى بالصبر والنسيـان، ويعـرض علىّ أن نحتكم إليك وأن تدعونا لمقابلتك لتساعدنا فى التوصل إلى حل عادل لوضعنا الحالى، وأنا أريدك بالفعل أن تدعـونا لمقـابلتك، كما أريدك أيضـا أن توجـه لأمى وإخـوتى الذين اشتركوا جميعـا فى تأييـدهم لخائنة العيش والملح وصلة الرحم، وأن تقول لأمى إن ما فعلته معى حرام ولا يرضى به الله، وإننى أردد كـل يـوم: حسبى الله ونعـم الـوكيـل فى كـل من ظلمنـى.. فهـل تستجيب لهذين المطلبين يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لولا إشفـاقى عليك يا سيدتى ممـا تشعرين به من قهـر عائلى مـؤلم، ومرارة قاسية لفقدان الأهل والنصير فى محنتك هذه، لما نشرت رسالتك

ولما شغلت بها فكرى، فالحق أننى أكره مثل هذه المشاكل الأخلاقية الشاذَّة وأتجنب قدر الإمكان عرضها على القرَّاء تحسبا لآثارها السلبية الضارة على القيم الإنسانية والعائلية والأخلاقية، وتخوفا من أن تعطى البعض بشذوذها انطباعا خاطئا عن أحوال البشر، مع أننا نعرف جيدا أن الشر مزعج بطبيعته ولهذا فهو يلفت النظر ويستوقفنا، فى حين يمضى الخير فى دربه الآمن المألوف بلا ضجيج ولا إثارة فلا نكاد نشعر به، مع أنه الأغلب والأعم فى كل زمان ومكان.

وبعد هذا التحفظ المبدئى، فإنى أضيف إليه أيضا أننى أفترض فيمن يكتب لى عن مشكلته الصدق فيما يرويه لى، مؤمنا بأنه إذا لم يكن صادقا معى، فلن يحصل منى على المشورة الصائبة فى أمره، وبالتالى فإنى أفترض دائما الصدق فيما أسمع وأقرأ معتبرا نفسى أتعامل فيما أناقشه من مشاكل مع «نماذج بشرية» تحددها لى وقائع الرسالة المعروضة علىّ، وليس مع أشخاص بعينهم، فإذا جاءنى الطرف الآخر ذات مرة وشكا لى من أن بعض ما قيل عنه فى هذه الرسالة أو تلك ليس صحيحا، قلت له على الفور، إذن فأنت لست «النموذج البشرى» الذى قصدته بردِّى على تلك الرسالة، حتى ولو كنت البطل الحقيقى لها وكان ٩٥٪ من وقائعها صحيحا، لأنى إنما قد تحدثت عن نموذج آخر كونت رأيى فيه على ضوء ما عُرض من وقائع أفترض صحتها كلها .

وبهذا المفهوم يا سيدى فقد أستعير لقصتك هذه من أعمال أديب الإنجليزية الأشهر شكسبير، عنوان ملهاته الشهيرة: «كوميديا الأخطاء»، لأشير به إلى وقائع هذه القصة الغريبة بعد تحويره إلى «تراجيديا الأخطاء المؤلمة» ليكون أصدق تعبيرا عنها .

فقصتك للأسف تكاد تكون من البداية سلسلة متصلة من الأخطاء المريرة التى اشترك فيها جميع الأطراف، حتى بلغوا بها فى النهاية حد المأساة المفجعة، ومن عجب أن تكونى أنت أيضا يا سيدتى أول من بدأت هذه السلسلة غير الذهبية من الأخطاء، حين دعوت شقيقتك لكى تقيم فى بيتك، بالرغم من أنه قد ساورتك بشأنها الشكوك والهواجس من اللحظة الأولى التى التقت فيها بزوجك، ولاحظت عليها نظراتها غير المريحة إليه ! والمؤسف أيضا أنك قد فعلت ذلك ليس لأنك قد تخلصت نهائيا من هذه الهواجس بشأنها، وإنما لأنك قد راهنت على تجاهلها طلبا لمصلحة مؤقتة هى رعاية طفليك فى غيابك، فكان رهانك خاسرا منذ البداية وأسهمت من حيث لا ترغبين فى نسج خيوط هذه القصة المخزية .

أما خطأ أختك فى حقك، فهو أشد هولا وشناعة من خطأ زوجك، رغم بشاعة خيانته لك من أقرب الناس إليك، وإن كان التفاضل فى الخطايا لا يكون دائما إلا بين سيىء وأسوأ، ذلك أن زوجك حين تطلّع

لشقيقتك فلقد خان بذلك علاقة الزوجية المقدَّسة وأساء إلى القيم الأخلاقية والدينية.. أما خطأ أختك حين بادأته بالإغواء أو استجابت لإغوائه فلقد كانت تهدر بذلك كل القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية العائلية كذلك، لأن العلاقة الزوجية رغم قداستها علاقة قد تنفصم. أما علاقة الدم والرحم فهى علاقة أبدية ولا انفصام لها ولا يجوز المساس بها مهما كانت الإغراءات والأسباب. ومن هنا يثقل خطأ أختك فى الميزان عن خطأ زوجك، وإن كان كلاهما خاطىء ولا تغسل خطيئته مياه البحر بأكملها .

أما والدتك فلقد أدلت هى الأخرى بدلوها فى هذه الفاجعة حين التزمت موقف الدفاع الأعمى عن أختك، رغم كل ما وجّه إليها من انتقادات قبل الزواج، ثم واصلت التزامها بهذا الدفاع الأعمى عنها حتى حين انفجرت الكارثة العائلية. وشاركها إخوتك سيمفونية الأخطاء الرهيبة، فكذبوك وكذبوا زوجك وأوصدت أمك بابها فى وجهك بغير أن تنتصر لك أو تواسيك بكلمة واحدة تعينك على تحمل أقدارك.

أما الخطأ الدامى الذى حوَّل اتجاه الريح لكى يصبح ضدك بدلا من أن يكون معك، فلقد تورطت أنت أيضا فيه يا سيدتى من حيث لا تقصدين، فكانت له نتائج شديدة الإيلام لك وللحق والعدل

والإنسانية أيضا. وحوَّلك هذا الخطأ من ضحية إلى جانية فى أنظار أسرتك، ومن صاحبة حق معتدى عليها، إلى مجترئة على الروابط العائلية ترمى «المحصنات» فى شرفهن.. حتى ولو كان معها الدليل الدامغ وهو اعترافات زوجها بخط يده.. وبصوته وشخصه فى مواجهة الجميع !

أما كيف حدث ذلك.. وأين كان خطؤك فيه.. فهذا هو اجتهادى المتواضع فى محاولة تفسيره، وليس تأييده أو القبول به على أى وجه من الوجوه.

إن خطأك الأكبر يا سيدتى هو أنك لم تتعاملى مع هذه الفجيعة فى زوجك وأختك بالطريقة الوحيدة التى كان ينبغى لك التعامل بها معها، حرصا على الأواصر العائلية، وسترا لما لا ينبغى له أن يخرج عن حدود صدر من يعانيه، حتى ولو اكتوى بجحيم نيرانه، وهو تكتمه وحصره فى حدود علاقتك بزوجك.. ومحاولة اتخاذ القرار الملائم لك بشأن حياتك مع زوجك، بغير أن يتحول الأمر إلى فضيحة عائلية تهز الجميع من أعماقهم وتدفعهم لاتخاذ مواقف دفاعية نفسية أكثر منها مواقف عقلانية أو منطقية أو عادلة.

ذلك أنه من مواقف الحياة يا سيدتى ما تضر فيه المواجهة والانتشار والذيوع بأكثر مما يضر الكتمان وتضييق الدوائر حتى ولو تعذب

الإنسان وحـده بأقداره.. ولقـد كان الموقف الذى واجهتيـه فى حياتك الزوجيـة من هـذه المواقف يا سيـدتى. وكـان أمــامك حين واجهتيـه خيـاران اثنـان لا ثالث لهما، هما إمـا أن تطـوى صـدرك على السر المؤلم الذى يضُر بك أنت ويسـىء إليك ذيوعـه بقـدر مـا يسىء إلى أختك وزوجك، وتفكرى فى أمـر حيـاتك مع زوجك، فتقبلى بتـوبة شريك حياتك وتتأكـدى من صدق ندمه، وتواصلى الحيـاة معه مع الاحتراس والتحـوط من ألا يرجع إلى مـا كان فيـه مـرة أخـرى، ولو تطلب ذلك التلميح لأختـك أو التلويح لها بتهـديد ضمنى لا يحسب عليـك عند الحساب بأن مـا جرى طوال الفترة الماضية لـن يستمر يوما واحـدا بعد الآن، وإلا كـانت العـاقبـة وخيمـة عليهـا وعلى حيـاتها الزوجيـة، ثم تواصلى حيـاتـك مع زوجك مع الحذر اللازم من تجدد العـلاقـة ومع تحفظك بعـد ذلك فى عـلاقتك بأختـك، وتجنب اللقـاءات العـائليـة والشخصيـة معهـا لفترة طويلة، إلى أن تطمئنى تمامـا لاستيعـابها درس التجربة. وإمـا أن تعجزى عن الصفح عن زوجك وعن القبـول بالحياة معـه بعـد استنفـاد كـل محاولات مـراودة نفسـك على ذلك، فتطلبى الانفصـال عنـه مع تكتم أسبـابه المخجلة للجميع وأولهم أنـت، ثم ترجعى لـلإقـامـة فى بيت والدتك، وقـد تشفـى نفسك بعـد حين وتستجيبى لمحـاولات زوجك لاستعـادتك إذا لمست فيـه استقـامتـه

وصدق ندمه، وقد تتمسكين برفضه وتتعلقين بالأمل فى بدء حياة جديدة مع غيره ذات يوم.

أما طرح المشكلة بشكل علنى.. وعلى هيئة محاكمة حضورية لأختك، على الأم والإخوة بهدف أن يعرفوا «حقيقتها» وتعرف أمك حقيقة دورها فى إفسادها، فقد كان ذلك هو الطامة الكبرى حقا بكل المقاييس. ذلك أن كل تصرف يقدم عليه الإنسان طلبا لحل مشكلة يواجهها، ينبغى أن يكون له هدف يساهم فى تحقيق هذا الحل. فماذا كان الهدف من وراء طرح هذه المشكلة المخزية على الإخوة والأم على هذا النحو الفاضح ؟!.. وماذا كانت نتائجها المعاكسة ؟!

لقد كان هدفك فى تقديرى هو أن تستصدرى ضدها قرارا بالحرمان العائلى أو المقاطعة الجماعية، ولو فعلت أمك وإخوتك ذلك لما لامهم أحد عليه، لكن ماذا كان يجديك ذلك فى حل مشكلتك مع زوجك ؟.. هل كان يغير شيئا مما جرى طوال عشر سنوات ؟ هل كان يساعدك على تجاوز المحنة مع زوجك واستمرار الحياة معه حرصا على أبنائك ؟.. هل كان يعيد إليك ثقتك فيه ؟ أو يغسل جريمة أختك فى حقك ويمحوها محوا ؟.. لا شىء من ذلك للأسف كان سيحققه مثل هذا القرار حتى لو كان الجميع قد أنصفوك وانتصروا لك ضدها، وإنما كان الشىء الوحيد الذى سيحققه هو أن يروى لديك رغبة الانتقام من أختك والثأر منها لإساءتها لك هذه الإساءة البالغة.

وهذا الانتقـــام نفســه لم يكن لو تحقق ليغير شيئـا من الواقع المر، ولم يكن ليضيف شيئا إلا تحويل مأساتك الشخصية إلى مأساة عائلية جماعية يستخزى منهـا الجميع وتجرح مشاعرهـم وكبرياءهم. لهذا فقد حققت نتائجهـا العكسية بدلا من أن تحقـق لك نتائجهـا المرجوة، لماذا؟.. لأن الإنسان قد يفضل أحيـانا خداع نفسه على مواجهـة واقع شديد الإيلام لمشـاعره وشـديد المسـاس بكرامته وشرفـه وكبريائـه، فيلجأ إلى بعض الحيل النفسية الدفاعية لكى يعفى نفسه من ألم المواجهة .

وأنت يا سيدتى قد وضعت الجميع أمام هذا الاختيار الصعب، فإما أن يسلمـوا لك بكل مـا اتهمت به أختك فتتأذى مشـاعـرهم العـائليـة وكرامتهم وشرفهم وكبرياؤهم الشخصى أشـد الأذى، وإما أن يلجأوا إلى الإنكار، والتشكك فى صـدق اتهامـاتـك وأدلتك، ويأخـذوا بمبـدأ تفسير الشك لصالح المتهم مفضلين اتهامك أنت بالغيرة الجنونية وسوء الظن بأختك على أن يتحملوا آلام الاعتراف المؤلم لمشاعـرهم وكرامتهم وشرفهم بصدق ما توجهينه لها من اتهام .

ولقد كـان هذا بالفعل هو اختيار والدتك وإخـوتك الذين انقسموا فى البـداية بينك وبينهـا، ثم تكتلوا فى النهـاية ضـدك، ليس تفضيـلا لها عليك ولا حبّا فى شخصها وكـراهية لشخصك، وإنما حبّا لأنفسهم هم قبل كل شيء، وإيثارا للسلامة النفسية من معاناة الخيار الأول المؤلم .

إنها حيلة نفسية دفاعية لم يتفقوا عليها بتدبير مسبق وإنما لجأوا إليها تلقائيا وفرادى لأنها تعفيهم جميعا من الإحساس بالعار العائلى ، حتى ولو تشكك بعضهم أو كل منهم فى أعماقه فى كذب دفاع الأخت عن نفسها وفى براءتها، ولا عجب فى تفضيل هذا الخيار الأسهل لأنه أقل إيلاما لهم وفى أن يتهموك أنت بالتجنى عليها، من أن يسلموا بأنها خاطئة وخائنة لشقيقتها مع زوجها لعشر سنوات كاملة !

لهذا فلقد خسرت أنت المعركة حين وضعتيهم جميعا أمام هذا التحدى المؤلم لشرفهم وكبريائهم، فآثروا السلامة النفسية واختاروا الحل الأيسر لهم الذى يعفيهم من مكابدة إحساس العار ومواجهة الواقع المؤلم الذى يحتاج إلى شجاعة نفسية لمواجهته، لم تتوافر لهم .

وليس معنى ذلك أبدا أن موقفهم صحيح أو عادل .. فهو موقف ظالم لك ومخادع للنفس، لكنك قد ساعدتهم جميعا على اتخاذه بطرح هذه المشكلة المخجلة عليهم على هذا النحو الجماعى العلنى، وما كان ينبغى لك أن تفعلى ذلك أبدا، وما كان ينبغى لك من البداية إلا أن تطوى صدرك على هذا الجرح المؤلم وتختارى لحياتك مع زوجك ما يرتاح إليه ضميرك وتقوى عليه إرادتك فى هدوء وبلا ضجيج .

أما وقد فعلت، فلم يبق لك إلا دواء الأيام وحده وما أبطأه من دواء.. وما أنجعه أيضا من علاج، فالزمن كفيل بحل أعتى المشاكل

حتى ولو كـانت من نوع المآسى الإغريقيـة كهذه المأسـاة، كما لم يبق لك أيضـا إلا أن تختـارى لحيـاتـك مع زوجك على ضـوء هـذه الأوضـاع الجديدة التى سـاهمت للأسف فى تعقيـد مـوقفك، ولعـل فى مسـاندة زوجك لك أمـام أسرتك واعترافـه أمـامهم بما يشينه هو شخصيـا ولا يجرؤ كثيرون على الاعتراف به فى محاكمـة عائليـة وبلا هدف سـوى أن يبرىء ساحتك ويناصرك فى محنتك معهم، أقول إنه لعل فى هذا الموقف الذى لا ينكر أحد عليـه شجاعتـه فيه ما يصلح لأن يكـون بداية تبنيان عليها أو تبـدآن منها صفحـة جديدة خاليـة من كل الآثام والخطايا، إذا أردت ذلك أو لمست فى نفسك الاستعداد للقبول به .

وأنت على كل حال لا بدائل أخـرى الآن أمامك سوى ذلك بعـدما تحطمت كل الجسور بينك وبين أسرتـك بهذه المواجهة الخاطئة، ففكِّرى فى الأمـر على ضوء هذا الواقع المؤلم وتخلَّصـى من تسلط رغبة الانتقـام من أختك عليك، حتى لو كانـت تستحقه، لأن إيذاءها لن يجديك شيئا ولن يعوضك عن شىء من سنوات العمر الضـائعة فى الخيانة والغدر ، ولأن رد الإيذاء أيضـا فى الأحوال العـائلية إنما يصيب يد الرامى نفسـه قبل أن يصيب قلب الهدف . ولأنه فى مثل هذه الحروب العائليـة كذلك لا ينتصر فى النهـاية سـوى الألم وحـده الذى يصيب رذاذه الضحـايا والجناة على السواء!

وقديما قال شاعر الأطلال الدكتور إبراهيم ناجى :

عشت وامتدت حياتى لأرى ... فى الثرى ما كان قبلا فى القمم

وإذا انحط زمان لم تجد ... عاليا ذا رفعة .. إلا الألم !

وأى زمان أحط من زمان تخون فيه أخت أختها عشر سنوات كاملة مع زوجها، ثم تواجهها الضحية بما فعلت .. فلا تثقب عينيها بمسمار ندما واستغفارا كما فعل أوديب حين اكتشف أنه قد تزوج من أمه بغير أن يدرى، وإنما تنقض على أختها كالنمرة الشرسة لتنشب فيها أظافرها، وبدلا من أن يجتمع عليها أهلها وإخوتها حتى ينقذها منهم المنقذون يشاركونها العدوان على الضحية وينتصرون لها عليها .. ويفضلون «الإنكار» المريح على الاعترف المؤلم بالواقع المخزى.. ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

* * *

اللحظة الفاصلة

أكتب إليك رسالتى هذه انفعالا برسالة «التضحية المخيفة»، التى روت لك فيها زوجة محبة ومخلصة عن صبرها على نزوات زوجها، إلى أن فوجئت به وقد تزوج سرا من سيدة تعرف بها قبل ٤ شهور فقط وتركت زوجها المسن بعد زواج ٢٣ عاما وضحت بأبنائها الشباب وحصلت على الطلاق لتتزوج من زوج كاتبة الرسالة زواجا عرفيا. وأريد أن أقول لك يا سيدى إننى لم أندهش لوقائع القصة نفسها فهى قد تحدث كثيرا فى الحياة، لكنى اندهشت حقا لردك عليها الذى قلت فيه إن هذه السيدة التى تزوجت من زوج كاتبة الرسالة إنما كانت تخطط منذ فترة بعيدة وقبل التقائها به للتخلص من زوجها، ووجدت فى زوج كاتبة الرسالة الحماية لها فحسمت أمرها مع زوجها وأقدمت على الخطوة التى كانت تدبر لها منذ زمن طويل، وبالتالى فإن حبها لزوج كاتبة الرسالة الذى لا يزيد عمره عن شهور ليس هو دافعها لهدم أسرتها.. وليس هناك إذن ما

يدعو زوج كاتبة الرسالة للتذرع بعدم التخلِّى عنها بحجة هذه التضحية المزعومة من أجله !

وسر اندهاشى لهذا الرد هو أنه صحيح فعلا ولا أعرف كيف توصلت إليه من تحليلك لوقائع القصة.. وقصتى تؤكد أن الزوجة ذات الأبناء لا تحسم أمرها فى طلب الطلاق بمثل هذه الرعونة وإنما بعد تفكير طويل طويل، فأنا سيدة أبلغ من العمر ٤٠ عاما وعلى قدر من الجمال والرشاقة والأناقة يدفع الناس للاعتقاد بأنى أصغر سنا من عمرى الحقيقى وقد تزوجت منذ ٢٣ عاما، أى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى من رجل يكبرنى بـ ١٧ عاما . ولم يجبرنى أحد على الزواج منه حين تزوجته، وإنما كان هذا هو العرف السائد وقتها فى أسرتى المحافظة، وهو أن يختار لنا الأهل شركاء الحياة فلا نعترض على اختياراتهم مادامت فى حدود المألوف .

وقد كان زوجى حين ارتبطت به رغم فارق السن الكبير بيننا فى مرحلة الشباب ولا يزيد عمره على ٣٤ عاما، وإنما ظهرت المشكلة بسبب صغر سنِّى بالقياس إليه.. وعلى أية حال فقد مضت حياتى مع زوجى بعد الزواج فى استقرار ولكن بدون سعادة حقيقية.. بل ومع كثير من المعاناة.. فلقد كان باختصار إنسانا فاشلا فى حياته بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، وكانت له نزواته النسائية العديدة وأضاع

الكثير من ثروته فيهـا وفى تخبطه وفشله حتى لم يعـد قادرا على الإنفـاق على أسرته كما ينبغى، وفى مقـابل ذلك كنت أتظاهر دائما بالاستقـرار فى حيـاتى الزوجية وأعـوض نقصه المادى، إلى أن صـدمنى بإهانة قاسيـة أسقطته من نظرى كرجل وكانت هذه الإهانة موضوع رسالة نشرت فى بريدك منـذ حـوالى عـامين، ورغـم ذلك فلقـد تحاملت على نفسى.. وسويت أمورى معه وحافظت على استمرار الحياة لا حبّا فيه.. ولا من أجل أبنائى كما تتصـور، وإنما خـوفـا مـن أسرتى ومن نظرة المجتمع لى كمطلقـة.. ومن نظرة أولادى أنفسهم لى كأم حـرمتهم من الاستقـرار العائلى ذات يوم، إلى أن بلغت «كـوارثه» ذروتها بإصابتـه بالعجز الذى يدفعه لمحاولة إثبات العكس، فتحولت حياتى إلى جحيم حقيقى.

ونظرا لأنى إنسـانة متدينة ولا أطيـق فكرة الخيانة الزوجيـة أو أقبل بها، فلقـد ازداد تفكيرى فى طلب الطلاق منه بعـد كـوارثه الأخيرة ولم أقل بدأ تفكيرى فيه؛ لأنه كان قـد بدأ منذ فترة طويلة بالفعل وتركزت آمـالى فى أن أبدأ حيـاتى من جـديد مع إنسـان أرمل أو مطلق منذ فترة لكيـلا أكـون سببا فى هدم أسرة أخـرى.. وأيضـا لكى أبدأ حيـاتى مع إنسان محترم غير خائن لزوجته.

وهكذا صممت على الحصول على الطـلاق حتى لا أخون نفسى أو زوجى ولكى أفتح الطريق أمامى للالتقـاء ذات يوم بمثل هذا الإنسان

المحترم الذى لا يسمح لنفسه بأن يتطلع إلى زوجة رجل آخر، وبدأت أمهد الطريق لطلاقى القريب لدى إخوتى وأمى وزوجى.. وبدأت أتحدث أمامهم كثيرا عن أن الطلاق ليس فى كل الأحوال كارثة عائلية يضيع بسببها الأبناء.. بل إن هناك أسرا كثيرة انفصل فيها الأبوان، ومع ذلك فلقد سارت الحياة بالأبناء إلى شاطىء الأمان ولم يفشلوا فى دراساتهم، وكررت نغمة هذا الحديث مرارا وفى مناسبات مختلفة حتى بدأ زوجى يستشعر الخوف وعدم الأمان معى ويترقب انفجار الموقف ومطالبتى له بالطلاق فى أية لحظة .

وحزمت أمرى واستقر رأيى نهائيا على طلب الطلاق وحددت الموعد الذى سأعلن فيه زوجى به والخطوات التى سأتخذها لتنفيذه والتفسير الذى سأقدمه لأبنائى ولأهلى عنه.. ثم حدث حادث بسيط أثار اضطرابى وترتبت عليه نتائج بعيدة الأثر.. فلقد دعينا لحضور حفل زفاف إحدى قريباتنا وذهبنا جميعا أنا وزوجى وأولادى إلى الزفاف.. فإذا بى أنظر إلى قريبتى هذه فى فستان زفافها وحولها أبوها وأمها وهما فرحان بها وسعيدان للغاية وهى سعيدة بوجودهما حولها وتستشعر الشرف والأمان فى قربهما منها فى هذا اليوم، فأسرح بأفكارى بعيدا وأقارن بين حال أولادى إذا ماتركت أباهم الآن وبين موقف هذه القريبة التى تنعم فى هذه اللحظة بفرحة أمها وأبيها اللذين يشرفانها

أمام الجميع، وإذا بى أضطرب نفسيا وأستشعر ضرورة وجود الأبوين فى هذا اليوم إلى جوار أبنائهما ليشرِّفاهم أمام الجميع ويفرحا به معهم، فلا أدرى كيف عدلت فجأة عن فكرة الطلاق التى استولت على تفكيرى ومشاعرى طوال الشهور الماضية، ولا أدرى كيف تبخرت هذه الفكرة فى لحظات وأنا فى حفل الزفاف فقررت الرضا بحياتى التعيسة مع زوجى من أجل أبنائى، بل ووجدت نفسى فى هذه اللحظة أبحث عن زوجى فى الفرح وأجلس إلى جواره، وقد كنت فى العادة أجلس فى مكان بعيد عنه . ومنذ ذلك اليوم عدلت عن الحديث عن الأسر التى انفصل الأبوان فيها ولم يفشل أبناؤها.. وبدأت أشعر زوجى بالأمان من ناحيتى بعد أن كان خائفا ويترقب قرارى بالانفصال فى أية لحظة ..

ولست أزعم بعد ذلك أننى سعيدة فى حياتى.. لكنى أقول لك فقط إننى قد تركت نفسى لليأس والألم من أجل من أتيت بهم إلى الحياة، ومن حقهم علىَّ أن أقف إلى جوارهم فى رحلتهم معها .

وقد كتبت لك رسالتى هذه أولا لأضم صوتى إلى صوتك فى أن تلك السيدة التى تزوجها زوج كاتبة الرسالة كانت تخطط فعلا لترك

زوجها قبل أن تقابل هذا الرجل، وبالتالى فهى لم تقدم تضحية غالية من أجله كما توهمه. وثـانيـا لكى أوجـه ندائـى إلى الآباء والأمهـات ألا يتعجلوا زواج بناتهم صغيرات السن لمجرد أن العـريس المتقدم لهن من عائلة كبيرة أو فى مـركز مرمـوق ، إذ إنه ليس من الإنصاف فى شىء أن تتـزوج فتاة فى سن الصبـا من رجل أكبر منها فى العمـر بكثير.. فيكون الزوج بعـد عشرين عـاما مثـلا قـد عـرك الحيـاة وعركتـه وشبع منهـا واستنفدت قواه وقدرته، وتكون الزوجة التى مازالت شابة قد شارفت سن النضج التى تبـدأ فيهـا فى «النظر» لنفسها والاهتمام بشأنها بعـد أن شب أبناؤها عن الطوق وقل اعتمادهم عليهـا، فتغرق الزوجـة فى فراغ نفسى وعـاطفى رهيب، وتزداد غربتهـا وأزمتهـا حدة عندمـا لا يكون للزوج عندها رصيد سابق من الإخلاص أو الاحترام ..

هذا ما دفعنى للكتابة إليك.. فهـل عندك من كلماتك الهادئة العاقلة ما تعيننى به على ما أنا فيه ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الفارق بين الذاتية وانحصار تفكير الإنسان فى ذاته وما يتعلق بها من اعتبـارات ورغبـات حتى ولو كـانـت عـادلة فى بعض الأحيـان، وبين الغيرية والتضحية واتسـاع قلب الإنسان لهمه بالآخـرين إلى جوار همه

بنفســه، هو بالضبط الفارق بين حــالك قبل حفل الزفاف هذا وحــالك بعده !

فقبل هذا الحفل كنت قـد حسمت هذا الصراع الطويل الذى دار فى أعماقك بين تطلعـك للسعــادة الشخصيـــة، وهمك بمسئوليتـك عن أبنائك، لصالح اعتباراتك الشخصية، ولم تبق إلا لحظة الانفجار .

وكعـــادة الإنســان حين يحسم صراعـا فى أعماقــه لصالـح اختيــار معين يترتب عليه شقــاء غيره به، فإنــه يحـاول دائما وبطريقـة لا إرادية أن يقنع نفسه أولا «بعدالة» هذا الاختيار وبأنه لم يظلم به أحـدا .. وبأنه حتى لو شقى به أعزاؤه فإن شقاءهم به لن يكون مؤثرا على مسيرتهم فى الحياة !

.. كأنما يريد بذلك أن يتخفـف من إحســاســه بالذنب تجاه ضحــايا اختياره الوشيك وأن يشجع نفسه عليه .

وهكذا فعلت أنــت يا سيــدتى حين حسمت الاختيــار داخلك فى البـداية لصـالحك «كامـرأة» جميلة فى الأربعين من عمـرها ومن حقهـا بعدما عانته من خيانة وحرمان مع زوجها أن تتطلع لحياة أخرى جديدة مع رجل آخر .

فلماذا غيَّر مـن حــالك خــلال تلك اللحظـات الفاصلة التى رأيــت

فيهـا هذه العـروس الشـابة سعيـدة بأبويها وأبواها سعيـدان بها فى ليلة زفافها؟!

لقـد حـدث لك شىء هام وجـوهرى يقطع بأنك مـن أصحـاب القلوب الحكيمـة والضمائـر الحية.. فلقـد «ذكَّـرك» هذا المشهـد .. وفى لحظة تنوير ثمينة بأنـك لست فقط امـرأة جميلة فى الأربعين من عمـرها لكنك أيضا - وهو الأهم - «أم» لأبنـاء وبنات لا ذنب لهم فى اختيارك لزوجك ولا فى نزواته وتخبطه فى الحياة وإسرافه على نفسه، ومن حقهم رغم كل ذلك أن يسعدوا بالحياة وبمثل هذه المناسبة العزيزة بين أبويهم كما يفعل كل الأبناء .

لقـد أثبتت لك هذه اللحظة السحـرية أنك لست من تلك النوعيـة من البشر التى تستطيع أن تسعـد بحياتها الشخصيـة بعيدة عن أبنائهـا، وأن تفكيرك فى تغيير حياتك وطلب سعادتـك مهما طال فلقد كان مجرد سبـاحـة قصيرة فى بحر الفـردية وأحـلام السعـادة الشخصيـة الذى لا تقوين على مغالبة أمواجه..، فأعادك مشهد حفل الزفاف على الفور إلى شاطىء الأمومة والعطاء والتضحية من أجل الأبناء والتحمل والتصبر على أنواء الحياة ..

كأنما كـانـت سبـاحتك فى هذا البحـر العـاصف - بحـر الفـردية والتفكير الذاتى - نوعـا من أحـلام اليقظة التى يتعـزى بها التعسـاء

والمهمومـون عن تعاستهم حين تضيـق الصدور بها تعانى ثـم لا يلبثون أن يفيقـوا منهـا بعـد قليل على واقعهم الأليم، ويزفـرون متصبرين مع الإمـام الشهيـد الحسين بن على: «عند الله نحتسب أنفسنا»، ويواصلون طريق التضحية والتحمل من أجل الأبناء بلا نهاية وبلا رجاء أو انتظار لثمن لتضحياتهم .

ولا عجب فى ذلك فمـن يضحى باعتبـاراته الشخصيـة من أجل أبنائه، إنما يفعل ذلك أساسا استشعارا لمسئوليته عنهم أمام خالقه وأداء لواجبه تجاههم واحتراما لنفسه قبل كل شىء، فإذا جوزى عن تضحيته بما يستحقـه من أبنائه فى المستقبل فخير وبركـة.. وإن لم يقدرها له أحـد كما يشككنا فى ذلك دعـاة المنهج الفـردى فى التفكير وطلب السعـادة.. فلقـد احتسب المضحون منذ البـداية أنفسهم وتضحيـاتهم عند ربهم .. والعاقبة للصابرين !

ومنطق التضحية من البداية ضد منطق المقايضة وانتظار الثمن .

فهنيئا لك اختيـارك النبيل يا سيـدتى فى لحظة التنـوير الثمينة هذه، فلقد قدمت به لأبنائك وللحيـاة ذلك الشىء «الزائد» عن العدل الذى لا تستقيم الحيـاة بغيره، وهو «الفضـل» الذى يملى على الفضـلاء أن يترفقـوا بأبنائهم ويؤثروهـم على أنفسهم، ولولا هذا الفضل لانهارت

بيوت عديدة ولفقد أبناء كثيرون مظلاتهم الواقية التى يحتمون تحتها من أعاصير الحياة ..

فآه لو يعرف لك زوجك قيمة هذا العطاء له ولأبنائه، ويحاول أن يعوضك عنه وعن كل ما فعل بك من قبل .. وآه لو يعرف الأبناء كم يتحمل بعض الآباء والأمهات من عناء وآلام لكيلا يحرموهم من تلك المظلات الواقية فيقدروا لهم هذا العطاء وهذه التضحيات .. وشكرا لك على رسالتك المفيدة .

* * *

الورقة المطوية

أنا سيدة فى الخامسة والأربعين من عمرى، متزوجة من رجل ميسور الحال، وقد عشنا حياتنا الزوجية فى سعادة وهدوء، وأنجبنا ولدا وبنتا، وننتمى لأسرة مترابطة تحرص على القيم والتقاليد، وتربى أبناءها التربية الحديثة ونعيش معا حياة هادئة سعيدة، وما من مشكلة تعترضنا وتهددنا بتعكير صفو الحياة إلا وجدنا لها الحل بينى وبين زوجى بالإقناع والتفاهم، وفى بعض الأحيان نشرك أبناءنا فى حل هذه المشاكل ونتفق على الحل المناسب، ويشعر كل منا بمشاركته وباتفاق آرائنا فيه وقد تخرج ابنى الأكبر فى الجامعة ومازالت ابنتى تواصل دراستها الجامعية. وقد
ربيناهما كما ذكرت لك فى البداية التربية الحديثة، فتعلما فى مدارس مختلطة، ويذهبان إلى النادى ويصادقان فيه أصدقاء من الجنسين .. وكل شىء واضح وصريح أمامنا، فنحن نعرف أصدقاءهما ويحضرون معهما إلى البيت ويخرجون معا. ومنذ عامين تعرفت ابنتى على شاب من

أصـدقاء «الشلة» فى النادى وأحبتـه وكـان عمـرها حينذاك ١٦ عامـا، وصارحتنى بذلك ونصحتها كما تنصح كل أم ابنتها فى مثل هذا الموقف وفى هذه المرحلة من العمر، فقلت لها إنها مازالت صغيرة، وإن المستقبل عريض أمامها وسـوف تلتقى بأشخاص كثيرين ستجد فى أحدهم فتى أحـلامهـا المناسب لها، فكانت تسمع لما أقـول وتصر على أنها تحب هذا الشاب وتريد أن تكمل باقى مشوار حيـاتها معه، وأمام إصرارها اتفقنا على أن تظل هذه العـلاقة فى حدود النـادى وفى وجود باقى الأصـدقاء وعلى أن نكون على علم بكل شىء وبصراحة تامة. وبعد ذلك فلا بأس من رؤيته أو مكالمته فى حدود الأدب .

واستمـــر الحال على ذلك عـــامين وأنا ووالدهـا نعلم ونسكت على مضض، أمـا ابنـى فهـو فى قمـة الاستيـاء لأنه لا يـرى فى هذا الشـاب شخصا مناسبـا لأخته عائليـا واجتماعيا ومـاديا، فضلا عن أنه لم يكمل تعليمه بعد .

وعشنا على أمـل أن تدرك هى هذه الحقـــائق مع الـزمن حين تكبر وتنضج وتعرف أنه عبث أطفـال وليس حبا حقيقيـا، وأنها كانت مخطئة فى اختيارها ومشاعرها، إلى أن فوجئـت بها ذات يوم فى موعد رجوعها من الجامعـة تدخل البيـت مسرعـة ووراءها أخـوها الذى راح يضربها ويلعنها وهى تبكـى وتصرخ وانزعجت بشدة وتساءلـت عن الأمر ..

فعلمت من شقيقهـــا أنه رآها مع هذا الشـــاب يجلســان فى مكــان عــام ويشربان الشاى !

وكــان ذلك صــدمــة بالنسبــة لى، فلقــد تركت لها الحرية بشرط ألا تكذب وألا تخفى عنى شيئـا وأن تكون العـلاقـة فى حـــدود النادى ولم نمنعهـا من شىء ولم نتشـدد معهـا، لكـن يبـدو أن هذه كـانت غلطتنا الكبرى التى أعترف لك بها وأعترف أيضـــا بأننا قـــد أخطـأنا فى هذه التربية الحديثـة التى يتبعها معظم أبناء جيلنـا إذ لو كنا قد تشـددنا معها من بادىء الأمـر ومنعناها من رؤيتـه لما حـدث مـا حـدث، إذ بعـد أن ضربها أخوها غادر البيت غاضبا، ودخلت هى حجرتها وراحت تبكى بحرقـة، ودخلت وراءها وطالبتها بقطع علاقتها بهذا الشـاب، لأنها قد كذبت علىّ ولم تلتـزم بوعدها لى بألا تخرج معه، فـانهارت فى بكاء أشد، وقالت لى إنها لا تستطيع ذلك .

ثم نهضت وأخـرجت ورقـة مطوية وقـدمتها لى فأخـذتها مندهشـة وفتحتهـا، فما إن فعلت ذلك حتى مادت بى الأرض ولم أدر بما حـولى ، ولم أفق من غشيتى إلا بعـد ساعتين، فـوجـدت ابنتى تبكى وتقبل يدى وقـدمى وترجونى الصفـح عنها.. فلقـد كانـت الورقة المطوية قسيمـة زواج شرعى بهذا الشاب الملعـون ! ولا أستطيع مهما حاولت أن أصف لك مشـاعرى حين استوعبت مـا قرأته فى هـذه الورقة، فقد وجـدتنى

أشعـر بكراهية شـديدة لابنتى هذه التى داست على كل شىء، وداست على نفسهـا، وأشعـر فى نفس الوقت بـالعطف عليهـا وهى تتـوسل لى وتعترف بخطئهـا وتطلب منى الوقــوف بجـوارها وألا أتخلى عنهـا فى محنتها. أما مشـاعرى تجاه هذا الشاب اللعين فلقد كانت كـراهية طاغية ومقتا شديدا لا يخالطهما أى إحساس آخر ! حتى تمنيت لو استطعت أن أذهب إليـه فى نفس اللحظة فى بيته وأغـرس فى صدره سكينا حـادة كما غـرس هو هذا الخنجـر المسمـوم فى قلب أسرتى التى كـانت سعيـدة وراضية بحياتها قبل أن يظهر فى الأفق .

ولا أعرف كيف تحرك مؤشر الساعة فحل الظلام وأنا وابنتى فى هذا الموقف العصيب.. ولا أذكـر إلا أننى كنـت أشعـر فى بعض اللحظات كأننى فى كابوس مـزعج سأصحو منه بعد قليل، ثم أعيد قـراءة الورقة اللعينة فأجده واقعا وليس حلما مـزعجا. وبعد أن هدأت بعض الشىء عاودت قراءة الورقة، فإذا بى أكتشف أيضا أن تاريخ الزواج قد مضت عليه سنة طويلة، كـانت ابنتى تخرج وتدخل علينا خلالها فى براءة وهى تخدعنا وتخفى عنا أنها قد تزوجت هذا الشاب اللعين وعمرها ١٧ عاما فقط . فيالها من مصيبة، ويا لها من مصيبة كبرى !

وتكتمت الأمر عن زوجى وعجـزت عجزا تاما عن مصـارحته به،

وفوجئنا بعد ذلك باتصال من أسرة هذا الشاب يطلبون فيه زيارتنا بهدف التعارف والتمهيد للخطبة وجاءوا بالفعل لزيارتنا، ولا أعرف كيف تحكمت فى مشاعرى وأنا أرى هذا الشاب أمامى، وبعد خروجهم وجدت زوجى غاضبا ورافضا الخطبة رفضا قاطعا لأن ابنتنا مازالت صغيرة، ولأن هذا الشاب غير مناسب لها كما أنه لم ينته من تعليمه ولا يرى هو أى مبرر للاستعجال فى هذا الأمر !

ولم أدر ماذا أقول له عن هذا «الأمر» الذى أطار النوم من عينى وأفقدنى سلامى وسعادتى.. ولم أجد ما أفعله سوى تشديد رقابتى على ابنتى فمنعتها من الذهاب إلى النادى، وراقبت التليفون بصفة دائمة، حتى بدأت تكرهنى، ومازلت فى حيرة من أمرى وأحاول أن أتماسك أمام زوجى، وأبحث عن حل بلا جدوى. لقد كانت غلطتنا الكبرى هى أننا آمنا بالتربية الحديثة، وقلنا لأنفسنا وما الضرر وكثيرات من البنات يصادقن الشباب ويخرجن مع زملائهن فى أعياد الميلاد وإلى دور السينما والمطاعم، وقلنا إن كل الشباب يفعلون هذا، وأن أبناءنا أفضل من غيرهم والحمد لله أنهم لم يدمنوا المخدرات ولم ينزلقوا، ولم نتصور أنهم يمكن أيضا أن يخطئوا وأن نشقى نحن بأخطائهم ونفقد السعادة والأمان .

ولهذا، فإنى أستحلفك بالله أن تنصح كل الآباء والأمهات بأن

يضعـوا أبناءهم دائما تحت الميكروسكوب، وألا يعتمـدوا كما فعلنا على أنهم قـد أحسنوا تربية أبناءهم والبـاقى بعد ذلك على الله، إذ يشهـد الله والناس أننا قـد ربينا أولادنا أحسن تربية ولم نتركهم وحـدهم ونسافـر للعمل فى بلد آخـر كما يفعل غيرنا ولم نكن نخـرج للسهـر أو للسفـر وندعهم وحدهم لا نعلم عنهم شيئا، وابنتى هذه يشهد لها الجميع فهى متفـوقة وذكيـة فى دراستهـا ومهـذبة جدا، وفى البيت مطيعـة ومحبـوبة وتشارك فى أعمال البيت وتصلى وتصـوم وتقرأ القـرآن. ولا أدرى ماذا أصـابها حتى فعلت بنا وبنفسهـا ما فعلت، كما لا أدرى هـل حدث مـا حـدث نتيجة لتقصير منا فى التربيـة، أم لأن ابنتى ساذجـة إلى هذا الحد حتى يخدعها هذا النذل، أم هو عقاب لنا من السماء؟!.. ولكن أى ذنب جنيناه يا رب لنعاقب عليه هذا العقاب الشديد، وأنا لا أذكر أننى آذيت أحدا أو فعلت ما يغضب الله ؟!

إننى فى حالة ذهول، ولا أدرى ماذا أفعل ليقف بجوارى ونستدعى هذا الشـاب الملعـون ونجبره على طلاقهـا حيـث إنه تزوجهـا وهى فى السابعة عشرة من عمرها، ومـا أعلمه هو أن الفتاة لا تستطيع أن تزوج نفسها وهى دون الثامنة عشرة، وإذا حـدث ذلك وطلقها فماذا سيكون مصيرها بعد هذه الفضيحة وكيف ستتـزوج مرة أخرى بغير أن يفتضح أمـرها؟! أم ترى هل أنتظـر حتى يتخـرج هذا «الجبـان» وأضغط على

زوجى لكى يزوجها له وإن كنت أشك كثيرا فى موافقته على ذلك، وإذا فعلت هذا فكيف أتحمل هذه السنوات التالية حتى يتخرجا فى الجامعة ويتزوجا؟! وكيف أستطيع أن أتقبل هذا الإنسان وأتعامل معه وأنا أمقته مقتا شديدا وأعرف أنه سبب تعاسة هذه الأسرة بأكملها ؟!.. وكيف أتعامل أيضا مع ابنتى وأنا أشك الآن فى كل تصرفاتها ؟! أرجو أن ترشدنى إلى الحل، مع العلم بأن هذا الشاب لا يعلم حتى الآن أننى أعرف بزواجه من ابنتى .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من أشد أحزان الحياة إيلاما للنفس، أن يصدمنا الأحباء فيهم فنصحو ذات يوم من اطمئناننا الغافل إلى ثقتنا فيهم، على طعنة دامية من جانبهم، ونتوقف ذاهلين نتساءل : فيم أخطأنا معهم.. وكيف قست قلوبهم علينا إلى هذا الحد.. ولماذا باعونا بهذا الثمن الرخيص ونحن الذين أفنينا العمر فى محبتهم ورعايتهم وكانوا منا دائما ذَوْب القلب وأمل النفس الحزينة ؟!

إنها لحظة مريرة يا سيدتى، لا يدرك بعض الأبناء للأسف عمق قسوتها على القلب الطعين.. ولا يستشعرون أبدا غصتها فى نفوس الآباء والأمهات، ولن يستشعروها إلا حين يكرر أبناؤهم معهم هذه الطعنة الدامية فى قادم الأيام، فتمتزج عندها حسرتهم من أبنائهم..

بحسرتهم على آبائهم وأمهاتهم الذين أدموهم من قبل بنفس الخنجر المسموم، والحياة ديون يسددها الإنسان كاملة ولا مهرب له من فواتير السداد .

لكن ماذا نملك لأبنائنا إذا هم طعنونا وألقوا بأنفسهم فى اليم، ثم ولولوا صارخين طالبين منا النجدة ؟.. هل نستطيع حقا أن ننكص عن مد أيدينا إليهم بطوق النجاة، ولو تجرعنا نحن غصص الألم كارهين ؟!

إننا لا نملك يا سيدتى، ولا نستطيع أن ندعهم لأقدارهم تتلاعب بهم رياح الحياة كريشة تتطاير فى الهواء، ولا مفر أمامنا من أداء مسئولياتنا تجاههم حتى النهاية، ثم فليكن بعد ذلك من أمرهم ما يكون .

وفى قصتك هذه فلا مفر من التسليم بالأمر الواقع الذى أراد هذان الفتَيان أن يضعاكم أمامه. وفى بعض مواقف الحياة المؤلمة يكون التسليم بالهزيمة والقبول بها شجاعة أدبية ويكون التعامل مع معطياتها، هو التصرف الأمثل والأفضل من المقاومة اليائسة التى لا تثمر فى النهاية إلا تكريس الأمر الواقع مع مضاعفة الجراح والخسائر النفسية، واتساع دائرة الذيوع والعلانية لما ينبغى علينا أن نستتر به عن الآخرين .

لهذا فلست أرى لك مصارحة عم ابنتك بالأمر واستدعاء هذا

الشاب لإجباره على طلاق ابنتك، إذ لن تسفر المحاولة غالبا إلا عن الفشل وتشبث الفتى بموقفه الخاطىء من البداية ولجوئه إلى أسرته وربما إلى السلطات المختصة أيضا لمنعكم من محاولة إجباره على ما لا يريد خاصة أن ابنتك لا تريد هذا الطلاق ولا تطلبه، وقد تخذلكم مرة أخرى أمام هؤلاء الغرباء، فيتعمق الجرح ويزداد الألم.

وإنما أرى لك ألا تصارحى بهذا الأمر سوى زوجك.. ليس فقط لأنه شريك حياتك وصاحب الحق الأكبر فى أن يعلم بما كان من أمر ابنته، وإنما أيضا لأنه الولى الشرعى الذى ما كان لها أن تتزوج بغير إذنه، وهى الفتاة غير الرشيدة، ولا أعرف كيف سمح ضمير هذا المأذون الذى عقد قرانها له بأن يعقد لها على فتاها بغير وليها، وهى فى السابعة عشرة من عمرها.

نعم يا سيدتى لا مفر من أن يشارك زوجك ما تعانين من ألم وحيرة وشعور موجع بالهوان على ابنته إلى الحد الذى تضعه معه أمام هذا الموقف العصيب، ثم لا مفر بعد ذلك من التعامل مع الموقف بواقعية تفرضها الظروف المحيطة بالقصة كلها، فتسلمان معا بما حدث، وتستكملان شكليات الخطبة أمام الجميع كأنها لم تخرج ابنتك على طوعكما ولم تتزوج فتاها فى السر، ابتداء من قراءة الفاتحة فى حضور الأهل.. إلى الخطبة العلنية.. إلى تقديم الشبكة والاتفاق على موعد

«عقد القران» بعد تخرج الخطيبين فى الجامعة، وعلى أن تتعامل ابنتك مع فتاها خلال هذه الفترة كما تتعامل الخطيبة مع خطيبها فى حدود ما تسمح به علاقة الخطبة .

ولسوف تكون السنوات الباقية على تخرجهما معا هى الاختبار الحقيقى لإمكانية استمرار هذا الارتباط واستكماله بالزواج والمساكنة، أو تعثره فى الطريق وانكشاف التجربة عما كشفت عنه من قبل معظم تجارب زواج المراهقين من فشل مرجح خلال سنوات وبعد نضج الشخصية وتغير المشاعر واختلاف المزاج النفسى من مرحلة المراهقة إلى بداية مرحلة النضج.. فإذا فشلت التجربة وانتهت نهايتها المحتملة، فليتم الطلاق سرا، ولتواجه ابنتك المجتمع كفتاة سبقت لها تجربة الارتباط دون الزفاف .

وإذا تمسك كل منهما بالآخر ، ورغبا فى استكمال المشوار، فلقد سلمتما من البداية بما لم يكن منه بد ، وهو التنازل عن اعتباراتكما العائلية فى الشخص الملائم لها لأنها قد اختارت بمعايرها هى، ولا مهرب لها من أن تتحمل تبعة اختيارها .

أما كيف تتعاملين مع هذا الفتى خلال سنوات الخطبة وأنت تمقتيه مقتا شديدا وتعتبرينه المسئول الأول عن هدم سعادة أسرة بأكملها، فما أكثر ما تضطرنا ظروف الحياة إلى أن نتعامل مع من لا نطيق، رعاية

لاعتبارات الأعزاء، والاعتبارات العائلية والاجتماعية الأخرى، والمهم هو ألا يحملنا كرهنا لأحد على أن نبخسه حقا من حقوقه، وألا يحملنا حبنا لأحد على أن نأثم فيه فنعطيه ما ليس من العدل والحق أن يناله منا، كما ينصحنا بذلك إمام المتقين على بن أبى طالب رضى الله عنه. إذ لو انسقنا وراء مشاعر الحب والكراهية وحدهما فى تعاملنا مع الآخرين لحدنا عن العدل والحق، ولعجزنا عن أن نتعامل مع الكثيرين .

وأما ابنتك فلسوف تعاملينها بما علمتك التجربة أن تعامليها بها، فلا تركنى إلى ثقتك الكاملة السابقة فيها بعد أن كشفت لك التجربة أنها لم تكن أهلا لها ، ولا تستسلمى تماما لشكوكك وهواجسك تجاهها، فتتوتر علاقتكما أكثر وتنقطع الخيوط بينكما وإنما قرِّبيها منك أكثر وامنحيها بعض ثقتك وليس كلها ولا تعفيها بعد ذلك من رقابتك وإشرافك ومتابعتك لكل خطواتها، لكيلا تتحول فترة «الخطبة» إلى زواج فعلى قبل الموعد الملائم، وتتضاعف المشاكل .

والمثل الفنلندى القديم يقول : إن الإنسان لا يخدع إلا من يثق به، وهذا صحيح لأن من يتشكك فينا يصعب علينا عادة أن نخدعه. أما من يثق فينا فهو للأسف من ننجح غالبا فى خداعه اعتمادا على هذه الثقة، وليس من حق ابنتك على أية حال أن تضيق بعدم ثقتك فيها، لأن من يخون ثقة الأهل به على هذا النحو الفادح لا يحق له أن يلومهم إذا تشككوا فيه، ولا أن يشكو من عدم ثقتهم به .. بعد أن وضع نفسه موضع الريبة والتهم .

وقـد تسألين بعـد ذلك، ومـاذا يكون الحال حين تجدون أنفسكم مضطرين إلى عقد قران ابنتكم على فتاها بعد سنوات لاستكمال الشكل العـائلى والاجتماعى للزواج، وفى هـذه الحالة فلسـوف تجدون أنفسكم أمـام خيـارين.. الأول : هـو أن تستغنوا عن هذه الشكليـة اعتمادا على العقـد الموجـود ، مع تدارك المظهـر العـائلى بأى طريقـة ترونها مناسبـة لذلك بالاتفـاق مع أسرة الشـاب. والثـانى : هو أن تتمسكوا باستكمال الشكل أمام الآخرين وعقد قران جـديد ، ولقد استفتيت أحد شيوخنا الأجـلاء فى حـالة مماثلة منذ سنوات فأفتـى بجـواز ذلك للضرورة الاجتماعية القصـوى واعتبار العقد الجديد بمثـابة تأكيد للعقـد السابق مـادام بين نفس الطرفين مع اعتبـار الزوجيـة قـائمـة منذ تاريخ العقـد القديم .

ونأتى لتساؤلاتك المريرة فى النهـاية يا سيدتى عن «التربيـة الحديثة» ونصيحتك للآباء والأمهـات بألا يـدعـوا الأبناء يغيبـون عن أنظارهم مهما أخذوا بمظاهر أو دعاوى هذه «التربيـة الحديثة». وأقول لك إنه فى أعماق الجحيم يتعلم الإنسـان الحكمة، ولكن غـالبا بعـد فوات الأوان. لكن المؤلم حقا هو أننى ألحظ فى تعاملى مع هموم الآخرين اتجاها مزعجا جديدا لدى قلة من الأبناء، لحل مشاكلهم مع آبائهم وأمهاتهم، بتفضيل وضعهم أمـام الأمـر الواقع الـذى يرفضـونه، ثم تحمـل ثورتهم

والتفاوض معهم بعـد ذلك على أساس هذا الأمر الواقع الذى فـرضوه عليهـم عنوة، وبـالألم المضنـى المزلـزل ، وهو اتجاه شريـر وغير أمين فى نفس الـوقت، ليس فقط لأنـه يكشف عن جحـــود للآبـاء وتنكر لهم واستسهـال لإيلامهم، وإنما أيضـا لأنه يكشـف وهو الأخطر عن بعـد فادح عن حـدود الله فى تعامل الأبناء مع الآباء والأمهـات، وعن عجز أفدح لدى هؤلاء الأبناء عن مواجهة مشاكلهم بشجاعة وأمانة كما يليق بالشرفاء والأمناء مع أنفسهم ومع الحياة .

ومن عجب أن بعض هؤلاء الأبناء قـد يبدأون بسلاح العـاجز هذا قبل أن يخوضوا المعركـة.. ويبدأوا من البداية الصحيحة وهـى مواجهة الأهل باختيارهم «والجهاد» معهـم لنيل رضاهم عنها مهما طال المدى، وتفسير بعض هؤلاء العجزة لما فعلوا لا يقبلـه الدين أو العقل، ويتركز دائما فى أنهم كـانوا «واثقين» من رفض الأهـل لاختيـاراتهم من الوهلة الأولى، ففضلوا وضعهم أمـام الأمر الواقع وفـرضه عليهم !.. أمـا من أين أتتهم هذه الثقـة المتناهيـة؟! فمن استشعـارهم للمـوقف الطبقى للأهل من شريـك الحيـاة المرغـوب، أو استشعـارهم لحدة الفـوارق الاجتماعيـة أو للتحفظات الأخـلاقية الشـديدة على هذه الاختيـارات، وكلها أعذار أقبح من الذنـب وأشد نكرا، ولا تبرر أبدا أن تخذل فتاة أو فتى أبويهما ويطعناهما فى سـويداء القلب مثل هذه الطعنة الداميـة. أمـا

«التربية الحديثة» التى أدركت أنت يا سيدتى بالثمن الباهظ مسئوليتها عن محنتكم، فالاتجاهات التربوية الأكثر حداثة منها فى الغرب الذى بالغ البعض منا فى نقل مظاهر هذه التربية عنه بلا اعتدال قد بدأت تنادى الآن بالعودة للقيم المحافظة فى التربية، والاعتدال فى الحرية الممنوحة للصغار فى فترة المراهقة، وتتحدث عن أهمية غرس القيم الدينية والالتزام الخلقى فى نفوسهم ليحميهم من مهالك الإدمان والجريمة والإيدز والإباحية، وتؤكِّد أهمية دور الأسرة والرقابة العائلية فى تقويم سلوك النشء وحمايتهم من الأخطار .

وفى الالتزام بحدود الله ونواهيه ما فوق الكفاية دائما يا سيدتى لتجنب هذه المهالك، وفى الاعتدال والتوسط فى كل شىء بلا إفراط ولا تفريط ما يهدينا إلى سواء السبيل .. والسلام ..

* * *

الضيفة اللذيذة

أنا رجل فى الرابعة والأربعين من عمرى متزوج وأحمل مؤهلا صناعيا وأكبر إخوتى الذكور، وقد سافرت فى بداية حياتى العملية وعملت فى الخارج حتى تخرج أخى الذى يلينى مهندسا وعمل، ثم رجعت وعملت بالأعمال الحرة لفترة قبل أن أستقر فى وظيفة صغيرة بإحدى الشركات. أما أخى الأصغر فهو فى الثانية والعشرين ومصاب بحالة شيزوفرانيا كما يقول الأطباء، لكنه يعيش حياة طبيعية ولا يؤرقنى بشأنه إلا رفضه للعمل مع أنه طبيعى إلى أبعد الحدود. ولى شقيقتان توأم تكبراننى بخمس سنوات وقد تزوجت إحداهما بالإسكندرية وأنجبت وكبر أبناؤها

والتحقوا بالجامعات، ومات زوجها - يرحمه الله - وتعيش بمعاشها الضئيل وتساعد نفسها بالخياطة، وأما الأخرى فقد تزوجت فى أسوان ولها ثلاثة أبناء متفوقون، وزوجها رجل طيِّب وفاضل. أما والدتى فسيدة أميّة طيبة علمتنا كل طيب وجميل فى الحياة، وقد بترت ساقاها

من أثر غرغرينة السكر، لكنها سيدة مؤمنة بربِّها وراضية بقضائه وقدره وحـامدة وشـاكرة فضل ربها.. ونحن كإخـوة نحب بعضنا البعض إلى أقصى حد.. بل ونذوب حبّا، وحين نلتقى فى إحدى المناسبات العائلية تعم البهجة أرواحنا وتتعـالى ضحكاتنا من القلب ونلعن الظروف التى فـرقتنا فى مشـارق الأرض ومغـاربها ولم تعـد تجمع بيننا إلا كل حين وحين. وأنا أشعـر بالتقصير تجاه جميع أسرتـى كأخ أكبر نتيجـة لضعف إمكاناتى الماديـة، فأختى الأرملة حين تجىء من الإسكندرية أستقبلهـا بالأحضان والدمـوع السخينة وأقدر لها كفاحهـا فى الحياة بدون رجل، ثم تلسعنى المرارة لأنى لم أزرها فى الإسكندرية منذ ست سنوات لنفس السبب، وشقيقتى الأخـرى المقيمـة بأسـوان لم أرها منذ سنوات وحين تحضر للقاهرة ذات صيف أتذكر تقصيرى معهـا وأحترق ندما وعجزا، وأمى حين أزورها لا أحمل لها إلا الخبز الطازج.. والسبب مفهوم ومؤلم ولا يحتـاج إلى تفصيل ، وشقيقى المهنـدس يعمل فى الخارج منذ عـامين فقط وحين يرسل لى تحويلا بمبلغ ٣٢٥ جنيها وأربعين قرشا فإنى أدفع الرسوم المصرفية عليه من جيبى وأحمل المبلـغ كاملا لأمى فتعطى بعضه لشقيقتى الأرملة وتـرسل البعض الآخـر لشقيقتى المقيمـة بأسـوان وتعيش بما يتبقى معها.. وتسألنى : هل معك نقـود؟ فأجيبها بالإيجاب

وأرفض قبول شىء منهـا، مع أنها علمتنا أن نقتسم ما معنا فيما بيننا بلا غضـاضة، وشقيقى المهنـدس رغم عمله بالخارج فإن دخله ليس كبيرا وهو متـزوج ولديه طفلة جميلة وعليـه التزامـات ثقيلة تجاه الشقـة التى اشتراها وأسرته الصغيرة... إلخ، وكل إنسان عنده ما يكفيه من الأعباء ويزيد .

ولست أكتب لك رسالتى هذه لكـى أشكو من قلة مواردى ولا من شعـورى بالتقصير تجاه أمى وإخـواتى، لكنى أعطيك فكرة عـامـة عن حيـاتى وأسرتى لأقـول لك بعـد ذلك إننى قـد تزوجت منذ سنوات، وقد شـاءت لنا الأقدار أن تمرض زوجتى فى بداية الـزواج، وأن تواجه بعض المتاعب الصحية التى أدت إلى فقدها لقدرتها على الإنجاب. وقد تقبلت ذلك برضا وثبات ، وحرصت على معـاملتها معاملة طيبة لكيلا أجـرح مشـاعرهـا، وإن كانت ضغـوط الحيـاة تجعلنى أحيـانا فى غـاية العصبية .

والمهم أن حياتنا تمضى بسـلام وأنا حاليا أعمل بشركة أمن خـاصة كفرد أمن بمـرتب ١٥٠ جنيها فى الشهـر وزوجتى تعمل بمرتب ١٢٠ جنيها، وأمارس عملى فى نوبات تستمر كل نوبة منهـا ١٢ ساعة كاملة، مما لا يدع لى أى مجال للبحث عـن عمل إضـافى أو ممارسـة هوايتى فى الرسم، أو الاستفادة بخبرتى السابقـة فى طباعة «التى شيرت» بما يحقق

لى بعض الدخل ويخفف مـن جفـاف حيـاتى.. وليست هذه أيضـا هى المشكلة.. فالحياة تمضى فى طريقها مهما كانت الصعاب وظروفنا أفضل من ظروف غيرنا والحمد لله .

ومـا أريد أن أقوله هو أننى نتيجـة لهذه الظروف المادية غير المريحة.. وما أشعـر به من عجز عن مسـاعدة شقيقتىَّ وأمى بما كـان ينبغى للأخ الأكبر أن يفعله قـد وجدت نفسى منذ فترة أشعـر بالكآبة والإحبـاط، وتزداد عصبيتى المكتـومـــة ومعـاناتى وضـاعـف من ظروف زوجتى الصحيـــة التى اضطرتها لاستئصـال أحـــد ثدييهـــا. وفى وسط الكآبة والاختناق عـرضت علىّ زوجتى أن نستضيف طفلة صغيرة يتيمـة من أحـد مـلاجىء الأيتـام لنفرغ فيهـا نحن الاثنين عـواطفنا المحـرومـة، ووعدتها بالتفكير جـديا فى هذا الأمر، وملت بقلبى ومشاعرى مبـدئيا إلى تحقيقه، لكنى ترددت أمام مسئولية رعاية طفلة صغيرة ونحن نعيش حياتنا بصعوبة.. وتساءلت: ترى هـل أستطيع الوفاء بالتزاماتها وتوفير الحياة الكريمة لها والرعاية الصحية الأفضل لها أم سأعجز عن ذلك ؟

واستشرت أمى الطيبة فى ذلـك فشجعتنى على الإقدام عليه وقـالت لى إن الله سبحـانه وتعـالى يرزق النمـل فى جحـوره.. فكيف لا يرزقك برزق طفلة يتيمة محرومة تنقـذها من العناء ؟!.. واستراح قلبى لمشورة أمى ولقبـول أهلى للفكرة واستخرت الله وتقـدمت أنا وزوجتى للملجأ

الأيتـام بشارع...، وقمنا بإجـراءات الحصول على طفلة صغيرة يتيمـة، عمـرها سنتان، وانضمـت بالفعل إلى بيتنا منذ فترة فإذا بها تملأ مسكننا الصامت صراخـا ومرحـا وشقاوة، وتستقبلنى عند عـودتى منهكا من عملى بالصيـاح : بابا جـه.. وتمرح فى الشقـة وتلاعب «البطة» فى الحمام وتستسلم لعضـاتها غير المؤلمة.. وكل من حـولنـا من الجيران والأهل يحبونها ويعطفـون عليها. ولقـد فوجئت زوجتى فى اليـوم التالى لتسلم هذه الطفلة وهى تقـوم بغسل شعرها وحمامهـا بوجود قـراع كبير تحت شعـرها، وبوجـود أثر حـرق فى يدها فعـالجناهـا من ذلك على الفـور وشفيت منه والحمد لله وأصبحت كالقمر المضىء فى سمائه..

ولو كانت إمكانياتى المادية تسمـح لكنت أغرقتها بالملابس الجديدة الفاخـرة والهدايا واللعب وجعلت منها ملكة متوجة على عـرش حياتنا فهى طفلة ذكية جدا وجميلة، وقـد صعقت زوجتى أيضا ذات يوم حين كـانت فى المطبخ والطفلة تقف إلى جـوارها ثم أمسكت زوجتى بعلبـة الكبريت لتشعل البوتاجـاز، فإذا بالطفلة تجرى بعيدا عنهـا وهى تقول لها فى رعب قاتل «كبريت لا يامامـا»، وعبثا حاولت زوجتى أن تهدىء من روعها وتطمئنها إلى أنها لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تلسعها بلهب عـود الكبريت كما تتـوهم.. وكما يبـدو أنه قـد حـدث معهـا من قبل.. واحتاج الأمر من زوجتى إلى أيام عديدة إلى أن أقنعتها بألا تخاف من الكبريت.. وألا تفزع حين تراه فى يدها..

وفهمنا سر الحرق الذى وجـدناه فى يدها حين استلمناها سـامح الله من تسبب لها فيـه.. وأنا أقـرأ يا سيـدى فى بابك رسـائل كثيرة لأزواج وزوجـات محرومين من الإنجاب ويشكون من تعـاستهم وحرمـانهم.. وإنى أدعـو هؤلاء المحرومين والمعـذبين لأن يجربوا الحل الذى اخترناه نحن لمشكلتنا، وهو استضـافـة ضيفة لـذيذة يتيمة فى بيتهم ورعـايتهـا وتربيتهـا التربية السليمـة وتوفير ظروف الحيـاة الإنسـانية الكريمـة لها وهى فى أحضانهم.

فهم حين يفعلون ذلك إنما ينقذون روحا بـريئة من المعاناة والحرمان والضيـاع.. وينقذون أنفسهم مـن التعاسـة والوحـدة والفراغ ويلبـون احتياجاتهم الأبوية والأموميـة ويشعرون بمعنى جديد لحياتهم يدفعهم للتمسك بها والحرص عليها، فلقد تغيرت حيـاتى كثيرا بعد حلول هذه «الضيفة اللذيذة» بيننا، مع أنى مازلت أمـارس عملا بعيدا عن دراستى وهوايتى، ومع أن دخلى منه مــازال محدودا وسـاعـات عملى مـازالت طويلة، لكنى رغم تلك الظروف أفضل كثيرا الآن مـن الناحية النفسيـة والمعنوية عما قبل، وكـذلك زوجتى التى أصبح لا شغل لها ولا شـاغل سوى الطفلة ومـا قالت وما فعلت خلال غيـابى فى العمل إلى آخر هذه الاهتمامات الجميلة.

فـادع قـراءك التعساء لأن يكرروا تجربتنـا وسوف يجدون فيهـا مـا

وجدناه نحن من راحـــة قلب وضمير وسعـادة، بل وادع أيضـا قراءك القـادرين على رعـاية طفل يتيـم إلى ألا يكتفـوا بتقـديم الهبـات الماليـة لملاجىء الأيتـام وأن يضمـــوا إلى أسرهـم - إذا استطاعـــوا - أحـد هـؤلاء المحـرومين الصغار ويكفلوهم فى حضـانتهم ورعايتهم، فهـذه هـى أفضل وسيلة لكفالة اليتيم وأكثرها أثرا فى حياته.. وكافـل اليتيـم مع رســول الله ﷺ فى الجنة.. كما يقــول الحـديث الشريف، ولا شــك أنهـم إذا فعلـوا ذلك فسـوف ينقــذون أرواحا كثيرة معـذبة، وسـوف يفوزون بجوائز السماء فى الدنيا والآخرة. والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا أعـرف لماذا ذكرتنى رسـالتك الجميلة هذه بتلك العبـارة الغريبـة التى قـالها فـرجيل العظيم أعظم شعـراء الرومـان فى أشعـاره الرعـوية الشهيرة، وهى : ما أسعد المزارعين !

لقـد قيل فى تفسيرها إنه مـا أسعـد البشر لو جهلوا مـا فى الحيـاة من صور الشر والخديعة والعداء.. ولو تعاونوا فيما بينهم على غرس البذور وجنى الثمار كما يفعل المزارعـون، بدلا من أن يبددوا العمـر فى الصراع والتناحر والإيذاء ..

والمؤكد أن رسـالتك هذه تقـدم للآخرين صـورة صادقـة للسعادة

الخفية أو للسـلام النفسى الذى يستشعره الإنسـان فى الرضا بـأقداره.. وفى العطاء للآخريـن من نفسه ومشاعـره وقدراته مهما كـانت ظروفه. فـرسالتك تقـول لنا بأبلغ الكلمات إن الإنسـان قادر دائما على أن يقـدم عطاءه السخى للحيـاة وأن يسهم فى تخفيف بعض عذاباتها مهما كـانت ظروفـه غير مواتية، وتقـول لنا أيضا مـا قاله المعلم بانجلـوس لتلميذه كـانديد فى رواية فـولتير الشهيرة مـن أن الحب هو متعـة المخلوقـات الآدمية الحقيقية وأنه سر بقـاء الكون.. ولولاه لفنيت البشرية منذ قديم الزمان.

وهذا أيضا صحيح، فـالحب الإنسانى النبيل هو الذى سيحمى هذه الطفلة اليتيمـة المحـرومـة من الضيـاع ويقـدمهـا للحيـاة شـابة جميلة عطوفـا.. تضيـف إلى الحيـاة بدلا من أن تخصم منهـا، والحب العـائلى الصادق هو الذى يشدّ بنيـان أسرتك الكبيرة رغم البعد وافتراقكم بين مشارق الأرض ومغـاربها، ويشعرك بهذا الإحسـاس المؤلم بالتقصير فى أداء دورك كأخ لإخـوتـك ويدفعك أيضـا لـلإشفـاق على شقيقك المهندس من مسئوليـاته والتـزامـاته والتماس الأعـذار له فى قلة الدخل وكثرة الأعبـاء.. والحب الإنسانى أيضـا هو الذى حفظ عليك أسرتك الصغيرة وهداك لأن تضم إليهـا هذه الضيفـة الصغيرة، فتعيد البهجـة والرواء إلى حياتها، وتعيد إليك إقبـالك على الحياة ورغبتك فى استكمال الرحلة وأداء الرسالة.

وما أريد أن أقوله لك يا صديقى هو أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأن العطاء المادى ليس وحده هو مسئولية الأخ الأكبر تجاه إخوته الضعفاء الذين يحتاجون إلى عونه ومساعدته، وإنما هناك دائما ما هو أهم منه وأبلغ أثرا فى حياة الأعزاء وهو العطاء النفسى والعاطفى والإحساس النبيل بالمسئولية الأدبية والعائلية عنهم، فإذا كانت ظروفك لا تسمح لك الآن بأن تضيف إلى عطائك النفسى والعائلى لهم ما تتوق إليه من عطاء مادى مماثل فلا تسرف على نفسك فى الإحساس بالعجز والتقصير.. فهم أدرى منك بظروفك وأكثر التماسا لك للأعذار من نفسك، والأهل لا ينتظرون عادة العطاء المادى إلا ممن يدركون تماما قدرته عليه ويترفقون غالبا بغير القادر، وقد يأبون قبول مساعدته حتى لو أراد أن يقدمها إليهم.

ومن كانت تجمعهم مثل هذه العاطفة الأخوية الصادقة كإخوتك لابد أن يدركوا جيدا أن الأخ الأكبر لو كان قادرا على العطاء المادى لما تردد لحظة فى تقديمه، فلا تقس على نفسك.. ولا تفقد الأمل، فالحياة مازالت ممتدة أمامك.. ولسوف تتغير ظروفك إلى الأحسن فى المستقبل بإذن الله، وتستطيع تعويض مافاتك من الإسهام المادى فى تخفيف أعباء الحياة عن شقيقتيك ووالدتك، وربما تسمح الظروف بمساعدة قراء هذا الباب لك على ممارسة عمل إضافى جديد تستخدم فيه قدراتك

ومـواهبك الأصيلة بما يزيد من دخلك ويعينك على تحمل مسئوليـاتك تجاه إخـوتك وتجاه الضيفـة العـزيـزة التى ضممتهـا لأسرتك، كما قـد أستطيع معـاونتك أيضا فى عـلاج شقيقك الأصغر لكى يسترد قـدرته على العمل ويخفف عنك بعض العبء . فاتصل بى لترتيب هذا العلاج فى أقرب وقت بإذن الله .

أما نداؤك للأزواج والزوجات المحـرومين من الإنجاب بأن يجربوا حل مشكلتهم باستضـافـة طفلـة أو طفل يتيم محروم كما فعلت أنت .. فهـو نداء جـدير بالتأمل حقـا وأضعـه تحت أنظـار من يهمهم الأمـر، وأشكرك على اهتمامك بإطلاع الآخرين على تجربتك المفيدة فى مواجهة مشكلة الحرمـان من الإنجاب، وأرجـو أن يستفيد بها الآخـرون.. وأن يتأملوا أيضـا نداءك الإنسانى للقـادرين بأن يضمُّـوا إلى أسرهم بعض هؤلاء المحرومين لكى ينقذوهم من الضياع ومن الإهمال الصحى ومن التربية الخاطئة باللسع بأعواد الكبريت، فهو أيضا نداء يستحق الاهتمام ومـا هو أكثـر منه.. فـلا سـامـح الله أصحـاب الأكبـاد الغليظة الذين يرتكبون مثل هذه الجريمـة البشعة.. ولا غفـر لهم ربهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وشكرا لك .

* * *

القطة المدلَّلة

أنا سيدة فى أوائل الخمسينيات من عمرى، تزوجت منذ ٣٢ عاما ولى عدد من الأبناء، كنت فى شبابى آية فى الجمال يتعجب لها الآخرون، حتى كانوا إذا أرادوا أن يصفوا فتاة بالجمال قالوا عنها إنها جميلة مثل فلانة، وبسبب جمالى هذا دللنى الجميع وبدأ الخطاب يتهافتون علىّ منذ صباى، وتمت خطبتى وأنا فى بداية مرحلة الأنوثة إلى ابن خالتى، لكن أمى سامحها الله وقفت فى طريق سعادتى معه لأنها كانت لا تحب أمه، وانتهى الأمر بفسخ الخطبة ورحل ابن خالتى عن البلاد. أما أنا فلقد تقدم لى زوجى الحالى ولم أشعر نحوه بأية عاطفة، ومع ذلك فقد مضيت فى مشروع الارتباط وأنا أمنِّى نفسى بأن أحبه بعد الزواج حين تصبح لنا حياة مستقلة .

وتزوجنا فلم تتغير مشاعرى نحوه بعد الزواج واستمرت مشاعرى حيادية تجاهه لا تنبض بالحب، ولا تحمل له الكراهية، وانشغلت بعد ذلك بالإنجاب وتربية الأبناء ومشاكلهم وأمراضهم ومدارسهم

فنسيت نفسى.. ومضت السنوات عـامـا بعد عـام، وكبر الأبناء واحدا بعد الآخر فوجـدت نفسى بعد الرحلة الطويلة أتوقف لأراجع حياتى، وأنظر إلى هذا الجبل الصامت الجالس إلى جوارى وهو زوجى وأتساءل من هو.. ومن أنا، ومــاذا جنيت من رحلة حيـاتى هـذه معـه ؟، فلقـد دفنت شبابى وأيامى كلها مع الزوج الذى لم يشعرنى مرة واحدة بلمسة رقيقة، أو يسمعنى كلمـة حب واحدة. وتذكرت ابن خـالتى الذى كان يتمنى لى الرضـا لكى أرضى، وندمت أشـد الندم على أننى لم أدافع عن حبِّى دفـاعا مستميتـا وقتها، مع أننى فى النهـاية لم أكن أستطيع أن أفعل الكثير بهذا الشأن، ونظرت إلى أولادى فوجـدتنى أقسمهم إلى فريقين.. فريق مثلى يحبنى وأحبه، وفريق مثل زوجى يدافع عنه ويحبه !

وكنت قد فقدت منذ سنوات احترامى لزوجى ولم أجد مانعا من ألا أحترمـه أيضـا أمـام أولاده، وأن أشعـرهـم دائما بأننى غير سعيـدة مع أبيهم، فكان أفـراد الفريق الأول الذى أحبـه يسمعـوننى ويشاركـوننى مشـاعرى ويصبِّرونى على مـا أنا فيه. أمـا أفـراد الفريق الثـانى الذى لا أحبـه فكانـوا يقـولون لى دائما : حـرام عليك، ولماذا تـزوجتيـه إذن من البداية ولم يغصبك أحد عليه ؟... إلخ .

ولا تتعجب يا سيـدى حين أقــول لك إننى لا أحب بعض أولادى فهـذا هو الحال فعلا.. وأنا فعـلا لا أحبهم ولا يهمنى قربهم أو بعـدهم عنى ، وأشعر أنهم يبادلوننى نفس الشعور وأكثر !

وأعترف لك أننى بتـأثير حبِّى لبعض أبنائـى دون البعض الآخــر ، فإننى أفضل بعضهم على بعض فعلا بطريقة ملحوظة، وهؤلاء أولادى الذين أحبهم ويدللوننى ويمـدحـوننى دائما. ومع أنى أشعـر فى أحيـان كثيرة أنهم منافقون، إلا أن هذا لا يغير من حبى وتفضيلى لهم شيئا، لأن هذا النفاق نفســه يسعدنى وأنا بحـاجة إليه، فى حين أشعـر تجاه الفريق الذى لا أحبه بالجفاء والبعد وبأنهم لا يغفرون لى ما أفعله بأبيهم .

أما زوجى فهـو يشغل منصبا محترما ولا يهمـه سوى أن يعمل حتى وهو فى أسـوأ حـالاته الصحيـة، كأنما لا يطيق الجلوس فى البيت معى ، وهو بصفة عـامة يأكل وينام فقط وأشعر أنه بلا مشاعـر ولا أحاسيس، والجميع يقـولون عنه إنه طيب القلـب وحنون، لكنه ليس الزوج الذى كنت أتمناه ولا أحب الجلوس معه طويلا . كما أنه عديم الشخصية معى وأنا الذى أسيِّره كيفما أشـاء ولا ينفـذ إلا أوامـرى، ومع ذلك فإننى لا أحبه وهو لا يعجبنى أبدا ولا أرغب فى المعيشة معه.. ولا أتمنى فى نفس الوقت أن يطلقنى إذ أيـن أذهب .. ومن يتحملنى بعــد هذه السنوات الطويلة ؟!

وبسبب هذه الظروف المتـداخلة كلهـا أشعـر بعـدم حبـه بل وبكره شــديد لبعض أولادى ، وأشعــر من ناحيتهم بنفس هذا الإحســاس تجاهى، كما أشعـر أن زوجى غير سعيـد معـى ، لكنه أفضل حـالا منى

لأنه راض بما قسمه الله له وأنا لست راضية ولا سعيدة ، وحياتى كئيبة .. ودائما مبتلاة بمصائب عديدة، مع أننى أصوم وأصلى ولا أخون زوجى وأحافظ على ماله .

لقد سمعت أحد أبنائى من «الفريق الآخر » يقول لشقيقه عنى إننى مريضة نفسيا بمرض عدم الرضا ، وأن الله لن يغفر لى أبدا ما أفعله مع أبيهما وسوف يعاقبنى فى السماء بسبب تفرقتى فى المعاملة بين أولادى .

فهل هذا صحيح يا سيدى .. وهل أنا حقا مريضة نفسيا وفى حاجة لعلاج لدى الطبيب النفسى .. وهل سيعاقبنى الله حقا على حبى بعض أولادى أكثر من البعض الآخر ، وكراهيتى أو عدم حبى لبعضهم ؟ مع العلم بأن سيدنا يعقوب كان يفرق فى المعاملة بين أبنائه ؟!

إننى أعيش فى جو عائلى كئيب ملىء بالمشاكل ، وكل ما أريده هو أن يلهمنى الله الصبر على ما أصابنى ويعوضنى عنه خيرا، وأن أجد حلا أحب معه أو به كل أولادى بنفس الدرجة، وأتقبل مجرد تقبل زوجى بعد كل هذه السنوات الطويلة معه وأشعر بأننى المرأة وهو الرجل . ألا من سبيل إلى ذلك ، وهل سيعاقب الله أولادى من الفريق الذى لا أحبه عقاب عقوق الوالدين بسبب مشاعرهم نحوى لأننى لم أفعل بهم ما يوصلهم إلى درجة «الكفر» وعقوق الأم ؟...ولكن هذه هى مشاعرى ولا حيلة لى فيها !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

هناك قلة من النســاء يراودهن دائما إحســاس عجيب بأنهن «ثروة نفيسـة من الجمال» لم يكن ليستحقهـا أزواجهن.. ولم يكن لها أن توضع بين أيديهم. فيـدفعهـن هذا الإحسـاس غير السـوى إلى عـدم الاقتناع بأزواجهن مهما قـدمـوا لهن من عطاء، ومهما حـاول هؤلاء الأزواج استمالتهن ونيل رضاهن خلال رحلة العمر معهم .

والواضح يا سيـدتى أن إحساسـك القديم بأنك «آية فى الجمال» قـد رافقك معظم سنوات الـرحلة مع زوجك، ووقف حـائـلا بينك وبينه وسـاهم فى ذلك أنك قد تزوجتيـه عن غير حب، وعاشرتيـه ٣٢ عامـا وأنجبت منه عـددا من الأبناء، وأنت لا تنطـوين له إلا على المشـاعـر الحيادية التى لا تنبض بالحب ولا تحمل الكراهية .

ومع تسليمى بأن المشـاعـر لا تصدر بشأنها قـرارات إرادية ، إلا أن النفس الراضيــة تستطيع دائما إن لم تنبعث فى أعماقهـا شرارة الحب لمن تشاركه رحلة الحيـاة، أن تحسن عشرته.. وتقدر له عطاءه ومزاياه، ذلك أن المرأة كالرجل فى هذا المبدأ الأخلاقى العادل الذى نبهنا إليه الرسول الكريم صلوات الله وسـلامه عليه، حين أوصى بقبـول من نرضى دينه وخلقه لأنه « إذا أحب زوجته أكرمهـا وإذا كرهها لم يظلمها». لكنك لم تتعاملى مع زوجك على ضوء هذا المبـدأ العادل ، ليس لأنك لم تحملى له

مشاعر الحب طوال ٣٢ عاما ، مع أن الوحوش نفسها إذا تجاوزت ثلاثين عاما لابد أن تتبادل بالضرورة نوعا من العطف والألفة بحكم الجيرة فى المكان على الأقل ، ولكن لأنك تظلمينه بإساءة عشرته وعدم احترامك له، وعدم التحفظ فى إشعار أبنائك منه بذلك، وبعدم رضاك عنه أو اقتناعك به، وبإنكارك عليه كل مزية يراها فيه الآخرون وتعمى عنها بصيرتك مع أنه بإجماعهم طيب القلب وحنون، ومع أنه باعترافك أيضا لا يعصى لك أمرا، وتسيِّرينه أنت كيفما تشاءين .

فأى ظلم أبشع من هذا الظلم ؟! بل وأى بطر أوضح من هذا البطر، خاصة أنك لا تحبينه ولا تحسنين عشرته.. ولا ترغبين فى نفس الوقت فى الانفصال عنه؟!

إن ما تنكرينه عليه هو أنه يحب عمله ويعمل دائما حتى ولو كان فى أسوأ حالاته الصحية، كأنما لا يطيق البقاء معك فى البيت، وأنه كما تقولين بلا مشاعر ولا أحاسيس ولم يقل لك كلمة حب واحدة ولم يشعرك بلمسة رقيقة !

ولهذا، فهو ليس الزوج الذى كنت تتمنينه ولا الزوج الذى تحبِّين الجلوس معه طويلا !

ولست أنكر أهمية المشاعر والأحاسيس الإنسانية واللفتات العاطفية فى العلاقة الزوجية مهما طال بها الزمن .. لكن كل ما تنكرينه

عليه لا يبرر لك أبدا ألا تحترميه أمـام أبنائه، أو أن تنغصى عليه حياته، حتى ليقسم لك أبنـاؤك من الفـريق المكـروه بأن الله لن يغفـر لك مـا تفعلينه بأبيهم، كما لا يبرر لك أن تجعلى منه موضوعـا أساسيا للشكوى إلى الأبناء من أبيهم .. بما يشرخهم نفسيا ويقسمهم إلى فـريقين أحدهما يتعـاطف معك والآخر ينكر عليك مـا تفعلين.. فالرجل فى النهـاية لا يسىء عشرتك أو معـاملتـك، ولا يقصر فى أداء واجبـاته الزوجيـة والتزاماته العائلية تجاهك وتجاه أبنائك، ولا يطعنك فى كرامتك بخيانته لك مع امـرأة أخرى ، ولا يصب عليك جـام غضبه كل يوم، أو ينهـال عليك ضربا وركـلا لإسـاءتك عشرته وتعـريضك به لدى أبنائك على هذا النحـو المزرى ، وأغلب الظن أنه قـد انبهر فى بداية الزواج انبهـارا شـديدا «بآية الجمال» التى أهدتها له المقـادير وغمـرها بحبـه ومشاعـره وكل أنواع اللفتات العاطفية والرومانسية فلم يجد منها فى المقابل سوى السخط .. والنفـور .. والجفاء.. وعـدم الاقتناع به، بل .. واستخسـار النفس فيـه أيضـا ، فكف عـن التعبير عن مشـاعـره التى لا يجد لها أى صدى لدى شريكة حيـاته، ورضى من الحياة بأقداره وتفـادى المشاكل معك بالاستجابة لكل رغبـاتك وتنفيذ كل «أوامـرك» بغير تذمر ، فماذا تريدين منه أكثـر من ذلك يا سيـدتى ؟ وهل كنت تتوقعين منه ومع مـا تبدينه تجاهه من جفاء ونفور واستخسار لجمالك فيه ، أن يفعل معك ما

كان يفعله المحب فى إسبانيا القديمة حين كان يستأجر فريقا موسيقيا صغيرا ليغنى تحت شباك حبيبته «سيرنادا» الحب والهيام كل مساء ؟!

إن الرجل لا تغيب عنه فى أحيان كثيرة مشاعر زوجته الحقيقية تجاهه، مهما كان نوع العلاقة بينهما. والمؤكد أن زوجك قد أدرك منذ فترة طويلة أنك لا تحبينه ولا تنطوين له إلا على المشاعر السلبية، فكف أو يئس من استجداء مشاعرك بعد طول العناء وعوّض ما يشعر به من تعاسة وحرمان عاطفى فى الانهماك فى العمل، وأداء واجباته الأسرية والعائلية، ولم يرفع رغم ذلك راية العصيان فى وجهك، ولم يتوقف عن تنفيذ أوامرك والاستجابة لرغباتك.. فماذا كان يستطيع أن يفعل سوى ذلك وقد أنجب حفنة من الأبناء .. واستشعر مسئوليته الإنسانية تجاههم ؟!

أم تراك تعتقدين أنه كان من واجبه دائما تجاه «الآية» التى سمح له الزمان بها ألا يكف أبدا عن إنشاد أناشيد الحب والهيام.. بغض النظر عن تجاوبها معه فى المشاعر أو رفضها له .. لأن هذا هو واجب العبيد تجاه أربابهم ؟!

ثم ماذا تعنين بتساؤلك عما جنيت من حياتك معه بعد ٣٢ عاما من الزواج وإنجاب حفنة من الأبناء تكرهين بعضهم وتحبين بعضهم الآخر ؟!

لقـد تزوجت زوجك بإرادتـك الحرة وليس رغما عنك، فإذا كـانت مشاعـرك قبل الزواج قد اتجهت لابن خالتـك الذى حالت بينك وبينه الأقـدار، فلقـد كـان واجب الأمـانة يفـرض عليـك ألا ترتبطى بمن تتحـولين معه بمشـاعرك إلى غيره، وإذا ارتبطت به أن ترضى بحيـاتك معه، ولا تقصرى فى إسعـاده حتى ولو لم ينبض قلبك بالحب له.. وكان يكفيك فى هـذا الشأن أن تحسنى عشرتـه وترعى أبنـاءه وتظللى أسرتك بجـو من الوئـام والسـلام، يعوّض زوجك مـا لا تمنحينه من مشـاعـر حقيقية .

فإذا عجزت عن ذلك.. فلقد كان هذا الواجب نفسه يفرض عليك الانفصـال عنه وتحمل تبعات ذلك على حيـاتك وحياة أبنائك، أمـا ألا تفعلى هذا ولا ذاك ثم تتسـاءلين بعـد ٣٢ عـامـا من الزواج وحفنة من الأبناء الكبـار .. من هـذا الرجل وأين أنا .. ومـاذا جنيت مـن حيـاتى معـه!.. فهـذا هو الظلم بعينه لكل من تتحملين المسئوليـة الأخـلاقيـة والإنسانية أمامهم وهم زوجك وأبناؤك .

إنك تعترفين بجـرأة عجيبـة بأنـك لا تحبين بعض أبنائك لأنهم مثل أبيهم ويدافعـون عنه ، وبأنك تميـزين بعض أبنائك على البعض الآخـر لأنهم يسمعون لك مـا تقولين ضد أبيهم ويمـدحونك دائما ويدللونك رغم إدراكك بأنهم منافقون فى كثير من الأحيان.. وتتجاوزين عن هذا

النفـاق لأنه يسعـدك ! ومن عجب أنك تحاولين تبرير ذلك بأن سيـدنا «يوسف» كما تقـولين كـان يفضل بعض أبنائـه على البعض الآخـر ! والواضح أنك تقصـدين بـذلك عطف يعقـوب عليـه السـلام على ابنه يوسف وهو طفل صغير ، مما أثار حفيظة إخوته الكبار عليه .

وردى على هذا التبرير العجيب أن عطف يعقوب عليـه السلام على يوسف لم يكن تفضيـلا له على إخوته أو تفـريقا فى المعـاملة بينه وبينهم وحاشا لنبى من أنبياء الله أن يرتكب هذا الإثم، وإنما كـان عطفا إنسانيا طبيعيا من أب على أصغر أبنائه حتى يشتد عوده، تحقيقا للمبدأ التربوى الحكيم الذى يقـول إن أحب أبناء الأب إليـه هو الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والغـائب حتى يعـود ، وهذا تفـاضل مـؤقت بالزيادة فى درجـة الحب والعطف اللذيـن ينبض بهما قلب الأب والأم لبعض الأبناء مـراعاة لظروفهم، وليس غمرا لأحـد الأبناء بالحب دون إخوته أو بعضهم دون البعض الآخر .. أو تمييزهم فى المعاملة والحقوق عن الآخـرين، كما تفعلين أنـت الآن باعترافك مع بعض أبنـائك. فإذا كنت تسألينني هل يعـاقبك الله حقا على ذلك ؟ فجـوابى نعم . لأن الله قـد أمـرنا بأن نسـوى بين أبنائنا ولو فى القُبـل ، فإذا حملت نفس أحـدنا لأحـد الأبناء حبّا أكبر مـن حبه لبـاقى إخـوته، فإن الرحمة بكل الأبناء

تفرض عليه ألا يظهر أثر هذا الحب الزائد له فى تفضيله لهذا الابن على إخوته فى شىء ولو كان تافها كقبلة العطف على جبينه !

أما عن سؤالك الغريب الآخر عن حساب الله لأبنائك من الفريق المنبوذ على عقوقهم لأمهم، فجوابى عليه أن إثم العقوق سوف يقع فى البداية عليك لأنك لم تعينيهم على البرِّبك، بالمساواة بينهم وبين إخوتهم ولأنك قد دعوتيهم إلى مجافاتك كما تجافينهم، وكرهك كما تكرهينهم.. لكن هذا لا ينفى من ناحية أخرى أن من واجبهم تجاه ربهم وليس تجاهك أن يتفادوا عقابه، بالإحسان إليك مهما لاقوا منك، ومفهوم الإحسان هنا لا يعنى الحب بالمعنى الشَّائع لأن النفس لا تستطيع مهما جاهدها المرء أن تحب من يكرهها، ويعلن له عن كراهيته بوضوح، وإنما يعنى فقط ألا يبادل الابن أو أمه كرها بكره ولا جفاء بجفاء وألا يقصر فى حقوق كل منهما عليه، وأن يحسن معاملتهما مهما لقى منهما محتسبا صبره عليهما عند ربه .

وختاما، فإنى أقول لك يا سيدتى إن من يطلب حب الآخرين عليه أن يبدأ هو بحبهم، ويمهد أرضه لغرس بذور الحب بينه وبينهم، فتطرح ثمارها بعد حين ويتعاون الجميع على رعايتها. أما أن يجاهر بكراهية البعض ثم يتعجب بعد ذلك من بعدهم عنه أو جفائهم له ، فهذا هو الغرور الذى يصور للمرء أحيانا أن من واجب الجميع أن

يرتّلوا تراتيل الحب والهيـام تحت أقدامه دائما ، وليس مـن واجبه هو أن يبـادلهم بعض هذا الحب، وظنّى أنـك قـد عـاملت زوجك بهذا المنطق الفاسد معظم سنوات حياتك معـه ، وأنك تعاملين به الآن أيضا أبناءك المنبـوذيـن ، وتتعجبين بعـد ذلك من جمود مشـاعـر الـزوج ، وسلبيـة أحاسيس هؤلاء الأبناء تجاهك ..

فإذا أردت أن تخرجى من هذه الدائـرة المغلقة، فـابدئى بالرِّضـا عن حيـاتك وزوجك وكـل أبنائك، واعترفى لنفسك بأنك إنسـانـة عـادية ولست آية من الآيات النـادرة التى لا يجود بمثلهـا الزمـان على أحـد ، وقـــدمى العطـف والحب لمن تعيشين بينهم تصفـــو لـك قلوبهم ومشاعرهم، وتستريحين من كل هذا العناء .

وأحسب فى النهـايـة أن زيارة الطبيب النفسى قـد تفيـدك حقـا فى تصحيح بعـض مفـــاهيمك الخاطئـة عن الحيـــاة والنفس البشرية واستجابتها الغريزية لحب الآخـرين أو كراهيتهم .. فضلا عما ستفيدك به من مـواجهـة هذه المرحلة المضطربـةَ من حيـاتك، والتى أحسب أنها ترتبط الآن بشكل أو بآخـــر بما تشعـرين به من فـزع وخـوف لبعض التغيرات البيـولوجيـة التى طرأت عليك مـؤخـرا.. ونبهتك إلى أنك تدخلين مرحلة جـديدة من حياتك «فتـوقفت تراجعين» و «تتساءلين»

و «تتذكـرين» و «تندمين» على شىء فاتك التمسك به قبـل أكثر من ٣٢ سنة ! وكل ذلك من أعـراض هذه الأزمة المعروفـة، فى هذه المرحلة من العمر ، ومن المفيد بالفعل أن تستعينـى عليها ببعض المطمئنات النفسية .. والمهدِّئات .. وتعديل الأفكار الخاطئة .. وشكرا .

***



الجملة الناقصة

أبدأ رسالتى إليك بأن أشكرك على تعاونك مع الكثيرين فى حل مشاكلهم، وأرجو أن تكون عونا لى على حل مشكلتى بإذن الله. فأنا رجل فى السابعة والثلاثين من عمرى . منذ ١٣ عاما كنت فى بداية حياتى وأردت الزواج فرشحت زميلة لى فى العمل إحدى قريبات زوجها، وتقدمت لها فقبلتنى رغم اعتراض شقيقها الأكبر علىّ لضعف إمكانياتى المادية وقتها، لكن الفتاة تمسكت بى وقبلت بظروفى رغم أننى لم ألتق بها إلا حين تقدمت لها، وكانت خريجة كلية عملية وجميلة ومن عائلة طيبة، فأكبرت فيها قبولها لى رغم قلة إمكانياتى وازددت احتراما لها ، وتزوجنا فى شقة صغيرة من حجرة واحدة وصالة فى قرية بعيدة عن عملى وعملها .

وسعدنا بحياتنا معا .. وكانت فألا طيبا بالنسبة لى فعلا فتحسنت أحوالى المالية بالتدريج، وبعد قليل شاركت فى ملكية مزرعة صغيرة

للدواجن فى المنطقة التى أقمنا بها.. وبعـد فترة أخرى انسحب شريكى منها فأصبحت ملكا خالصا لى .. وتحسنت أحوالى أكثر فاشتريت قطعة أرض زراعيـة فى منطقة جيـدة وزرعتها بالفـواكه، وأقمت بيتـا بسيطا مـريحا فيهـا وانتقلنا إليـه، وكـانـت زوجتى قـد أنجبت لى خـلال هذه المرحلة ولـدين جميلين.. ثـم ذات يوم شعـــرت زوجتى فجـأة بألم فى معـدتها تكرر كثيرا وزادت حــدته فعـرضتهــا على الأطبـاء، فإذا بهم يصـدموننـى بأن المرض اللعين قد تسلل إلى أحشـائهـا واستفحل وأن الأمل فى نجاتها منه بالجراحة لا يزيد على ١٪ !

وانهرت حين عـرفت ذلك.. ورغم ضـآلـة الأمل فقـد تمسكت به، ووافقت على إجـراء جـراحة لاستئصـال المنطقـة المصـابة بالمرض، ولم تنجح الجراحة للأسف ولفظت زوجتى رحمها الله أنفاسها الأخيرة قبل أن تنتهى .

ووجدت نفسى أرمل شابا وأبا لطفلين صغيرين حائرين، فواجهت أقـدارى بصبر وعـانيت الوحــدة والألم والفـراغ العـاطفى والنفسى ، وكـابدت رعاية الطفلين اليتيمين وحـدى وسـاءت أحوالى وأحـوالهما، فاستجبت لنصيحة الأصدقاء بالزواج مـرة أخرى بعد ثمانية شهور من وفاة زوجتى، ورشحت لى أسرتى فتاة من الأقارب تزوجتها أملا فى أن أجـد فيهـا زوجـة تعـوضنى عن زوجتى الراحلة وأمّـا بديلة للطفلين

المحرومين، فكشفت لى التجربة عن خيبة أمل كبيرة فيها ، وعانيت من عصبيتها وثورتها على أطفالى واهتمامها الزائد بنفسها وإهمالها وسوء تدبيرها ، فلم أطق استمرار الحياة معها وانتهت التجربة بالانفصال دون إنجاب، وعدت لحياة الوحدة من جديد .

وعشت عاما آخر وحيدا عانيت خلاله الكثير ، وحدثتنى شقيقتى عن فتاة جميلة ورقيقة عمرها ٢٢ عاما من أسرة طيبة تعرفت عليها منذ فترة وعرضت على أن أتقدم إليها، فتشككت فى أن تقبلنى مثل هذه الفتاة الصغيرة ومثيلاتها يحلمن عادة بشاب لم يسبق له الزواج وخال من الأعباء العائلية ، لكن شقيقتى ألحت علىّ فى أن أزور معها أسرة هذه الفتاة زيارة تعارف عادية.. وزرتها فعلا ورأيت الفتاة فزادنى جمالها شكا فى قبولها لى ، ومع ذلك فقد تقدمت إليها بتشجيع من شقيقتى، وجاء الرد بالموافقة بشرط أن ترى الطفلين أولا قبل أن تبدى رأيها النهائى.. واصطحبت طفلىَّ إلى زيارة هذه الأسرة وأنا أتهيب لحظة اللقاء التى قد تنتهى بالرفض، لكن الله قد شاء لى عكس ما توقعت وتعاطفت الفتاة مع الطفلين الصغيرين اليتيمين وأثارا عطفها .. كما استراح إليها الطفلان من الوهلة الأولى .. فتمت الخطبة على الفور .

ولم تطل فترة الخطبة على ٣٢ يوما فقط وتم الزواج . وكنت أتصور

أن فتاتى ستطلب كما هو متوقع أن أبعد طفلىَّ عن البيت خلال الأيام الأولى من الزواج لتستمتع بفترة شهر العسل كأى عروس بلا أعباء عائلية، ففاجأتنى برغبتها فى أن يبقى الطفلان فى البيت وأن تستمر حياتهما عادية لكيلا يشعرا بأى تغيير فى ظروفهما، وتم الزفاف وطفلاى معى فى نفس البيت .. ومضت حياتنا سعيدة .. ولاحظت بامتنان شديد حنوّها على الطفلين واهتمامها بهما اهتماما يفوق فى كثير من الأحيان اهتمامها بى .

ولفتُّ نظرها إلى ذلك فأجابتنى بأن الطفلين يحتاجان إلى عناية مضاعفة حتى لا يشعرا بغياب أمهما الحقيقية، وازداد احترامى وامتنانى لها. ولكنِّى مع مرور الأيام بدأت - واعترف لك بذلك - ألاحظ على نفسى أشياء غريبة .

فلقد بدأت أحس فجأة بحنين عجيب إلى زوجتى الأولى وأتذكر أيامى الجميلة معها قبل مرضها رحمها الله .. وأبحث عن صورها وأطيل النظر إليها.. ووجدتنى فى بعض الأحيان لا أطيق وجود زوجتى الحالية فى البيت .. وفى أحيان أخرى أتعامل معها بمنتهى الرقة واللطف .

ومع تقلباتى هذه بدأت أثور عليها لأتفه الأسباب، ولاحظت أنها

تفاجأ بهياجى فتقف أمامى صامتة ولا ترد على ثورتى إلا بالدموع . ثم أهدأ وأعود لطبيعتى معها بعد قليل فلا تعاتبنى ولا تلومنى على انفعالى السابق عليها وتمضى حياتنا معا كما كانت من قبل .

ثم تطور التغيير الذى طرأ علىّ تجاهها تطورا أشد ، فبدأت أتصيد لها الأخطاء لأحاسبها عليها .. بل وأكاد أنصب لها شباك الخطأ لتقع فيها وأحاسبها عليه.. ولا تتعجب من صراحتى هذه، فأنا فى حاجة لمواجهة نفسى بهذه الحقائق قبل أن أواجهك بها فقد كان من نتائج ذلك أن تطورت الأمور بيننا تطورا خطيرا خلال فترة قصيرة، فمددت يدى عليها بالضرب حين سألتنى ذات يوم عن سبب تأخرى فى الخارج.. وتكررت واقعة الضرب بعد ذلك مرارا وفى كل مرة يكون رد فعلها هو البكاء الصامت والاعتزال لفترة قصيرة، ثم تعود الحياة بيننا إلى طبيعتها . إلى أن حدث ذات يوم أن زارتنا شقيقة زوجتى الراحلة مع زوجها لتطمئن على الطفلين، فرحبت بها زوجتى بحرارة وسألتها كثيرا عن شقيقتها الراحلة.. لكى تعرف عنها كما قالت معلومات ضرورية تحكيها للطفلين عنها حين يسألانها، ثم طلبت منها بعض صور زوجتى الراحلة، وفسرت ذلك بأن الطفلين لابد أن يعرفا جيدا أمهما الراحلة، وأن يحتفظا بصور أمهما حتى لا ينسيانها على مر الأيام، وناقشتها فى هذا الأمر بعد انتهاء الزيارة ولم أقتنع بمبرراتها ..

بل ووجدت فى طلبها هذا برودا فى المشـاعر تجاهى، لأن البديهى هو أن تغـار الزوجة الجديدة من ذكـرى الزوجة الراحلة.. ومعنى طلبهـا لهذه الصور والمعلومات لكى تقصها على أولادى أنها لاتغار علىّ كزوج ولا تشعرنى بغيرتها علىّ ، وثرت عليها وثارت هى أيضـا، وكانت أول مرة تنفجـر فيهـا معى على هذا النحو وتطـور النقاش بيننا تطورا مـؤسفـا، فمددت يدى عليها بالضرب مرة أخرى وضربتها بشدة .

وأعترف لك بأنى لم أكـن فى وعيى حين فعلت ذلك ، لكن هذا مـا حـدث على أية حال، وبعـده طلبت زوجتى مغادرة البيت والعـودة إلى بيت أبيهـا، ووافقت على ذلك. وبعـد مغـادرتها لنا شعـرت بالندم لمضايقتى لها ، وذهبت إليها فى بيت أبيها بعـد أسبوع لكى أعيدها نادما إلى بيت الزوجيـة، فـرفضت حتى مقـابلتى ورجعت مـن عندها أجـر أذيال الخيبة .

وتدخل الأهل والأقارب بيننا وذهب إليها أكثر من رسول للتوسط وإعادة المياه إلى مجاريها بيننا فرفضت الصلح والعودة، ومازالت تقيم فى بيت أبيهـا منذ شهـرين كـاملين وترفض حتى أن تقـابلنى أو تلتقى بى وجها لوجه .

وقد تسألنى فى النهـاية.. وماذا أريد منك ؟! فأجيبـك بأنها تقرأ لك بانتظـام وتعجب بـآرائك وأريـدك أن تكون وسيـط خير بيننا، فـأنا فى

حاجة إليها ولم أشعر بأنى أحبها كل هذا الحب إلا بعد غيابها عن البيت، فأرجوك أن تكتب لها وتبلغها ندمى على كل ما فعلت معها، كما أرجوك ألا تلومنى، فقد عذبت نفسى بما فيه الكفاية على ما فعلته بهذا الملاك الذى أهدانى الله إياه وأهداه لطفلىَّ ، وأشكرك على سعة صدرك، والسلام.

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الجملة المبتورة التى اختتمت بها رسالتك لها بقية ناقصة لا يستقيم المعنى بدونها .. ولن تكون صادقا مع نفسك ما لم تستدركها وتكمل نقصها ، فتقول فى ختام الرسالة «وأرجو ألا تلومنى، فقد عذبت نفسى بما فيه الكفاية على ما فعلته بهذا الملاك الذى أهدانى الله إياه وأهداه لطفلىَّ.. فجحدت هديته وأسأت إليها وتنكرت لها وأهنتها وضربتها، ولم أعرف لها قدرها وفضلها على طفلىّ وأثرها فى حياتهما وحياتى إلا بعد أن نفد صبرها ويئست من أن أعاملها معاملة عادلة وكريمة، فهجرتنى ورفضت العودة إلى سابق عطائها السّخى لى وطفلى وإلى سابق تسامحها الطويل معى» !

هذه هى بقية الجملة المبتورة.. إذ أردت حقا وصدقا أن تواجه نفسك بالحقيقة المجردة بلا مداراة وبلا خداع للنفس أو تهرب من الواقع .

فمـواجهـة النفس بالحقيقـة هى الخطـوة الأولى دائما لأى إصـلاح يرتجى منها. أما تجاهل الحقائق أو الدوران حـولها فلا يثمر سوى خداع النفس والآخرين، واستمـرار الأخطاء بلا نهاية أو بلا أمل فى الإصلاح أو الاستفادة من دروسها .

ويخيل إلىَّ يا سيدى أن سر ما لاحظته على نفسك من تغير وتقلب فى المشاعـر تجاه زوجتك، إنما يرجع غـالبا إلى أن كلا منكما قـد بدأ مشروع زواجـه بالآخر بدوافع مشروعـة لكنها متبـاينة بعض الشىء ، ولا لوم على أحد إلا على المبالغة فيها فقط .

فأمـا أنت، فلقـد بدأتـه وأنت تريد من زوجتـك الشـابة الجميلة الصغيرة التى كانت تستطيع كما تقول : أن تحلم بشاب خال من الأعباء العـائلية، أن تكون نهرا متعـدد الروافد تصب كل روافـده فى بحيرتك، فتكون مع طفليك مـلاكـا ذا أجنحـة يرفـرف فـوقهما ويعـوضهما عن فقدهما لأمهما، وتكون على الناحية الأخـرى ربة أسرة مثالية.. وشريكة حيـاة طيبة.. وزوجـة عاشقـة تتـدلّه فى حبك وتغار عليك من «نسمـة الجنوب» كما يقول الشاعر .

وحين كشفت لك تجربة الزواج والحياة معها أنها أم عطوف لطفليك المحرومين أكثر منها زوجة عـاشقة مدلهة بحبك.. تشكيت من اهتمامها الزائـد بطفليـك بدلا من أن تحمـده لها.. وبـدأت تشعـر بالحنين

لزوجتك الراحلة.. وتضاربت مشاعرك تجاهها.. فساعة تراها أمّا رءوما لطفليك وقد حلت لك مشكلة حياتك الأساسية معها، فضلا عن أنها زوجة طيبة وجميلة ومقبولة فى ظروف مثل هذا الزواج التقليدى وفى ظروفك فترضى عنها وتشكر ربك عليها، وساعة أخرى تلمس اختلاف عطائها العاطفى لك عن عطاء زوجتك الراحلة نسبيا فتنسى لها كل فضائلها ودورها فى حياة طفليك ولا تتذكر إلا نفسك وذاتيتك فتضيق بها .

وما بين الرضا عن دورها النبيل فى حياة طفليك وما بين السخط على تحفظ عطائها العاطفى لك ، اضطربت مشاعرك تجاهها وكثرت ثوراتك الانفعالية عليها وتطورت الأمور بك إلى الأسوأ، فتكرر اعتداؤك بالضرب عليها .

ومشكلتك هى أنك تريد منها كل شىء وفى نفس اللحظة .. وبالحد الأقصى من الأشياء ولا تتوقف لكى تسأل نفسك لحظة : وما هو «المقابل العظيم» الذى أقدِّمه لها، والذى يبرر لى طلب كل ذلك وتوقعه منها على النحو الأمثل ؟

أو متى اكتملت لأحد كل أسباب الرضاء الكامل عن كل شىء فى حياته وبالحد الأقصى من الأشياء ؟

لقـد كـان يكفيك جـدا أن ترضى منهـا بدورها كأم حنون فى حيـاة طفليك.. وبدورها كزوجة طبيعيـة ومتسامحة معك إلى أقصى حد حتى ولو كانت فاترة المشاعر تجاهك بعض الشىء إلى أن تجدل الأيام خيوط الحب بينكما على مـر الزمن .. أو تتآلف أنت مع حقيقـة أخرى لا مفـر منها وهى أنها ليست زوجتك الراحلة ولا يمكن أن تكون نسخة مماثلة لها فى كل شـىء، لكنك لم تكتف بذلـك وهو كثير .. وطلبت الأكثـر ففقدت الجميع !

لقـد تحدثـت عن دوافعك للارتبـاط بها .. ولم أتحدث بعـد عن دوافعهـا للارتباط بك، والتى أدى بعض التبـاين بينها إلى هذه الأزمـة بينكما .

لقـد فهمت من رسـالتك أنها لم تنجب منك بـالرغم من أنها فى سن الإنجـاب. وإذا صح تقـديرى، فإننى أتصـور أنها مـن ذلك النوع من النسـاء الذى يمكن أن تطلق عليهن عبـارة «أمهـات لم يلدن أبدا».. والفتيات والسيـدات من هذا النوع يحملن فى أعماقهن إحساسـا طاغيا بالأمـومـة الدافقـة سـواء أنجبن أو لم ينجبن، ولهذا فهن يفضن عطفـا ورحمة على الأطفـال الصغـار ويتلهفن على ممارسـة أمـومتهن الحبيسـة داخلهن بكل الوسائل المتاحة .

وأكاد أتصـور أن زوجتك قد رحبت بك من البداية أمـلا فى إشباع

أمومتها الفياضة، ولهذا فقد اشترطت لقبولك أن ترى طفليك أولا.. وكانت نتيجة الرؤية إيجابية فتآلفت الأرواح من اللحظات الأولى وقبلت الطفلين وتزوجتك وطلبت منك ما لا تطلبه عادة عروس شابة من زوجها فى ليلة زفافهما.. وهو أن يكون طفلاه فى الجوار وتحت نفس السَّقف لكى تبدأ فى ممارسة أمومتها معهما من اليوم الأول للزواج !

فلماذا لم تتفهم كل ذلك من البداية وتسعد به وترضى عن هذه الهبة الإلهية النادرة لأطفالك وتتغاضى بعد ذلك عن أى نقص آخر فى حياتك.. وتتواءم معه إدراكا لأن الحياة لا تعطى أحدا أبدا الحد الأقصى من الأشياء !

لقد تعجبت لخلافك الأخير معها الذى أدَّى لهجرها لك ، فأصدق تعبير يمكن أن يوصف به هو أنه أسوأ جزاء لخير عطاء . فلقد تعاملت زوجتك مع مسئوليتها عن طفليك بأمانة ورقى فى التفكير والفهم يستحقان الإشادة والتقدير لا الخلاف والاعتداء . لقد رأت من واجبها الإنسانى تجاههما ألا يخلطا فى مخيلتهما بينها وبين أمهما الحقيقية، وأن من حقهما أن يعرفا كل شىء عنها حتى لا ينسياها .

وهذا أسلوب فى التربية شائع فى الغرب، ويقضى بمواجهة الصِّغار بحقائق الحياة مهما كانت مؤلمة بدلا من تجميلها أو تخفيفها أو إخفائها عنهم، لكى يعتادوا على الحياة «بها» منذ الصغر كما يألف الإنسان عاهته

ويتعايش معها لأنه لا بديل أمامه سوى ذلك، وهو أسلوب يرى فى هذه المواجهة عونا للصغار على أن ينشأوا أكثر صلابة وقوة نفسية على تحمل أعاصير الحياة. والحق أنى أعجب كيف اهتدت زوجتك التى لم تحدثنى عن نوع دراستها إلى تفضيل هذا الأسلوب الواقعى فى التربية! وهو مخالف للأسلوب العاطفى الشائع لدينا فى هذا الشأن مع أضراره التربوية النفسية، لكنه على أية حال وسواء كانت قد فعلت ذلك عن وعى واختيار أو عن إحساس فطرى بأنه الأصوب، فلقد اختارت الأمثل والأفضل والأكثر تحقيقا لمصلحة طفليك على المدى البعيد نفسيا وتربويا ، فضلا عن أنه أيضا الاختيار غير «الأنانى» من جانبها. ذلك أن من تقدم عطاءها لطفليك قد تفضل فى كثير من الأحيان أن تمحو من ذاكرة الصغار كل أثر لأى أم أخرى سواها. فماذا كان رد فعلك لكل ذلك.. وكيف تعاملت مع هذا الاختيار الإنسانى النبيل ؟

لقد ناقشته معها من ناحية واحدة فقط هى الناحية «الذاتية» الشخصية التى تخصك أنت وتخص علاقتك بها بغض النظر عن مصلحة طفليك، فاعتبرت تصرفها بُرودا فى العاطفة تجاهك وجحودا فى المشاعر يعكس عدم غيرتها عليك من ذكرى زوجتك الراحلة ! وانفعلت عليها فانفجرت فيك لأول مرة واعتديت عليها بالضرب بشدة فهجرتك ورفضت العودة إليك .

فماذا تريدنى أن أقول لها بعد كل ذلك يا صديقى ؟! إننى أريد أن أقول لك أنت الكثير والكثير.. وأن أذكرك بأنه رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .. وأدرك حقيقة ظروفه وأوضاعه فلم يحمل الآخرين رهقا ولم يطالبهم بالكثير. فإذا كنت قد استوعبت دروس تجربتك وأخطائك حقا فلسوف ينعكس ذلك عليك فى ندم حقيقى صادق على ما بدر منك فى حق زوجتك .

وإذا جاز لى أن أخاطب زوجتك فى شىء، فإنما أفعل ذلك فقط من أجل هذين الطفلين البريئين اللذين حرمتهما الأقدار من أمهما.. وحرمهما أبوهما بسوء أفعاله من رحمة السماء بهما، ولن أطالبها سوى بشىء واحد هو أن تعطيك الفرصة العادلة لمقابلتها وإبداء أسفك واعتذارك لها ولكى تلمس هى بحسِّها مدى صدقك فى ندمك.. وتقرر لحياتها معك ما تراه على ضوء اقتناعها بصدق هذا الندم، وبصدق رغبتك فى أن تبدأ معها صفحة جديدة خالية من كل أخطاء الماضى ومثالبه..

وأرجو أن تستجيب لرجائى لها بمقابلتك إكراما لهذين الطفلين، وشكرا لها إن فعلت .

* * *



بصمات الشقاء

أنا شاب فى الثلاثينيات من عمرى ، فقدت حنان الأم وأنا فى بداية حياتى، وعشت مع أسرتى البسيطة حياة كلها حرمان وقسوة، حتى إننى وأنا فى المرحلة الثانوية لم ألتحق بالمدرسة النهارية، والتحقت بمدرسة مسائية لكى أعمل فى الصباح وأوفر لنفسى وأسرتى بعض الزاد الذى يخفف من جفاف حياتنا. ورغم ذلك فقد حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير والتحقت بالكلية النظرية التى تمنيت الالتحاق بها .

وكعهدى مع الشقاء المبكر فقد أديت فترة تجنيدى خلال دراستى بناء على طلبى حتى أنهيها أثناء الدراسة وأعمل عقب التخرج على الفور ، بدلا من أن أضيّع عاما وبعض العام بعد التخرج، ولأن البسطاء لا يستطيعون الانتظار يا سيدى . وقد نجحت خلال فترة تجنيدى فى العام الجامعى الأول بتقدير طيب وكذلك فى العام الثانى .

وكـان أخى الأكبر وقتها قـد سافـر للعمل فى الخارج ليسهم مع أبى فى إعالة إخوته.. فتكفل بنفقات دراستى الجامعية، وساعدنى على أعبائها، وحملت له هذا الصنيع فى قلبى وضميرى حتى اليوم .

وفى عـامى الجامعى الأخير تعرفت على زميلـة جديدة من طالبـات السنة الأولى، كـانت تضع أقـدامهـا على أعتـاب الجامعـة، وأنا أستعـد لمغــادرتها، فلفت نظرها تفــوقى واجتهــادى وحب الجميع لى، وأننى لست شـابا لاهيا ولا عـابثـا، كما أن مظهـرى وملامح وجهى يحمـلان بصمات الشقــاء. فتقـاربنا سريعــا وعــاهدتها على أن أرتبط بها عقب تخرجى بالرباط المقدس رغم اعتراض زمـلائى من طلبة الليسانس على ذلك .

لكن رصيد الحرمان والشقـاء والبؤس من ورائى دفعنى إلى ألا أزيد من عناء حيـاتى بحرمان قلبـى من حقه فى أن يخفق لأول إنسـانة أحبها وأتمناها، وأذكر أننى تناقشت وقتها مع أقرب الأصدقاء لى فى معارضته لفكرة الارتبـاط ، وكـانت مبرراته لى هى أن حب الجامعـة قـد لا يدوم غالبا إلى نهاية العمر .. وإننى بعـد أن أتخرج وأعمل سوف يتسع أمامى ميــدان الحيـاة، فأرى غيرها وربما أنجــذب إلى من هى أفضل منهــا، فقطعت عليه المناقشة بقولى له إن من عـانى ما عانيته يتمسك دائما بأول نسمة راحـة فى حياته ولا يفـرط فيها بسهـولة. وهكذا أخلصت الحب

لزميلتى وأقمت على عهدى معها وتخرجت فى كليتى متفوقا كعادتى، فتوج الله رحلة كفاحى بتعيينى معيدا بالجامعة وحصلت على دبلوم الدراسات العليا، وأسرعت بالتقدم إلى خطبة زميلتى ووافق أهلها على الفور.

وتحملت وحدى كل نفقات الزواج، وتزوجنا وبدأنا حياتنا الزوجية طائرين صغيرين سعيدين أحدهما وهو أنا يتشوق بحرقة وإصرار إلى الراحة والسعادة والأمان وأنجبنا طفلا جميلا كان هدية السماء لنا .. أما جائزته فكانت حصولى على الماجستير ثم الدكتوراه.. وخلال سنوات الزواج الأولى تخرجت زوجتى فى كليتها وعملت مدرسة بمدرسة حكومية، وأنجبنا مولودنا الثانى.. وكان أخى الأكبر الذى ساعدنى خلال تعليمى الجامعى قد تزوج هو الآخر وأنجب واستقرت حياتنا وسعدنا بها ورضينا.

وتحسنت ظروفى المادية تدريجيا أكثر فأكثر ، فانتقلت بأسرتى الحبيبة من شقتنا القديمة الضيقة إلى شقة جديدة جميلة أعدت تأثيثها بأثاث جديد واشترينا سيارة، واشتركنا فى أحسن الأندية.. وقدمت الذهب لزوجتى فى كل مناسبة.. لكن أين فتاة القلب الجميلة التى عشت معها عامين فى بداية زواجنا ليسا من حساب السنين ؟!

لقد تغيرت زوجتى كثيرا بعد عملها بقليل.. وعاشت لنفسها فقط

متناسية زوجها الذى أحبها وهى طالبة صغيرة خائفة على أبواب الجامعة، ونسيت أبناءها وازداد ارتباطها بعملها على حساب راحتى وراحة أبنائى، وأصبح كل ما يهمها هو مظهرها وحياتها فقط. وفوجئت بها تفتعل معى المشاكل كل حين، ثم تهجر البيت عائدة إلى بيت أهلها الذى تشعر بالراحة فيه أكثر من بيتها كما علمت. فأسعى إليها كل مرة فى بيت أهلها، وأقدم لها هدية الصلح رغم أننى لم أخطىء فى حقها فى شىء وأرجع بها إكراما لأبنائى الذين ازداد ارتباطى بهم كثيرا، وأصبحت لا أستطيع التخلى عنهم.

وعرفت هى هذا الضعف فىَّ فضغطت على هذا الوتر مرارا، وابتعدت عن أبنائها كثيرا فى ظاهرة لم أرها ولم آلفها من قبل.. وصبرت أنا على كل شىء إكراما لأبنائى وحرصا على زوجتى التى أحببتها وأملا فى تحسن الأحوال، وهدأت من روعى بأنه قد سبق لى أن تحملت من قسوة الحياة ما هو أشد هولا.. فعسى الله أن يعوضنى وأولادى عن صبرى خيرا.

وبالفعل فقد جاءت جوائز السماء التى تبشر بها الصابرين دائما يا سيدى فى كتاباتك ورشحت للإعارة إلى دولة عربية بمرتب كبير وتسهيلات مغرية ومسكن لائق.. وأملت أن يجتمع شملنا هناك.. فتبدد الغربة سحابات الخلاف المفتعل وتقرّب بيننا من جديد، وزففت

الخبر إلى زوجتى مبتهجا، فإذا بها تصدمنى باعتذارها عن عدم مصاحبتى إلى غربتى، وبمطالبتى بالسفر إلى عملى الجديد وحدى بدونها وبدون أبنائى !

ومهما وصفت لك ما أحسست به فى هذه اللحظة من إحساس مرير بالهوان والخذلان فلن أستطيع أن أصور لك مشاعرى وقتها، ومع ذلك فقد تحاملت على نفسى ورجوتها أن تعيد النظر فى هذا القرار الصعب، لأنى فى حاجة إليها وإلى أولادى فى غربتى، ولأنه لا معنى لأن أعيش وحيدا ولى أسرة يمكن أن يجتمع شملها معى، فرفضت بإصرار .. وأتبعت رفضها بمغادرة البيت إلى بيت أهلها لكى تضعنى أمام الأمر الواقع ، فتجمعت هموم الدنيا فى داخلى، وتساءلت أين السعادة التى تعد بها الحياة من طالت رحلتهم فى بحر الشقاء؟ وكدت أن أعتذر متنازلا عن فوائدها المادية لى ولأبنائى وأسرتى وسعيت إلى زوجتى فى بيت أهلها من جديد لإعادتها للبيت ، اشترطت علىّ ألا ترجع إليه إلا بعد تنفيذ شروطها وهى أن أسافر وحدى إلى الإعارة أولا ، وبعد أن أرجع فى أول إجازة صيف منها يذهب كل منا فى طريق مختلف !

وتحملت الإهانة وجرح المشاعر مرة أخرى.. وسافرت وحدى إلى عملى الجديد وأثثت لها ولأبنائى فى الغربة شقة فاخرة على أمل أن تقتنع

وتحضر إلىّ بعـد حين، وعلمت أن أبنائى يفتقـدوننى ويبكون ليل نهار من أجل رؤيتى والسفـر للإقـامة معى، لكنهـا لا ترقّ لهم ولا تلين ولا تتنازل عن رفضها للسفر حتى بعد أن وفّرت لها عملا معى فى الغربة .

ورجعت فى أول إجـازة فـوجدتها مشغـولة بجمع المال من عملها وأحضرت لها كل غـال وثمين من الغـربة، فلم يشفع لى ذلـك عندها وتدخل الأهل والأصدقاء لديها بلا جدوى، وافتعلت المشاكل مع أهلى وخاصة أبى المسن وإخـوتى رغم أنى لم أقصر فى حقها، لكنها للأسف قد فقدت الإحساس بالزوج والأبناء .

وتكرر نفس الحال حين رجعت فى الإجازة الثـانية بعـد عام طويل، وها أنا أعيش عامى الثالث من الإعارة .. ولم يتحسن الحال، ولم تلح فى الأفق أية بادرة أمل !

لقـد دارت الحيـاة دورتها يـا سيـدى وتوفى إلى رحمة الله أخى الكبير الذى سـاعدنـى فى تعليمى الجامعى وأسرنى بفضله، فنهضت بلا تردد لتحمل مسئوليتى عـن أبنائـه اليتـامى ولأرد لهم جميل أبيهم رحمه الله، وأصبحت بذلك أعـول أسرتين مـن فضل الله ورزقـه لى. وقـد علمت مؤخـرا أن زوجتى وبعد ١٣ عـاما من زواجنا تريد أن تـؤمن مستقبلها مـاديا مع أنى لم أقصر معهـا ولا مـع أهلهـا فى شىء ومع أن حـاضرى ومستقبلى ملـك لها ولأبنائـى، كما أنها تطـالب الآن بـالانفصـال

وبتعويضها ماديا لا أدرى عن أى شىء على وجه التحديد وقد تكفلت وحدى بنفقات الزواج، لم تساهم هى معى فى شىء من تكاليف الحياة، حتى ونحن فى بداية حياتنا حين كانت مواردى محدودة، لكنه حب التملك الذى اكتشفته أيضا فى شخصيتها .

إننى أحب أسرتى وأبنائى وحبى لزوجتى قائم على حبى لأبنائى، وسيظل هذا الحب يسيطر علىّ إلى النهاية. وقد تجاوز أبنائى سن الحضانة، لكنى لا أريد لهم أن يتمزقوا بين أبوين منفصلين، كما تمزقت أنا فى الحياة باليتم المبكر وقلة الموارد .. وأنا أعلم أن زوجتى للأسف تكرهنى، ومع ذلك فلست قادرا على اتخاذ القرار بالاستجابة لشروطها فى الانفصال وتعويضها ماديا .

إننى أرجوك ألا تتهمنى بالضعف معها، فلست فى الحقيقة ضعيفا، لكن قدرتى على التحمل تفوق الوصف ، وقد تحملت الحرمان من كل شىء فى الحياة فى طفولتى وصباى .. فهل أعجز عن مزيد من التحمل من أجل أبنائى ؟!

إن المقربين منى يتمنون لى الانفصال عنها .. فهل أفعل ذلك يا سيدى ..؟ وهل أرتبط بعدها بأخرى ؟ ومن يدرينى أن من سوف أرتبط بها يكون لها وجهان.. وجه واعد بالسعادة قبل الزواج ووجه منذر بالشقاء والتعاسة بعد الزواج، كما حدث لى مع زوجتى، أم هل

أحافظ على الوضع القائم أملا فى تحسن الأحوال، رغم أنه لا يلبى احتياجاتى النفسية والعاطفية والاجتماعية ؟

إن مأساة زوجتى فى تقديرى هى فى بعدها عن أداء فرائض الله إلا فى أوقات الشدة، وأنا رجل مصل وأديت فريضة الحج وأرعى الله فى عملى وحياتى وتعاملى معها.. فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مأساة زوجتك أيضا يا سيدى إلى جانب البعد عن فرائض الله وأوامره ونواهيه، تتمثل كذلك فى كوارث تقلب المشاعر واختلاف المزاج النفسى وزوايا الرؤية للحياة والأشخاص، بين مرحلة الرومانسية وبراءة الأحاسيس فى بواكير الشباب، وبينها فى مرحلة نضج الشخصية واكتمال ملامحها واختلاف رؤيتها للأشياء والأهداف مع الاقتراب من سن الثلاثين وما بعدها .

وأنت كما فهمت من رسالتك قد ارتبطت بزوجتك وهى تضع أقدامها على أعتاب الجامعة أى فى سن الثامنة عشرة غالبا أو بعدها بقليل، وهى مرحلة من العمر تغلب على الإنسان فيها النظرة الرومانسية للحياة ولا تسمح له أبدا بالتأكد من ثبات المشاعر واستهداء العقل فى تحديد الاختيارات المصيرية فى الحياة بما يضمن لنا استقرارها وثباتها إلى نهاية الرحلة. ومع أن بعض الزيجات السعيدة

الناجحة قد تبدأ بالفعل بالاستجابة لنداء القلب لأول طارق له فى هذه المرحلة من العمر ، إلا أن زيجات أخرى كثيرة أيضا على الناحية الأخرى قد بدأت بالارتباط العاطفى فى هذه السن المبكرة، وبشرت بالسعادة والأمان فى قادم الأيام، ثم جفت ينابيع الحب فيها بعد سنوات وتحطمت سريعا على صخور الحياة واختلاف المزاج النفسى بعد اكتمال ملامح الشخصية واتساع دائرة الرؤية لما كانت العين لا تراه من قبل إلاَّ من ثقب إبرة القلب والمشاعر وحدها !

ولا لوم على أحد فى اختلاف تكوينه النفسى بعد تخطيه مرحلة المراهقة وتقدمه إلى سن النضج، لكن اللوم كل اللوم على من يرضون لأعزائهم من الأبناء بأن يدفعوا ثمن هذا التطور الطبيعى فى شخصياتهم، وعلى من لا يروضون أنفسهم على التواؤم مع حياتهم ومحاولة إعادة اكتشاف شخصيات شركاء حياتهم، والتماس ملامح الحب القديم فى العلاقة معهم لإحيائه وتطويره أو الاكتفاء منه على الأقل بالعشرة الطيبة وعلاقات المودة والرحمة مع من سبحنا ضد التيار لكى يجتمع شملنا بهم، وما لا يُدرك كله لا يترك كله، لكن آفة البعض منا أنهم كما يقول لنا المفكر الفرنسى مونتيسكيو يريدون أن يكونوا كالآلهة تقول للشىء كن فيكون، ويطلبون دائما من الحياة مالا تسمح به كله لأحد مهما كان شأنه . وقد لاحظت خلال زيارتى الأخيرة

للولايات المتحـدة الأمـريكيـة أن فى حيـاة معظم الرجـال والنسـاء الأمـريكيين زيجتين على الأقل، الأولى تمت فى سـن أواخـر المراهقـة وبواكير الشبـاب وتزوج فيهـا الشاب أول فتـاة أحبهـا ، فلم يدم ذلك الزواج بسبب اختلاف الشخصيـة بعد النضج أكثـر من ثلاثة أعوام أو أربعة.. ثم زيجة أخـرى فى سن الثلاثين أو ما بعدها كـان اختيار القلب لها ناضجـا ومتوافقـا مع أحكام العقل، فـدامت واستمـرت حتى نهاية الرحلة .

وقـد يفسر لـك ذلك مـا تسميــه أنت بوجــه زوجتك قبل الزواج «ووجهها» بعده. وما حدث لزوجتك من تغير فى الطباع والشخصية فى تقـديرى هـو أن الفتـاة الصغيرة الخائفـة التى وجـدت لـديك الأمـان والعـاطفة وهى تضع أقـدامهـا على أعتـاب الجامعة، قـد تحولت عنك مشاعـرها بعد المعـاشرة والإنجاب واكتسـاب خبرة التعامل مـع الحياة واتساع زوايا الرؤية لديها .

وبغض النظر عن أسبــاب هذا الانقـلاب فى شخصيتهـا أو مـدى مسـاهمتك فى إحـداثه بوعى أو بغير وعى منك، فإن زوجتك المشغـولة الآن بجمع المال وتأمين مستقبلهـا والتى لا يرق قلبهـا لدمـوع أبنائهـا الذين يبكون طلبا للسفر والإقامـة مع أبيهم وتقوى على مفارقتهم عند كل بادرة خـلاف، لم تعد هى هذه الفتـاة الصغيرة التى أحبتك وهى فى

الثامنة عشرة من عمرها. وإنما أصبحت الآن شخصية مغايرة تماما لها لا ترغب فى مواصلة الرحلة إلى نهايتها معك، وحددت اختياراتها فى الحياة فرسمت لسعادتها طريقا لا مكان لك فيه للأسف ولا طائل من محاولات إرجاعها عنه أو استجداء مشاعرها القديمة التى نضبت وجفت ينابيعها منذ زمن . بل ولا جدوى لأية محاولة جديدة معها لنفس الغرض إلا إطالة الوضع الراهن بينك وبينها.. وهو وضع لا يشبع احتياجاتك النفسية والاجتماعية.. وقد يعرض كرامتك أيضا كرجل إلى مالا ترضاه لنفسك .

لقد انتهى كل شىء للأسف ولم يبق إلا إسدال الستار. وإذا كنا قد سلمنا فى أعماقنا بالنهاية.. فإن لحظة إنزال العلم تستحق منا أيضا أن نذرف الدمع تأثرا بوأد الأحلام وانهزام الحب وانتهاء الأمان فى حياتنا. ولا لوم عليك فى ذلك إذا فعلت.. لكن لا تمتهن نفسك يا صديقى أكثر من ذلك فى التمسك بمن ترفضك وترى سعادتها فى البعد عنك، فلقد أديت واجبك كاملا تجاه أبنائك بمحاولاتك المستميتة لأن تحفظ عليهم حياتهم الأسرية وتحملت فى سبيل ذلك من مرارة الخذلان واستجداء المشاعر مالا يصح أن يطالبك أحد بالمزيد منه، فلا تضف إلى بصمات الشقاء على روحك وشخصيتك بصمات مرارة الإحساس بالرفض ممن تقرب إليه القرابين، فلا يزيده ذلك إلا نأيا عنك وتجبرا

عليك، فنحن فى النهاية لا نستطيع أن نرغم أحدا على أن يحبنا ويبادلنا مشاعرنا الصادقة تجاهه.. وإنما نستطيع فقط أن نحترم أنفسنا ونكف عن استجداء من لا يحمل لنا بعض ما نحمله له نحن من حب ومشاعر.

وتقدير أسوأ الاحتمالات والقبول بها يعيننا كثيرا على التخلص من خوفنا الغريزى من مواجهة ما نخشى وقوعه.. إذ ما هى أسوأ الاحتمالات المتوقعة إذا أصرت زوجتك على مطلبها فى الانفصال رغم كل ما بذلتَ من محاولات للإصلاح ؟ الطلاق وعودتك من غربتك لتقيم مع أبنائك فى مسكنك ؟ ماذا سيجرى فى الكون إذا حدث ذلك؟!

إن لك من الإخوة والأهل من سوف يعينونك على رعاية أبنائك.. ولن تطول وحدتك كثيرا بعد انفصالك عن زوجتك إذ ما أكثر من يرحبن بك وبأبنائك كزوج وعشير طيب يتلهف للسعادة والأمان بعد رحلة العناء. أما زوجتك فقد ترتبط بغيرك بعد الانفصال وانقضاء العدة على الفور.. وقد لا ترتبط وسواء فعلت هذا أو ذاك فلسوف تعرف مالا نعرفه أبدا إلا بعد فوات الأوان، وهو أنه لا قيمة لنا فى الحقيقة إلا لدى من يحبوننا ويتمسكون بنا، وأننا مهما تمادينا فى الكبر عليهم والغرور معهم فلسوف تجىء لحظة فاصلة تنتصر فيها الكرامة

على الحب والضعف البشرى ويهجرنا من نتصور أنهم لا حياة لهم إلا بنا.. وكثيرا ما تجبرنا عليهم من قبل، فإذا بنا نكتشف بعد فوات الأوان أننا لا نساوى شروى نقير عند غيرهم.. وأننا لسنا فى الحقيقة سوى أشخاص عاديين .. من «تراب الإنسانية» - على حد تعبير الفيلسوف نيتشه - لا يلتفت إلينا .. ولا يخطب ودنا ولا يتذلل لنا أحد، لكنه «الغرور» نعمة الله لأصحاب النفوس الضعيفة .. كما يقول لنا شكسبير العظيم، لأنه يعوضهم عن نقصهم وتفاهتهم ويصور لهم أن الشمس لا تشرق فى الصباح إلا لكى تلقى ضياءها على وجوههم !

فلا تُعن يا صديقى أهل الغرور على مزيد منه وواجه أقدارك بشجاعة كما ينبغى لكل رجل شريف أن يفعل، وفاوض زوجتك فى الانفصال بلا منازعات قضائية ولا مشاكل. أما عن تعويضها ماديا فلست أعرف مبرراتها لطلبه إلا إذا كانت قد ساهمت معك بمالها فى شراء الشقة والسيارة.. أما إذا لم تكن قد فعلت فليس لها من حقوق مادية عليك سوى مؤخر صداقها فيما أعلم إلا إذا رغبت أنت كرما منك وحرصا على العلاقات الإنسانية مع أم أبنائك أن تؤدى إليها نفقتها ونفقة المتعة بنفس راضية مادامت زوجتك هى التى تطلب الطلاق منك دون إيذاء لها من جانبك أو ضرر. وقد شرع الله لمن أرادت الطلاق من زوجها بغضا له ودون إيذاء منه أو ضرر وبغير أن

يدفعهـا إلى ذلك بظلمه لها وإضراره بها.. شرع لها أن تفتدى نفسهـا منه بمال تؤديه إليـه، وهذا هو الخلع المشروع. أمـا غير المشروع منه فهـو أن يضيّق الزوج عليها ويظلمهـا فيدفعها إلى طلـب الطلاق منه تخلصا من عشرته . فإذا أخـذ بعـد ذلك المال منهـا وطلقهـا، فـالرأى عند الأمـام الأكبر فضيلة الشيخ محمـود شلتـوت (رحمه الله) عليه أن ينفـذ طلاقهـا تخليصـا من الضرر، وأن يتـوجب على الـرجل بعـد ذلك رد المال الذى أكرهها على دفعه .

وأنت كما تروى رســالتك.. لم تضيّــق عليهــا ولم تدفعهــا بالإيذاء والضرر إلى طلب الطلاق منـك، فأى وجــه للتعـــويض المادى الذى تطالب به إذن؟!

***

العقل الجميل

أكتب إليك لحاجتى الملحة فى أن أتحدث إلى أحد وأنفس معه عماً فى صدرى ، فقد قرأت لك أن الكتابة إلى شخص ما إنما تعكس رغبة الإنسان الغريزية فى الإفضاء بما ينطوى عليه صدره لمن يشاركه الاهتمام به . وهذا ما أريد أن أحققه بالكتابة لك . فأنا شاب فى الحادية والثلاثين من عمرى، نشأت فى أسرة ريفية مكونة من أب موظف وأم لا تعمل وأخ وثلاثة بنات، وقد كافح أبى وأمى معنا كفاحا مجيدا حتى تعلمنا وتزوجت أختان من أخواتى. أما أنا فقد تخرجت فى كلية التجارة وأديت فترة التجنيد، وبعدها سافرت إلى دولة عربية ولم تطل غيبتى بها عن سنة

ونصف السنة، عدت بعدها على إثر حرب الخليج ومعى مبلغ لا يزيد على ألف دولار لا غير. وبدأت أبحث عن عمل بمؤهلى فلم أجد واضطررت للعمل لفترة بائعا بالثانوية العامة فى أكشاك الخبز إلى أن حصلت والحمد لله على عمل بمؤهلى الدراسى كمحاسب بإحدى

الهيئات العامة فى محافظة ساحلية نائية .. وبعد استقرارى فى هذا العمل بدأت أبحث عن شريكة الحياة التى تؤنس وحدتى فى هذه المحافظة البعيدة عن بلدتى الأصلية. وتمنيت كما يفعل كل الشباب أن أتزوج إنسانة جامعية مثلى وجميلة الشكل. وتقدمت إلى أكثر من فتاة من أهل بلدتى، فكنت أُقبل فى البداية لأنى من أسرة متدينة وإنسان ملتزم، ثم أصطدم بصخرة المطالب المادية التى لا أقدر عليها فيفشل المشروع، فلقد كان المطلوب دائما هو شبكة قيمة وشقتان واحدة فى محافظتى الساحلية.. والأخرى فى بلدتى الأصلية، وكل ذلك بخلاف الجهاز. فكيف أقدر على ذلك ولم يكن قد تبقى معى سوى ألف جنيه ؟!

وهكذا قوبلت بالرفض من أكثر من أسرة بسبب إمكانياتى المادية، إلى أن رشحت لى طبيبة صديقة لأسرتى ابنة شقيقها التى تبلغ من العمر ٣٣ عاما وتعمل بالدبلوم التجارى وتقيم فى محافظة بعيدة بالجنوب، وطلبت رؤية العروس وقابلتها فى منزل عمتها الطبيبة ووجدتها ليست جميلة، ومع ذلك فلقد أعجبنى منها روحها وصراحتها وطيبتها الظاهرة فضلا عن أصلها الطيب.. فلقد وجدتها بعد قليل تفصح لى عن سنها الحقيقية بدون خجل وترحب على الفور بالانتقال معى إلى محافظتى التى أعمل بها رغم بعد المسافة وبلا تمنع ولا تخوف من البعد أو الغربة.. ولم تطلب شيئا وتمت الخطبة بنصف المبلغ الذى

أمتلكه، وتم عقد القران وقمت بتصنيع غـرفة نوم بألفى جنيه وتحملت أسرة الفتـاة باقى الجهاز بعـد أن عرفت إمكانيـاتى. وبعد ثلاثة شهـور تزوجنا، وتم انتداب زوجتى إلى محافظتى الساحليـة وسافرت معى إلى شقتى هناك.

ومع أنى ككل شاب كنت أتمنى أن أتزوج من فتاة جميلة وصغيرة فى السن.. إلا أن زوجتى هذه قـد أثبتـت لى بالدليل العملى أن الجمال ليس شيئا مهما فى الزواج، فلقـد وجـدتها ورغم أنها تكبرنى فى السن بسنتين مطيعة ومريحة وحسنة العشرة وترضى بالقليل وتقدر ظروفى، وتحرص على مشـاعـرى فتقبض مـرتبهـا أول كـل شهـر ثم تتركـه لى على «الكمودينو» بجـوارى لكى تعفينى من حـرج أخذ مرتبهـا من يدها.. وذلك لكى أدفع إيجار الشقـة وقيمـة أقساط الأثاث. ولقـد كنت والله أذوب خجلا من نفسى وأنا آخذ مرتبهـا وأحلم باليوم الذى ينتهى فيه سداد الأقساط لأعفيها من ذلك، لأنى أعرف أن الزوج مسئول وملزم بالنفقة على زوجته.

ومع ذلك فلم تشعرنى زوجتى بأى حرج ولا مَنّ فأحسنت عشرتها وأحسنت عشرتى. وبعـد شهـرين من زواجنا تحركت ثمـرة الزواج فى أحشائهـا.. ومضت شهور الحمل عـادية وبلا متاعب صحيـة تذكر إلى أن اقتربت ولادة زوجتى فطلبت منهـا قبل الموعـد بعشرين يـومـا أن

تسافر إلى أسرتها لتضع مولودها هناك فودعتنى وودعت الجيران.. وأوصتنى بالاهتمام بنفسى وسافرت مصحوبة بالسلامة إلى بيت أسرتها وحانت لحظة الولادة فوضعت طفلا جميلا أسمته هى أحمد.. ثم .. أسلمت روحها لباريها بعد ميلاده وتسميتها له بست ساعات فقط !

فهل تصدق هذا ؟ لقد نزل الخبر علىَّ كالصاعقة وأنا فى محافظتى البعيدة أنتظر عودتها ومعها طفلى لكى نكوِّن أسرتنا الصغيرة، فإذا بكل شىء يتبدد فجأة وفى لحظة خاطفة ! وهرولت إلى بلدة أسرتها وأنا مذهول وحزين وتلقيت العزاء فيها.. وأمضيت بضعة أيام، ثم رجعت إلى عملى تاركا طفلى الرضيع فى بيت خاله لترعاه خالته الصغرى وزوجة خاله التى ترضع طفلا لها ووجدت نفسى يا سيدى أرمل فى الثلاثين من العمر .. وقد فقدت الزوجة الصالحة الطيبة المطيعة بعد زواج لم يطل أكثر من أحد عشر شهرا .

وعانيت الوحدة شهورا فإذا بى أجد نفسى لا أطيقها على عكس حالى قبل الزواج، فالعزوبة قبل الزواج يمكن أن يحتملها الإنسان.. أما بعده فلا يستطيع احتمالها بنفس السهولة. وهكذا وجدت نفسى رغم أنى لم أنس زوجتى الراحلة ولن أنساها أحتاج إلى رفيقة حياة جديدة وأسعى إلى الزواج .

وتقدمت لأكثر من ثيّب وبكر فكانت شروطهن غير محتملة بالنسبة

لى وأهمها ترك طفلى كما هو فى بيت أسرة أمه مع تغيير الجهاز بالكامل .. إلخ. ورفضت أكثر من واحدة لهذا السبب وترحمت على زوجتى الطيبة الراحلة إلى أن فوجئت ببعض الأقارب يرشحون لى أخت المرحومة زوجتى، وهى آنسة فى سن السابعة والعشرين ولها نفس صفات وطباع زوجتى الراحلة ومتدينة ومطيعة وتحب ابنى ومرتبطة به لكنها أقل جمالا من زوجتى الراحلة، كما أنها لا تعمل وإن كانت تحمل دبلوم التجارة دفعة ١٩٨٥ وأنا مازلت حديث العمل وأخشى ألا يفى مرتبى وحده بتكاليف الحياة الزوجية بعد سداد أقساط زواجى الأول وإيجار الشقة.. نعم إنها قد ترضى بظروفى وتربّى ابنى ولا تشترط علىّ تقديم شبكة أو تغيير الجهاز كما تفعل الأخريات، لأن أسرتها صعيدية ولا تهمها هذه الأمور المادية، وأنا أكنّ لها كل احترام وأقدر مزاياها، لكنى أقف مترددا أمام مشكلة عدم عملها ، وأمام مشكلة «قلة الجمال» لديها. فبماذا تنصحنى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ظروفك الإنسانية يا صديقى لا تسمح لك بترف التردد طويلا أمام هذا الاختيار. فهو الاختيار المثالى لك بل لعله أيضا الحل الإلهى العادل لمشكلتك ولمشكلة طفلك الرضيع اليتيم.. فأنت سوف تضطر عاجلا أو آجلا إلى ضمه إليك وسوف يحتاج إلى أم بديلة ترعاه وتعوضه عن

أمـه الراحلة.. وكل من تحدثت معهـا بشأن الزواج لم تقبل برعـايتـه أو ضمه إليها بعد الزواج، ناهيك عن الشروط المادية التى لا قبل لك بها .

وفى وسط هذه الظروف غير المواتية تلوح لك فـرصة نادرة للاقتران بشقيقـة زوجتك الراحلة وهى آنسة فى السـابعة والعشرين من عمـرها وترعى طفلـك الآن بالفعل وتعتبر نفسهـا مسئولة عنـه .. ولن تكون رعايتها له بعد الزواج سوى استمرار لمسئـوليتها الإنسانية والعائلية عنه كما أنها لن تطالبك إذا تزوجتك بتجديـد الأثاث ولن تكلفك من أمرك رهقا، فما وجه التردد إذن أمامها ؟!

إنها لا تعمل !.. ولا مـرتـب لها !.. ومـرتبك وحـده قـد لا يكفى لأعبـاء الحياة بعـد الزواج ؟ إن الواضح أنها كشقيقتهـا الطيبـة الراحلة تقنع بالقليل وستقـدر ظروفك ولن تزيد من تكاليـف حيـاتك فى هذه المحـافظة النائية، بل لعلهـا ستقلل منها بحسن تدبيرها لحيـاتك. وفترة سـداد الأقسـاط مهما طالت فلن تطول عن عـام آخـر على الأكثر أو عـامين. ولا شك أنك تستطيع أن تتحمل جفـاف الحياة خـلالهما إلى أن ينقضيا.. ولعل «زوجتك» تكون قد وجـدت خلالهما عملا فى محافظتك النائية.. أو لعل الله يجعل لك من أمرك يسرا بطريقة أخرى .

وأنت تقول لى فى رسـالتك إنك كنت «تذوب خجلا» وأنـت تأخذ من زوجتك الراحلة مـرتبها كـل شهر.. لأنك تعـرف أن الرجل ملزم

شرعـا بالإنفاق على زوجتـه ومسئول عن ذلك مسئولية كـاملة.. فلماذا تتردد إذن أمـام هذه الفتـــاة لمجـرد أنها لا تعمل ولا مـــرتب لها ؟ إننى أعرف أن ظروف الحياة قاسية.. وأن تعاون الزوجين مطلوب ومندوب لتيسير ظروف الحياة، ومـع ذلك فإنى قد أسترجع أحيـانا كلما «تشدد» أحد فى مسألة الزوجـة أو مرتبها أو مـالها كشرط هام لديه قبل الزواج، أقول إننى أسترجع قول أمير المحدثين سفيان الثورى :

«إذا تزوج الرجل المرأة وقـال : أى شـىء لها؟ فـاعلمـوا أنه لص» ! يقصد بذلك لأنه لا يطلب الزواج فى حد ذاته، لكنه يطلب المغانم.

ولست أتصورك كذلك أبدا وأنت أب مكافح وأمين وسيىء الحظ، فقـــد أردت لنفسك السعــــادة فى أضيق الظروف، فإذا بـك تحرم من أسبابها بعد أقل من عـام من زواجك. إذن ماذا يبقى من أسباب ترددك أمامهـا ؟ «قلة الجمال لديها»؟ والحق أننى لا أرى مبررا لترددك أمام هذا السبب وقد خبرت أنت نفسك بالتجربة العمليـة أن الجمال ليس عاملا أسـاسيـا ولا هامـا فى تحقيق السعـادة الزوجيـة، وأن مـا يحققهـا حقـا ويحفظها هو جمال الروح والطبع والخلق والدين وليس جمال الشكل ..

إن «جمال الشكل» هو آخر وأتفه أسباب السعادة الزوجية، ولعله فى كثير من الأحيـان يكون من أسبـاب عـــدم استقـرار الزواج وليس من أسباب نجاحه ودوامه ..

ولعل هذا هو السر فى ذلك التعبير الفرنسى الطريف الذى يصفون به المرأة.. فيقولون عنها « إنها عقل جميل»! وليست جسدا جميلا.. ولا وجها جميلا.. لأن العقل الجميل وحده هو الذى يسعد به الزوج ويجعل حياته مع زوجته رحلة آمنة ميسورة إلى أن تبلغ شاطئها .

أما «الوجه الجميل» بلا عقل جميل ولا طباع جميلة فهو أسرع الطرق إلى الشقاء والتعاسة، فإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا تتردد أمام هذه الفتاة الطيبة التى أرادت السماء أن تعوضك بها عن مأساة زواجك القصير ووليدك الذى حرم من أمه بعد لحظات من ولادته ؟!

* * *

الشىء الفظيع

أنا وزوجتى قاربنا سن المعاش وننتمى للأسرة المتوسطة التى تحرص على القيم والتقاليد والفضائل الحميدة وتعرف ربها حق معرفته.. ولقد أنعم الله علىّ بنعمه التى لا تعد ولا تحصى، فعشنا حياتنا الزوجية فى توفيق وسعادة وأنجبنا ثلاثة أبناء بنتين وولدا وحيدا، وشغلنا أعلى المناصب المحترمة فى المجتمع، ورعينا أبناءنا حتى تخرج الابن الأكبر وهاجر لاستكمال الدراسات العليا والعمل فى إحدى الدول منذ ثلاث سنوات، وتخرجت الابنة المتوسطة وعملت بوظيفة محترمة.. وواصلت الصغرى دراستها الجامعية بنجاح.

وقد تقدم لابنتى الوسطى شاب حديث التخرج من أسرة طيبة ومتكافئة معنا فى الوضع الاجتماعى. لكن إمكانياته المادية ضعيفة ولم تستطع أسرته مساعدته ماديا فى الزواج لظروف اضطرارية، ولأننى أؤمن بأن السعادة الزوجية لا تصنعها الإمكانات المادية بقدر ما

يصنعها الحب والتفاهم والتكافؤ بين الطرفين، فقد رحبت بهذا الشاب وسعدت به خاصة بعد أن لمست رغبة ابنتى فيه ، فساعدته ماديا على إتمام الزواج وقدمت له كل التسهيلات الممكنة. وتم الزواج بعد قصة حب نمت وتعمقت تحت أعين الأسرتين، وفى إطار العفاف والتقاليد المرعية، وسعدنا جميعا بهذا الزواج الذى جمع بين شابين يتبادلان الود والتفاهم والاحترام، واعتبرَنا هذا الشاب بمثابة أهله ولم يبخل فى التعبير عن افتخاره بنا وبزوجته الجميلة المثقفة .

واستمرت مساعدتى لابنتى بعد زواجها بالرغم من دخلها المعقول، فقد أحببت زوجها واعتبرته ابنا لى كما أنى أقدر وأفهم ظروف الحياة الصعبة بالنسبة لشابين فى مقتبل حياتهما، ومضى عام على زواج ابنتى فى سلام وسعادة.. ثم بدأت فجأة ألاحظ ذبولها وحزنها، وألاحظ أيضا أن زوجها الذى كان يتعامل معها برقة واحترام قد بدأ يسىء معاملتها أمام الجميع بلا سبب واضح، وهى تتحمل ذلك وتخفى عنا مشاكلها وترفض طلب مساعدتنا لها فى حلها بحجة أنها قادرة على ذلك وحدها وتفهم شخصيته أكثر من أى إنسان آخر، ولم أشأ التدخل بين ابنتى وزوجها على غير رغبتها وفضّلت هى أن تلجأ إلى والدىّ زوجها وهما شخصان فاضلان ويحبانها كثيرا ، فحاولا التدخل بينها وبين ابنهما لكنهما لم يتوصلا إلى نتيجة مرضية معه .

ثم نضب معين قـــدرتها على التحمل ذات يوم فـــرجعت إلى بيتى حاملة طفلها الوليد وهاجرة بيت الزوجية ومصرة على طلب الطلاق.. وبدأت تحكى لنا لأول مرة عما تحملتـه من تغيره المفاجىء بعـد عام من الزواج، ومن إهماله لها ولطفلهـا ومحاولاته المستمـرة لاستفـزازها كأنما يرغب فى تنفيرها منـه وإجبـارها على هجـر عش الزوجيـة.. وكيف حاولت الإصلاح وصبرت على سوء معـاملته لها، وكيف ذكرته بالحب القديم ولم يُجد ذلك فتيلا فى تحسين معاملته لها .

وتعـاطفت أنا وزوجتى معها ولم نحـاول لومهـا على طلب الطلاق تاركين للأيام أن تهدىء نفسهـا بعـد حين، وبقيت ابنتـى فى بيتى ثلاثة أسابيع بغير أن يحاول زوجها الاتصال بى ليسأل عنها أو عن طفله.. أو حتى ليشكوها لى وأنا من كـان يعتبره من قبل بمثـابة والده.. وتعجبت لذلك وتصورت أنه فى خجل شديد من نفسه ويتحرج من أن يواجهنى بما فعل مع ابنتى بلا سبب واضح .

وظل الموقف مجمـدا على هذا النحـو إلى أن بلغـه عن طريق أهله أن ابنتى تصر على طلب الطلاق منه، وأننا لا نعـارضها فيه بعـد أن أعيتها الحيل فى فهم أسباب تغيره وإصلاحه. فاتصل بى أحد أقاربه وأبدى لى رغبتـه فى إنهاء الخلاف بين ابنتى وزوجهـا مشترطا فى ذلك أن يقتصر

الحساب والعتاب والمناقشة على الزوجين وحدهما .. وألا نشارك نحن فى جلسة الصلح، وأن ندعهما لنفسيهما ليصلحا ما بينهما بغير تدخل من جانبنا .

ورغم استنكارى للطلب إلا أننى أردت ألا أقف فى طريق الصلح بين ابنتى وزوجها، وفسرت ذلك بحرج هذا الشاب من مواجهتى ووافقت على أن يأتى إلى البيت مع قريبه هذا وأن يجلسا فى الصالون مع ابنتى بعض الوقت، ثم يرجعا إلى بيتهما دون حساب ولا مراجعة من جانبنا له فى شىء. وجاء بالفعل واصطحب زوجته إلى بيته، ولم يتجاوز الحديث بيننا خلال هذه الزيارة عبارات التحية والمجاملة المعتادة .

وتنفست وزوجتى الصعداء بعودة المياه إلى مجاريها بين ابنتى وزوجها، لكن فى نفس الليلة فوجئت زوجتى بابنتى الصغرى تنفجر فى البكاء وتبكى بكاء مريرا.. وقبل أن أستكمل لك ما حدث منها أقول لك إن ابنتى هذه تختلف عن شقيقيها فى أنها ومنذ طفولتها متمردة وترفض النصح والإرشاد وتتجاوز أحيانا الحدود فى ردودها علىّ وعلى أمها. وقد كنا نرجع ذلك أحيانا إلى صغر سنها أو إلى أنها مدللة بعض الشىء لأنها الابنة الصغرى ونخفف من وقع هذا التمرد بالقول بأنها على شاكلة جيلها المتمرد، ونطمئن أنفسنا رغما عن ذلك بأنها فى النهاية أفضل من غيرها لأنها موفقة فى دراستها وتؤدى فروض

الصلاة والصيام، ونأمل فى أن تحد خبرة السنين والأيام من تمردها وجموحها .

ثم أرجع إلى القصة الأصلية فأقول لك إن ابنتى هذه بكت الليلة بكاء مريرا ففسرنا بكاءها بحزنها على حال أختها والطريقة التى رجعت بها إلى بيتها، وقد كنا نحن أيضا فى غاية الأسى لذلك، لكن بكاءها طال وتواصل بطريقة غير طبيعية.. ثم ارتمت فجأة على صدر أمها وطلبت منها أن تعفو عنها وتغفر لها ذلك الشىء الفظيع الذى ارتكبته وندمت عليه الآن أشد الندم.. وانخلع قلب أمها حين سمعت منها ذلك واستفسرتها عن هذا الشىء الفظيع.. فإذا بها تعترف لها بأنها على علاقة حب مع زوج أختها هذا منذ عشرة شهور، وأنهما كانا متفقين على الزواج بعد طلاقه لأختها، وأنه قد وعدها بأنه سوف يجد لها بعد تخرجها عملا فى مدينة أخرى وينتقل معها إليها ويتزوجها هناك بعيدا عنا بمجرد أن تبلغ سن الرشد !

وتوالت اعترافاتها لأمها كأنها لم تعد تحتمل أن تحبسها فى صدرها أكثر من ذلك، اعترفت لأمها أنها كانت تشجعه على الانفصال عن أختها وتطمئنه إلى أنها ستكون أمّا حنونا لطفلها منه، وأنها كانت تلتقى به فى الأماكن العامة فى نفس الوقت الذى كانت زوجته تشتكى فيه من انصرافه عنها وإهماله وسوء معاملته لها !

واستمعت زوجتى إلى اعترافاتها ذاهلة وباكية وعاجزة عن الكلام والنطق، ثم سألتها حين وجدت صوتها عما دعاها للاعتراف بكل ذلك «الآن» وليس من قبل، فأجبتها بأن ضميرها قد استيقظ وشعرت بفظاعة الجرم الذى ارتكبته فى حق أختها ونفسها وأبويها وأسرتها، خاصة وقد تأكدت من أنه لن يستطيع الاستغناء عن زوجته وطفله بدليل سعيه للصلح وإرجاع زوجته عن طريق هذا القريب.

واعترفت ابنتى الصغرى لأمها أيضا بأنها ضعيفة أمامه، لكنها أرادت أن تقطع على نفسها خط الرجعة معه بهذا الاعتراف، لكى تشرك أمها معها فى مقاومتها لهذا الضعف، ولكى تكون رقيبة عليها وتردها عن ضعفها إذا ضعفت أمام محاولاته مرة ثانية، وأنها تحتمى الآن بهذا الاعتراف بأسرتها ضد محاولاته الآثمة لاستمالتها من جديد، وسيكون هذا هو آخر عهدها بالتصرفات الشائنة إلى نهاية العمر.

ولك أن تتصور يا سيدى صدمتى فى ابنتى التى لم أقصر فى تربيتها وتنشئتها وتهذيبها حين أبلغتنى أمها بما عرفته منها فى تلك الليلة المشئومة.. لقد كدت أجن وأفقد صوابى.. وأرتكب جريمة أندم عليها فيما بعد، لكننى تماسكت حتى لا أزيد الطين بلة.. وكتمت غيظى وقهرى وألمى ورضيت ببلائى واختبار السماء لصبرى وإيمانى،

واستعنت بالصبر والصلاة وقراءة القـرآن طوال الليل على إعادة الهدوء لنفسى حتى أتجنب الفضيحـة الشـائنة لأسرتى وأتجنـب خـراب بيت ابنتى المتزوجة .

ثم اتفقت مع ابنتى الحقيرة المخـدوعـة هذه عن طريق أمهـا على أن تكتم هذه الكـارثة عن كل البشر وأولهم أختهـا المتـزوجـة من هذا الوغد.. وأن تكتم عنه اعترافهـا لنا بهذا الأمر، وأن تهدده بإبلاغنا به إذا حاول الاتصال بها مرة أخرى واستمالتها إليه .

وقـد حـدث ذلك بعـد أيام بالفعل واتصل بها محاولا شرح مـوقفـه وأسباب إعادته لزوجته، فصدته وأكـدت له أنها قد أفاقت من غيبوبتها السـابقـة وطلبت منه عـدم الاتصـال بها مـرة ثانيـة، وإلا أبلغت أبويها وأختها بذلك. فـانكتم اللئيم ولم يجد ما يرد به على تهديدها وتوقف عن الاتصـال بها بعـد ذلك، وأصبحت ابنتى الصغـرى تعيش الآن تحت رقابة متصلة من جانبنا لعدم ثقتنـا فيها، ولخوفنا الشديد من عودتها إلى ماكـانت عليه، وقـد منعناها بالطبع من زيارة بيت أختهـا، كما أوعزت لزوجتى أن تطلب من ابنتنا المتـزوجـة ألا تصطحب زوجها معهـا عند زيارتها لنا ، وبررت لها هذا الطلب بأنها وأباها مـازالا متأثرين بالطريقة التى اتبعها زوجها فى الصلح وإصراره على تجاهلنا .

وبالرغم من أن ابنتى الكبرى قـد تقبلت هذه الرغبـة من جـانبنا بلا اعتراض تقديرا منها لمشاعرنا.. إلا أننى بدأت أرى فى عينيها بعد مضى أسابيع على هذا الحال تساؤلات تبحث عن إجـابة أخرى مقنعة لنفورنا الشديد من زوجها، خاصة وقد أبلغتنا أنه قد رجع إلى سابق عهده معها ورجع للاهتمام بها وبطفلها وإلى حسن معاملته لها، وبالتالى فقد رجعت إليها سعادتها ولم يعد ينقصها إلا افتقادها للعلاقة الأسرية الحميمة التى كـانت تجمع بيننا وبين زوجهـا قبـل هـذه الأزمـة وافتقارها للزيارات العائلية الطويلة التى كانت تقضيها لدينا مع زوجها وطفلها.

وقد لاحظت عليها بعد فترة أنها قد بدأت تباعد بين زياراتها المنفردة لنا، ولا أعرف هل حدث هذا بإيعـاز من زوجها، أم أنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها مجاملة له حتى لا يتضـايق من كثرة زياراتها لنا وحدها.. إنه يعلم بالتـأكيـد أننا لا نـرغب فى زياراته لنـا «الآن» على الأقل، لكنه لا يعلم السبب الحقيقى لمقـاطعتنا له ويتصور أنه من آثار الخلاف السـابق بينه وبين زوجته .

وابنتى الكبرى ألمح فى عينيهـا ونظراتها المتـوسلة رغبتها فى أن تعيـد المياه إلى مجاريها بيننا وبينه لتصفو حياتها من منغصـات المقاطعة، وما قد تجره عليها من جدل مع زوجها بعد حين .

لكن كيف أعيد علاقتى بهذا الخائن لكل العهود والمواثيق والذى استغل صلته بنا وقام بإغواء ابنتى الصغرى وهى بمثابة شقيقته دون أن يفكر فى الفضيحة التى كان يمكن أن يتسبب فيها لأسرتنا وأسرته على السواء؟!.. وكيف يؤتمن مثل هذا الخائن على دخول بيتى مرة أخرى قبل أن تتزوج ابنتى الصغرى على الأقل ؟.. وكيف أضمن ألا يعاود محاولة إغوائها من جديد ؟.. صحيح أنها قد اقتنعت كما تقول وكما يبدو لنا بفظاعة الجرم الذى ارتكبته وأدركت عمق الكارثة التى كانت ستلحقها بأعزائها وبحياتهم .. لكن من يضمن لى عدم تكرار ذلك وعدم معاودته إغوائها وعدم استجابتها له مرة أخرى.. والشيطان كما يقولون شاطر ؟!

لقد تحدثت مع ابنتى بعد هذه الكارثة عن الحرام والحلال فذهلت حين اكتشفت ضحالة معلوماتها الدينية رغم أدائها للفرائض ، وندمت أشد الندم على أننا اعتمدنا فى تربيتها الدينية على ما تلقنه المدارس لأبنائنا من معارف دينية وحدها، فإذا بحديثى معها يكشف عن جهل فاضح بالحرام والحلال وما يباح وما لا يباح. وقد تحدثت إليها كثيرا فى ذلك وأرشدتها إلى ما يجب أن تقرأه وبدأت تقرأ فى الدين واعترفت بعد أن خطت فى قراءاتها بضع خطوات أنها كانت تعيش فى «جاهلية» شديدة .

وحيرتى الكبرى الآن يا سيدى هى مع ابنتى المتزوجة التى بدأت تتأثر بموقفنا المتشدد من زوجها.. وأريدك أن تشاركنى التفكير فى إجابة مقنعة لهذه التساؤلات :

هل أصارح زوج ابنتى بما علمت من أمره وأواجهه بأخطائه حتى يعلم السبب الحقيقى لمقاطعته ويتوقف عن الضغط على زوجته لإعادة العلاقة بيننا إلى سابق عهدها.. أو ليتوقف عن تكديرها بسبب موقفنا منه ؟

أم هل أصارح ابنتى الكبرى بالكارثة رغم علمى بالنتائج المؤكدة لذلك وهى انفصالها عنه ، وهذا ما لا أريده ولا أرضاه لها، خاصة بعد تحسن علاقته بها ؟

أم هل أستمر فى مقاطعتى له دون إبداء الأسباب الحقيقية لذلك، مما يظهرنى بمظهر المتشدد معه بلا سبب معقول، وقد يؤدى إلى غضب ابنتى الكبرى ويوغر صدرها ضدى وضد أمها لأنها لا ترى سببا مقنعا لاستمرار مقاطعتنا لزوجها ؟ .

أم هل أتحامل على نفسى وأعيد علاقتى به إلى سابق عهدها، وكيف سيكون شكل هذه العلاقة إذا رجعت وأنا أنطوى له فى أعماقى على احتقار شديد ؟!

إننى فى حيرة من أمـرى وأعلم تمامــا أن الوضع الحالى لا يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية.. فأرجـو أن ترشدنى للطريق الأمثل للتصرف مع هذا الشـاب الذى لم يرع حـرمـاتنا ولم يقـدر مسئوليتـه، وأن تدلنى إلى كيفيـة التعـامل معـه بما لا يهدم بيت ابنتى ولا يوغـر صـدرها فى نفس الوقت ضدِّى.. ولا يجبرنى أيضا كإنسان وكأب مجروح على ما لا أطيق أو أحتمل !!

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

تذكـرت وأنا أقـرأ رسـالتك الشـائكة هذه عبـارة غريبـة للشـاعـر الفرنسى الرجيم شارل بودلير يقول فيها: «إن أعظم إنجازات الشيطان هو أنه أقنع البشر بأنه ليس موجـودا فى الكون».. مع أنه أقرب إليه من حبل الوريد، ومع أن الإنسان مطالب بأن يجاهده طوال الوقت حتى لا يأسره ويضمه إلى رعايا مملكته اللعينة .

والواضح من رسالتك يا سيدى أن الشيطان قد حقق «إنجازا» آخر لا يقل «عظمـة» عن إقناع البشر بعـدم وجوده، حين قـارب بين ابنتك الصغـرى المتمردة منذ طفـولتهـا، وزوج شقيقتها الكبرى التى كـادت أسرتها تتهدم وطفلهـا يتشرد ، لأن اثنين من «الرعايا» قـد نسيا فى غفلة من الضمير والواجب الإنسـانى والعـائلى كل الاعتبـارات الجديرة

بالمراعاة والاحترام، ولم يريا سوى أنانيتهما وجموحهما ورغباتهما الشائنة متسربلة بدعاوى الحب والهيام والالتقاء بالنصف الصحيح الذى أخطأ الطريق إليه منذ البداية !

أليس هذا ما يبرر به الإنسان دائما خروجه على كل الأعراف والتقاليد والاعتبارات الإنسانية والعائلية حين «يفلسف» لنفسه اعتداءه على الحرمات التى لا يجوز له الاقتراب منها مهما كانت الظروف، ومهما كانت مكابدته للمشاعر الجامحة التى لا تعرف الحدود فى بعض الأحيان ؟.. إن المشاعر لا سلطان لأحد عليها .. وقد تنحرف بالفعل أحيانا إلى من لا ينبغى لها أن تتوجه إليهم.. لكن أين سلطان الضمير الأخلاقى على سلوك الإنسان؟!.. وأين الوازع الدينى الذى يكبح جماح المشاعر ويحبسها فى مكامن الصدور.. ويحاصرها إلى أن تذبل وتخمد وتلفظ أنفاسها بعد حين من مجاهدة النفس الأمارة بالسوء؟!.. إن هذا ما يسميه الشاعر الإنجليزى وليم بليك «بقتل الرغبة فى المهد» بدلا من معاناتها حين تتضخم وتتوحش وينفلت عيارها بالتسيب الأخلاقى والتبرير الزائف للأخطاء .

وهذا أيضا ما تحذرنا منه القيم الدينية ، حين تطالبنا بعدم تعدى الحدود المشروعة للعلاقة المتحفظة بين رجل وفتاة لا تربطهما صلة الرحم .

وقد غاب كل ذلك فيما يبدو عن ابنتك الصغرى يا سيدى، فأدى إلى هذه المحنة التى تكابدها أنت وزوجتك الآن والتى تهدد بترك ظلالها على علاقتك الأبوية بابنتك الكبرى، كما غاب أيضا عن ذلك الوغد الآخر الذى لم يتورع عن إغوائها أو عن الاستجابة لندائها.. وأيّا كان البادىء منهما ، فمسئوليتهما عن الخطأ واحدة، وكلاهما شريك فيه وينبغى أن يتحمل تبعاته كاملة .

فإذا كانت ابنتك الصغرى قد أفاقت من غيبوبتها فى الوقت المناسب، فهى للأسف لم تفق منها على صحوة ضمير كما قالت فى البداية، بل على انكشاف خداع ذلك الشاب لها ونقضه «لعهده» معها فى أن يمضى بالقصة إلى نهايتها المتفق عليها بالطلاق بينه وبين زوجته تمهيدا للارتباط بشقيقتها الصغرى.. لقد «خذلها» شريكها فى القصة المقززة ولم يصمد للنهاية ولم يقو على هدم أسرته وتمزيق طفله بينه وبين زوجته، فزالت غشاوة الوهم عن عينيها وتبدت لها الحقيقة سافرة .

إننى لا أشك فى صدق ندمها الآن على ما فعلت فلعلها قد ندمت بالفعل بعد أن تكشفت لها بشاعة ما كانت على وشك ارتكابه فى حق شقيقتها وطفلها وأبيها وأمها وكل أفراد أسرتها، لكنها لم تعترف فى البداية بدافع من هذا الندم وإنما بدافع القهر ومرارة «خذلان» شريكها لها، فأرادت أن تقطع ما بينها وبين هذا «الغادر» فضاعفت من خطئها

به بدلا من أن تصححـه.. وفجرت لكم هذه المحنة النفسيـة المؤلمة التى تعانونها الآن فى عـلاقتكم بها وبابنتكم الكبرى وبزوجها. ولقـد كانت تستطيع أن تقطع ما بينها وبين هذا الوغـد فى صمت وأن تردعه بمجرد تهديده بإبلاغ زوجته وأبويها بمحاولاته لتجـديد علاقته بها ، كما كانت تستطيع أن تصمد أمامه للأبد وتلتزم أخلاقيا معه فتعفيكم من مواجهة هذه المحنة .. لكنهـا لم تستطع أن تكبح جماح قهـرها «بخـذلانه» لها فكشفت كل شىء وزادت من تعقيـد هذه القصـة المزعجـة، ولم تأنف حتى الاعتراف لأمها بأنها كانت تحرِّض زوج شقيقتهـا عليها وتشجعه على الانفصال عنها و «تطمئنه» إلى أنها سترعى طفلها من بعدها.. فأى حضيض يمكن أن تتدهور إليه النفس البشرية أبشع من هذا الحضيض فى بعض الأحيان ؟!

إن المؤكـد أن هذه الابنة الصغرى كـانت تنطوى لشقيقتهـا الكبرى على بعض مشاعـر الغيرة والتنافس التى قد ترجع جـذورها إلى مرحلة الطفولة.. لكن من أين اكتسبت هذه القدرة التـدميرية البشعة لعلاقات الرحم والعلاقات الإنسانية بمثل هذه الخفة والرعونة ؟!

كيف كـانت تتصـور أن تحيـا حيـاتها إذا تزوجـت زوج شقيقتهـا وأقـامت سعـادتها الموهومة على أنقـاض تعـاسة أختهـا وشقـاء أبويها

وانزعاج أفراد أسرتها وأسرة زوجها بما حدث ؟!.. هل كانت ستحيا حياتها فى جزيرة مهجورة فى قلب المحيط لا تحتاج فيها إلى أهل ولا بشر ولا احترام أحد ؟!

يا سيدى إننى أشفق عليك مما كابدته وتكابده الآن بسبب هذه المحنة المؤلمة، وأرى لك أن تستمر فى مقاطعتك لهذا الرجل الذى لم يرع حرماتك وكاد يوردك ويورد ابنتك وأسرتك كلها موارد التعاسة والشقاء ليس فقط عقابا له على جرمه.. ولا حتى ازدراء له ولما فعل، وإنما أيضا حماية لابنتك الصغرى التى لا تضمن إذا ما رجعت المياه إلى مجاريها بينكم، ألا يحقق شيطان بودلير «إنجازا» آخر على حساب ضعفها ووهن التزامها الدينى ..

ومن مواقف الحياة ما لا ينبغى أن نتحسب فيه أمام اعتبارات الشكل الاجتماعى أو العائلى أو حتى لوم بعض الأبناء، إذ لا خيار لنا فيه سوى اتخاذ المواقف الصريحة ضد المخطئين.. غضبوا لذلك أو لم يغضبوا.. وفهم أعزاؤنا أسبابنا لذلك وقدروها أو لم يفهموها ولم يقدروها.. وفى ظروفك على وجه الخصوص فلأن تتحمل لوم ابنتك الكبرى وعتابها الصامت لك، خير لها ولك من أن تعرف هى السبب الحقيقى لمقاطعتك لزوجها، ليس فقط لأن النتيجة الحتمية لذلك هى الطلاق وتشريد الطفل الوليد ، وهو ما لا تريده لها، وإنما أيضا لأنه

سيكون من مضاعفات هذه النتيجة أن تفجع ابنتك الكبرى فى شقيقتها الوحيدة وزوجها وفى كل القيم والمبادىء الأخلاقية والعائلية والإنسانية، وأن يهتز أمامها كل شىء بقسوة وعنف وتفقد ثقتها فى الخير والبشر والعلاقات الإنسانية.

إن المنطق المادى المجرد يرفض إخفاء مثل هذه الكارثة عن ضحيتها، ومبرره فى ذلك أن من حقها وهى محور القصة أن تعلم بما يدور حولها، وأن الحقيقة مهما كانت مؤلمة خير من أى زيف لكى يكون لها بعد أن تعرفها حق الاختيار واتخاذ قرارها على مسئوليتها وبناء على المعلومات الصحيحة.

لكن هل نقدر نحن حقا على تحمل تبعات مثل هذا المنطق العملى المجرد، فنقطع بذلك ما بين شقيقتين إلى الأبد.. ونحرم طفلا وليدا بذنب أبيه المعجب بنفسه وخيلائه، وذنب فتاة متمردة لم تقدر العواقب، ولعلها كانت نزوة عابرة فى حياة كل منهما وأفاق منها راغما أو راغبا ؟!

إننى أرى لك يا سيدى ألا تزلزل حياة ابنتك الكبرى وقيمها ومثالياتها بهذه الصدمة القاسية فى شقيقتها وفى زوجها، وأرى ألا تحفل بلومها الصامت لك مقدرا أنها سوف تدرك ذات يوم بحاستها

السادسة أن الأمر أعمق من أن يكون مجرد غضب عابر لتجاهلك فى إجراءات الصلح، ولا شىء يضطرك لاستقبال هذا الرجل فى بيتك ومعاملته معاملة الابن مرة أخرى بعد أسابيع قليلة من جريمته التى لا تغسلها مياه البحر، فالأمر يتطلب زمنا ووقتا كافيين لنسيان الإساءات الجسيمة، وللاستعداد النفسى للتجاوز أو الصفح عنها، ولو اضطرتك الظروف ذات يوم لحضور مناسبة عائلية يتواجد فيها فقد تصافحه تجنبا للفت الأنظار، لكن لا يستطيع أحد أن يرغمك على أن تحبه أو تحتفى به أو تهلل لرؤيته وقد فعل ما فعل ، إلا بعد أن يكفر عنه تكفيرا كافيا وطويلا، وإلا بعد أن تذيب الأيام مراراته فى النفوس ..

فالله سبحانه وتعالى كما يقول الأديب العظيم مصطفى صادق الرَّافعى.. لم يخلق أحد مكروها، وإنما نبغض الناس من الصور التى يحدثونها ..

و «الصورة» التى أحدثها زوج ابنتك كفيلة بأن تفقده احترامك له وترحيبك به لفترة طويلة قبل أن تكون على استعداد للتعامل معه مرة أخرى.. فلا تواجهه بشىء إشفاقا على نفسك أنت من مثل هذا الحديث الجارح، وتأكد أنه قد فهم أو سيفهم بمرور الأيام السبب الحقيقى لموقفك منه، فإذا أراد أن يكفر عنه فليخلص لزوجته ويحسن معاملتها ويصبر عليك وعلى زوجتك إلى أن تصبحا على استعداد للتجاوز عن خطيئته .

ولن تهدأ مخاوفك من نـاحيـة ابنتك الصغـرى فى النهـاية إلا حين تتزوج وتدخـل فى عصمة رجل آخر يصبح مسئـولا عن حمايتها .. لهذا فـلا مجال للحـديث الآن عن إعـادة الميـاه إلى مجاريها بينكم وبين هذا الشـاب.. ولا مفـر من تحمل العتـاب الصـامت من ابنتكم الكبرى والصبر عليه وعلى تباعـد زياراتها إلى أن تتغير الأحوال.. ولله الأمر من قبل ومن بعد !

* * *

الحجر الثقيل

لا أعرف لماذا أكتب إليك رسالتى هذه ولا ماذا أريد منها؟!.. فلست أريد من ورائها شيئا سوى أن «أبوح» لك بما لا أستطيع أن أتحدث به إلى أقرب الناس إلىّ.. وأن أزيح عن صدرى وضميرى ثقله وعناءه، فأنا سيدة شابة فى العشرينيات من العمر ، ومن محافظة هادئة، وقد تزوجت منذ فترة من شاب وسيم متديّن وعلى خلق ومن أسرة كريمة معروفة فى بلدتنا، وكان أهم ما جذبنى إلى هذا الشاب هو طيبة قلبه وابتسامته الدائمة، إذ كان يوم زواجى منه هو أسعد أيام حياتى.. وعشت معه حياة جميلة لم يكن ينغصها سوى شىء واحد هو الفارق الاجتماعى الكبير بين أسرته
وأسرتى. إذ بالرغم من أنه لم يشعرنى لحظة بهذا الفارق ولا فعل ذلك أحد من أسرته الذين عاملونى جميعا بحب واحترام، فإنى كنت أشعر به فى أعماقى يا سيدى وطوال الوقت بلا مبرر واضح، وأقارن دائما بين

أسرته الكبيرة المعـروفـة فى بلدتنا والمحبوبة والثرية ليس فقط بمالها بل أيضا بشخصياتها من التجار الكبار ذوى الشهادات والوظائف الكبيرة، وبين أسرتى العادية البسيطة الخالية من مثل هذه النجوم اللامعة.. ومثل هذه المكانة الاجتماعية المحترمة.

ومع ذلك فقد مضت حياتنا هادئة فى مجموعها ورزقنا بأول مولود لنا بعد عام من زواجنا وسعدنا به كثيرا لكن الإحساس الملح بتميز أسرة زوجى راح يعاودنى من حين إلى آخر، فأكتئب وأتعرض لأزمات نفسية عابرة كان زوجى يقف معى فيها بصبر ويتكتمها عن أهله. ومع ذلك فكلما نشب بيننا خلاف عادى مما ينشب بين زوجين، كنت أطالبه بالطلاق وأتمسك به فيرفض متعجبا من الطلب، لأن بيننا طفلا، ولأن سبب الخلاف لا يستدعى هدم أسرتنا.

وكانت شخصية زوجى تتسم ببعض العصبية الزائدة التى سرعان ما تزول ويعود إليه هدوؤه وطيبة قلبه، فوجدت نفسى أبالغ فى الشكوى من هذه العصبية وفى تصويرها فى أبشع صورة، ثم تكررت الخلافات الصغيرة والصدام العابر وبدلا من احتوائها أو الصبر عليها بدأت أفكر فى أنه لا حل لحياتى معه إلا الطلاق، واختمرت الفكرة داخلى واستقرت وبدأت أمهد لها لدى أهلى بالشكوى المستمرة من زوجى ومن عصبيته.. فقوبلت شكواى منه باستنكار شديد ومقاومة

من جانب أهلى الذين كانوا يحبونه ويحترمونه لمواقفه النبيلة معهم .

وخاب مسعاى معهم واستشعرت أنهم لا يحتفلون بشكواى ولا يهتمون بها فبدأت ألمح لهم بأنه إنسان غير سوى ويفعل أشياء مقززة... إلخ، فإذا بى أجد آذانا صاغية لديهم لأول مرة وأجد اهتماما بما أقول .. وأراحنى ذلك فواصلت عملية إقناعهم والتأثير على فكرتهم السابقة عن زوجى، واستمررت فى ذلك وزوجى لا يعلم عما أفعل شيئا إلى أن وقع خلاف عابر جديد بيننا، فأحسست بأنها فرصتى لتنفيذ ما أريد وهجرت بيت الزوجية وعدت إلى بيت أسرتى . ومن هناك بدأت أشن حربا شعواء على زوجى وأسرته مع كل من أعرفه أو ألتقى به، حتى بلغ بى الحال - وأعترف لك بذلك - أننى زرت أسرا لم أكن أزورها من قبل ولا تربطنى بها صلات وثيقة تبرر هذه الزيارات لا لشىء إلا لأن هذه الأسر مرتبطة بشكل أو بآخر بزوجى وأسرته ويحسنون الظن بهم.. فأنتهز الفرصة بعد قليل وأحول مجرى الحديث بعد دقائق إلى الشكوى من زوجى وأسرته وكيف أنهم فى حقيقتهم ليسوا كما يظهرون أمام الناس طيبين وعلى خلق وفى حالهم ومحبين للخير... إلخ، وأروى عنه وعنهم قصصا منفرة.. وأكررها فى كل زيارة حتى بدأت أصدقها أنا نفسى من كثرة ما رددتها .

وزوجى لا يقابل كل ذلك بالإساءة إلىّ ولا برواية قصص مشابهة

حتى وجدت نفسى فى حاجة لأن أبرز هجومى المستمر عليه وعلى أسرته فاضطررت لأن أتهمه لدى أهلى زورا بأنه يروى عنى قصصا تسىء إلى كرامتى، وتمسك بى زوجى رغم كل ذلك حرصا على الطفل، إلى أن أتيت بأفعال لا يصح معها إلا الطلاق وعرضت نفسى لمواقف مخجلة للغاية فلم يملك إلا أن يطلقنى، وشعرت حين فعل ذلك بارتياح عجيب وكأن حجرا كان يجثم على صدرى ثم أزيح عنه بعد كفاح رهيب .

ومضت الشهور يا سيدى وأنا راضية عما فعلت لكنه لم تمض سوى فترة صغيرة، فإذا بإحساسى بالانتصار والزهو الذى تملكنى بعد الطلاق يتراجع شيئا فشيئا حتى تبخر تماما قبل أن يكتمل عام واحد على طلاقى، وإذا بى أحس بإحساس غريب بالحزن الشديد على ما فعلت بزوجى وحياتى وطفلى، وإذا بى أشعر بتأنيب ضمير فظيع تجاه هذا الإنسان الذى سعيت بكل الطرق لتشويه صورته فى نظر الجميع وتحطيم مستقبله، وبتأنيب ضمير أشد مرارة تجاه طفلى الذى حرمته من حياة هانئة وأب حنون.. ولست أكتب لك رسالتى هذه لأبحث عن حل لمشكلتى فأنا أعرف جيدا أننى قد دفعتها بيدى إلى الطريق المسدود، ولكنى أكتبها إليك لأزيح عن عقلى وقلبى وضميرى حجرا ثقيلا وهمّا يكاد يقتلنى ولا أستطيع البوح به لأحد حتى أقرب الناس

لى، إذ ماذا سيقولون عنى لو صارحتهم بما أشعر الآن بعد كل ما فعلت وما حكيت ؟! وأريد أن أسـألك فى النهاية يا سيدى.. مـاذا أفعل لكى أريح ضميرى تجاه هذه الإنسـان لكى أنعم بـراحـة البـال بعـد كل مـا حدث وما فعلت ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقو ل:

سيظل هذا الحجر الثقيل معلقا برقبتك يجذبك معه بعنف إلى الهاوية السحيقـة ويحرمك من راحة البـال والضمير.. وقد يسلمك فى النهـاية بعد مرارة الإحساس بالذنب إلى شبح الاكتئاب النفسى المرير .. إلى أن تفكى أسرك منه وتنـزعى قيـده عن رقبتك، ولن يتحقـق لك ذلك إلا برفع هذا الظلم الذى حاق بزوجك ونال من كرامتـه وسمعته واعتباره لدى الآخـرين عن طريـق الاعتراف للجميع بزيف افتراءاتك عليـه وبراءة سـاحتـه من كل مـا نسجت عنه من قصص مـزرية بشخصـه وكرامته !

هذا هو الطريق ولا طريق سـواه يا سيـدتى للتطهر من جـرائمنا فى حق الآخـرين والتكفير عنهـا ، فـالتطهر مـن أخطائنا فى مَن أخطأنا فى حقهم لا يتحقق لنا بمجـرد الإقـرار بها وبيننا وبين أنفسنا، وإنما نكفـر عنها حين نرفع عنهم ما حاق بهم من ظلم بسبب افترائنا عليهم، وحين نمتلك الشجاعة النفسية والأدبية التى تتيح لنا ألا نكتم شهادة الحق فى

شأنهم.. وألا نتقاعس عـن نفى كل ما ادعيناه عليهم وأمـام من أجهدنا أنفسنا من قبـل لتشـويه صـورتهم لـديهم، وحين نتقبل راضين تحمل تبعـات العـدول عن مـوقفنا الظـالم لهم مهما تعـرضنا بسبب ذلك لِلَوم الآخرين أو حسابهم، فلكل خطأ ثمن لابد أن نقبل بدفعـه صاغرين إذا كنا نرغب حقا فى إبراء ذمتنا من إثم الإسـاءة للآخرين وظلمهم، بل إن الأمانة تطالبنا بألا نتوانى أيضا عن الاعتراف بالخطأ لمن أخطأنا نحن فى حقه وعن طلب صفحه وعفوه عنا، فإذا سخا علينا به أملنا بعد ذلك فى عفـو السماء عما فعلنا، وإذا حجب صفحـه عنا أملنا فى أن ننال بصدق الندم وكثـرة الاستغفار عفـو من تغلب رحمتـه غضبه سبحـانه، فراحـة الضمير والسلام النفسى جائزة كبرى لا ننالها بمجرد الأمنيات العاجزة أو الاعترافـات السرية.. وهى جـائزة تستحـق ما نبـذله فى سبيلهـا من جهد وما نتحمله من أجلها من عناء .

ولسـت أدرى أى روح شريرة تسلطـت عليـك ودفعتك إلى تـدمير أسرتك وحرمـان طفلك من أبيه ومن الحيـاة العائليـة المستقرة على هذا النحو العجيب ؟!.. كما أنى لا أصدق فى الحقيقة أن إحساسك بالفارق الاجتماعى بين أسرتك وأسرة زوجـك يمكن أن يكون سببـا مقبـولا لسعيك بعـد فترة قصيرة مـن الزواج لهدمـه سريعـا هكذا. فـالفـارق الاجتماعى بين الطرفين - وإن كـان أحـد العـوامـل المؤثرة بالفعل فى

نجـاح الزواج - إلا أنه لا يحقق هذه النتيجـة المزعجـة على هذا النحـو العـاجل وبغير أسبـاب جـادة تأتى غـالبـا من جـانب الطرف الأرقى اجتماعيا، وليس من جانب الطـرف الآخر، وأنت تقولين لنا إن زوجك لم يشعرك بهذا الفـارق لحظة منذ زواجكما ولا أسرته فعلت ذلك أيضا، فكيف يكون إحساسك بهذا الفارق كافيا لدفعك لهدم هذا الزواج ؟

إن الفـارق الاجتماعى قـد لا يكون له تأثير خطير على الزواج إذا لم يشعر به طرفا العلاقة شعورا مـرَضيا مغاليا فيه وينعكس على تصرفات أحدهما تجاه الآخـر.. وهكذا فإنى أكاد أتصـور أنك لم تقعى فى «غرام» زوجك الشـاب الوسيم لحظة واحدة منـذ البداية، ولم يكن اختيـارك له قائما على أساس من الحب والعاطفـة، وإنما على أساس اعتبارات أخرى .. وحين بدأت حيـاتك الزوجيـة معـه انطويت تجاهه وتجاه أسرته على إحساس مـرضى بالنقص والدونية وهو إحسـاس غير سوى لا يسمح للإنسان بأن يتعامل مع شريك حياته بطريقـة طبيعية، وقد يدفعه أحيانا إلى أن يتسم سلوكه معه بالتحدِّى والعـدوانية لتعويض النقص وإثبات الجدارة والكفاءة .

وقـد يتسم هذا السلوك بالمغـالاة فى استشعار الإهانة أو الإسـاءة فى أى تصرف عابر فيتصرف مع شريك حياته بحسـاسية زائدة.. ويتأهب نفسيا دائما لدفع ما يتصوره انتقاصا لقدره أو شأنه، فتتسمم الآبار التى

يشرب منهـا الزوجان ويكثـر سوء الفهم والتشـاحن بينهما، فإذا أضفنا إلى ذلك عصبيـة زوجك الشـاب وصغـر سـن كل منكما فهمنا لماذا تحطمت صخـرة الزواج سريعا على هـذا النحو، وربما فهمنا أيضـا لماذا تفننت فى محاولة هدم صـورة زوجك الطيب وصـورة أسرته فى أعين الآخـرين، كأنما كنت ترغبين بذلك فى أن تقولى لنفسك وللآخـرين أن المكانة الاجتماعية ليست دائما دليلا على رفعـة الشأن ولا كرم الأخلاق فتشعـرين بـذلك ببعض الـرضـا لأن الهوة بينكما ليست كبيرة كما تتصـورين، والحق أنها لم تكن كبيرة إلى هذا الحد، ولا كان هذا الفـارق الاجتماعى مبررا كافيا لهدم أسرة صغيرة اختـار طرفاها كل منهما الآخر بإرادته وأنجبا طفلا صغيرا ينبغى توفير الرعاية والأمان له.

لكنها صغائر النفوس ومغـالاتها فى الإحساس بالفوارق التى قد لا ترى أحيانـا بالعين المجردة، وهى أيضا صراع الإرادات فى بـداية الحياة الزوجيـة الذى لم يصـادف عقـلا راجحـا لديك ولا صبرا كـافيـا لدى زوجك .. فكانـت هذه النهـاية المؤسفـة. وفى ظنى أنـك حتى وأنت تتمسكين بالطلاق وتطوفين بـالأسر الصـديقـة لكى تشـوهى صـورة زوجك وأسرته، إنما كنت ـ رغم مـا يتضمنه هذا السلوك من تعـويض نفسى خفى لإحسـاسك بالنقص تجاه زوجك ـ غير راغبـة فى قطع كل الخيوط نهائيـا بينك وبين زوجك حتى ولو انتهى الأمر بطـلاق مؤقت بينكما ، وأنك كنت تـرغبين كما يفعل البعض أحيـانا لـلأسف فى دفع

الأمور إلى حافة الهاوية، لكى يمكن إعادة «صياغة» الحياة الزوجية بعد فترة من الانفصال على أسس جـديدة ترينها أكثر عدلا وأكثـر تحقيقا لما يرضيك من زوجـك . لكن لأن من يدفع صخـرة بكل قـوته فى اتجاه المنحدر كثيرا ما يعجـز فى اللحظة الأخيرة عن إيقافها قبل أن تهوى إلى الهاوية السحيقة، فقد عجزت أنت أيضـا عن إيقافها فى الوقت المناسب فهوت من حـالق وأصبح الأمل فى إعادتها إلى القمة من جـديد غاية فى الصعـوبة، ووجـدنا الفرصـة لكى نتأمل تصرفـاتنا الماضيـة ونكتشف أخطاءنا ونقـر بها.. إذن فلنأمل الآن فى شجاعتك الأدبيـة فى الاعتراف بالخطأ ورفع الظلم عن والـد طفلك، ولنأمل فيها بعـد فى تأثير الزمن.. وفى قـدرته الساحـرة على شفاء النفـوس ونسيان الآلام والتقـريب بين المتباعدين !

❊ ❊ ❊



الاتفاق الصامت

فكرت منذ فترة طويلة فى الكتابة إليك، إلى أن وقعت فى يدى بالمصادفة رسالة قديمة نشرت فى هذا الباب بعنوان: «الفراش الخالى»، فتأثرت بقراءتها كثيرا وبكيت بكاء حارا وتعجبت من أن تكرر الحياة قصتى مرة أخرى مع غيرى من البشر . فأنا أيضا يا سيدى الفتاة التى تحملت وزر أبيها فى نظر أمها ودفعت من أجل ذلك ثمنا باهظا من سعادتها. فقد نشأت فى بيت آيل للسقوط ليس من الناحية المعمارية، وإنما من الناحية الأسرية والإنسانية.. ووجدت نفسى أحيا بين أبوين متعلمين ويشغلان وظائف مرموقة، ويتبادلان البغض والكراهية بدلا من المودة والرحمة، وكانت أمى تعطف على شقيقى الأكبر وتخصه بحبها وتدليلها، وكان أبى يعطف علىّ ويدللنى ولا يرفض لى طلبا، فما إن يخرج من البيت حتى تنفجر أمى وتنفس فىَّ أنا كل مشاعرها العدائية تجاه أبى وتسبنى وتنعتنى بالكذب والتمثيل مثل عمتى ! وتهددنى بالويل والثبور إذا شكوت

لأبى أو أبلغته بشىء مما تقوله لى، وحين بلغت السـادسة من عمرى كنا قد أصبحنا أربعة أبناء، وانضمت إلى قـائمة السعداء المفضلين عند أمى أخت تصغـرنى وأخ آخر أصغر، بـالإضافة إلى الأخ الأكبر المميـز منذ البـداية. أمـا أنا فبقيت المنبوذة والمكـروهة من أمى بلا سبب واضح فى ذهنى كطفلة، سـوى أن أبى يحبنى ويعطف علىّ ويدللنى وكأنـه كـان يستشعر نفور أمى منى ويحاول أن يعوضنى بحبه عنه .

ولم يمض وقت قليل حتى انهار البيت الآيل للسقـوط منذ البـداية، ووقع الطلاق ورحل أبى عن مسكننا وعن مدينتنا أيضـا إلى مكان آخر غير معلوم بالنسبة لى ، وبرحيله أدركت فيما بعد أنه قد رحلت معه آخر حقوقى كابنة لم تبلغ العاشرة بعـد من عمرها، فلقد راحت أمى تخصنى وحدى دون كل إخوتى بالشاق والمضنى من أعمال البيت، وأصبح من حق أخى الأكبر أن يجعلنى فى خـدمتـه فى أى وقت من الليل أو النهـار وسـواء أكنت نائمــة أم مستيقظة، وإذا اعترضت على ذلك أو تشكيت انهال علىَّ ضربا وركلا وسبا وأمى تنظر إلينا فى هدوء دون أن تردعه أو تحمينى منه . وإذا مــرضت فـلا عطـف ولا حنان من جــانب أمى وشقيقى.. بل ولا بأس أيضا بالتهكم علىّ واتهامى بادعاء المرض لأننى قـد ورثت الكذب والتمثيل من عمتى. أما بين صـديقاتى فـلا تنادينى أمامهن إلا بيا بنت «...».

وأذكر أننى قد مرضت ذات يوم بالتهاب شديد فى اللوزتين وارتفعت حرارتى وتورم جانب من وجهى، ومع ذلك فقد طلب منى شقيقى أن أغسل له حذاءه الرياضى فرفضت وقلت إننى مريضة، فانهال علىَّ ضربا بالخرطوم وأنا أبكى وأتوجع وأستعطفه بلا فائدة حتى تحاملت على نفسى وغسلت حذاءه الرياضى، وأمى جالسة تتفرج ولا تتدخل ولا تتكلم .

وجاءت إحدى الجارات لزيارتنا وأنا مازلت أبكى فسألت أمى عما يبكينى، فأجابتها ساخرة كالعادة : لا شىء سوى أنها مدمنة كذب وتمثيل كعمتها ! فلم أتمالك نفسى ووجدتنى أنفجر فى أمى بعد طول صبر وأمسك بكفها وأضعها على وجهى لتجس حرارتى وأقول لها : نعم أنا كاذبة وممثلة كعمتى. لكن كيف يرفع التمثيل حرارتى ويورم وجهى هكذا ! ثم غبت عن الوعى، لا أدرى هل من شدة الانفعال.. أم من شدة الحمى والضعف ؟ وكان آخر ما سمعت قبل أن أفقد الوعى هو صوت جارتنا وهى تقول لأمى بصوت باك : حرام عليك إنها ابنتك .. ما ذنبها؟!. إلخ .

ولم تجد أمى مفرا من اصطحابى إلى مستشفى عام لعلاجى، وليس إلى طبيب خاص فى عيادة كما تفعل مع إخوتى، ومع ذلك فلم يحدث مرة أن أعطتنى الدواء الذى وصفه لى طبيب المستشفى، وإنما كنت أنا

ابنة العاشرة من عمرى التى أتناولـه فى مواعيده بانتظام لأنى إن لم أفعل فلن يهتم بأمرى أحد، ومع استمرارى فى نفس الوقت فى أعمال السخرة المنزليـة لأن أختى الصغــرى رفضت أن تقـوم بنصيبى فى أعمال البيت خلال فترة مرضى .

ومضت بنا الأيام واستقر وضعى على هـذا النحو فنشأ أختى وأخى الصغيران على معـاملتى أيضا كخـادمة للأسرة، ولا غـرابة فى ذلك فأنا الوحيـدة من بينهم التى تقـوم بمعظم الأعمال المنزليـة ولا يحق لها شراء أية ملابس جـديدة، وإنما ترتدى ملابس أمهـا المستهلكة أو ملابس ابنة خـالتها القـديمة حتى أصبح مظهـرى كمظهر شغـالة صغيرة بين ثلاثة أبناء أصحَّاء مدللين ويرتدون الجديد والغالى من الثياب !

أما أبى فلم يظهر فى حياتنـا مرة أخرى إلا بعد سنوات وحين بلغت الرابعـة عشرة من عمـرى، وقـد تألم كثيرا لمظهـرى وحـالتى الصحيـة وسألنـى : لماذا لا تهتمين بنفسك كما تفعل الفتيـــات فى مثـل سنك ؟ واحتضننى بحنان فشعـرت بإنسانيتى وبكيت حتى ارتويت، وحـدثنى برفق عن التغيرات الفسيـولـوجيـة التى تحدث للفتـاة فى مثل عمـرى، والتى لم تحدثنى عنهـا أمى، ولا اهتمت بذلك فتركتنى فريسـة للخوف والقلق بسببهـا.. وحـــدثنى عن ضرورة اهتمام الفتـاة فى مثـل عمـرى بمظهرها وبما يتلاءم مع سنها.. ونفذت نصائح أبى الغالية فى سريّة وفى

حدود المتاح لى حتى لا أتعـرض لسخرية أمى التى لا تنفك أن تقول لى أمـام الجميع إن الله قـد حـرمنى من كل الصفـات الجميلة فى الشكل والجوهر ووهبها لأختى الصغرى . ومع أن كل زميلاتى كن يشهدن لى بأنى أجمل منها، ولم يظهـر أبى بعد ذلك فى حياتنا سـوى ٤ أو ٥ مرات، كنت أتعـرض بعد كل مـرة منها لسخط أشـد وسوء معـاملة أفظع من أمى بلا سبب واضـح، وقـد استقـر بينـى وبينهـا اتفـاق صـامت غير مكتـوب هو أننى وحـدى مـن بين إخـوتى ليـس من حقى أن أطلب لنفسى شيئا، وإذا مرضت فلا ينبغى أن أزعج أحدا بمرضى وتأوهاتى، وإذا نوديت لأداء أى عمل لأحد من إخـوتى فعلىّ أن أترك ما بيدى من دراسة أو مذاكـرة وأهب لتلبية النداء مهما كان نوعه بما فيـه مسح حذاء أخى الأكبر ووضعه تحت قدميه .

وقـد علمتنى الحيـاة يا سيـدى أن أتعـامل مع واقعى بصبر وكتمان للمشاعر، بل وادعاء عكسها أيضا عند الضرورة حتى أتجنب المزيد من المتاعب، فلا أفصح عن مشاعرى الحقيقية إلا حين يرجع أبى من سفره لزيارتنا لأيام قليلة وقد حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير رغم كل شىء.. وكـالعـادة اختـارت لى أمـى بالاشتراك مع شقيقى الأكبر الكلية التى ألتحق بها دون أى تشاور معى ولا عجب فى ذلك لأنه ليس لى الحق فى إبداء رأيى فى أى شـىء، وكـانت إحـدى الكليـات القليلة المتاحة فى مدينتنا توفيرا للنفقات .

أمـا أختى الصغرى فقـد حصلت على الثانـوية العامـة بعدى بعـام واختارت بنفسهـا دراستها الجامعية، فكان التحاقهـا بالجامعة رحمة من السماء لى، لأنه قـد أتاح لى أن أرتدى من ورائها بعض الملابس اللائقـة، وظل أملى يتركـــز فى أن أتخرج فى كليتى وأن أذهـب لأبى لأرتمى فى أحضانه وأقبّل يديه وأبلغه بنجـاحى وأطلب منه ضمّى إليه، ليس لأنه أب عظيم وإنما لأنه أبى ويحبنى.. ويشعـرنى وهو الأهم بحبـه لى، لكن القـدر لم يحقق لى هذه الأمنية الغـاليـة للأسف، وتوفى أبى - رحمه الله - وأنا مـازلت طالبة بالجامعـة ودون أن أخبره بالسبب الحقيقى لامتناعى عن مراسلته فى البلد الذى كـان يعيش فيه، وهو أننى خشيت أن أطلب عنوانه من أمى فأجـدد لديها ذكـرى «جـريمتى» عندها، وهو أنه يحبنى فيزداد العقاب ويتضاعف سوء المعاملة.

ولقـد عـوقبت على أية حـال من أمى وأخى الأكبر لأنى بكيت أبى عند وفـاته، وفشلت فى إقناعهما بأن الابن لا يحتـاج إلى «سبب معين» لكى يحزن على رحيل أبيه عن الحيـاة إذ يكفى أنه أبوه، ولولا أننى كنت قد تعلمت أن ألجم لسانى اتقـاء للأذى لذكَّرت أمى بما فعلت بى طوال السنوات الماضيـة وسألتها: هل يـدعونى ذلك إلى ألا أحـزن عليك إذا رحلت عن الحيـاة بعـد عمـر طويـل ؟ لكنى كما قلت لك كنت قـد «تدربت» على اتقـاء الأذى فلم أصـارحهـا بما فى خـاطرى، بل

واضطررت أيضـا أن أدعى أمامهـا أننى مـا بكيت على أبى إلا من تأثير المفاجأة !

وتعودت بعـد ذلك على ألا أبكيه إلا وحدى، ومع ذلك فلقـد فرح أخى الأكبر بميراثه عن أبيه وكذلـك فرحت أمى.. وكعادة أخى الأكبر فى الاستهتار، فقـد أنفق نصيبه فى لا شـىء، وعندما أراد أن يبـدأ عملا خاصا به بعد التخرج كان حتما علىّ أن أتنازل له «راضية» عما يخصنى فى الميراث وإلا تنازلت له عنه راغمـة ومع مـزيد من المشاكل، فـآثرت أن أتظاهر بتصـديق حكاية القـرض الحسـن هذه وأنه سـوف يردّه لى عند زواجى، وفعلـت ذلك حتى أستطيـع أن أنهى دراستى الجامعيـــة بلا مشاكل وما إن أنهيتهـا حتى توفيت أمى هى الأخرى، ولن تصدقنى إذا قلت لك إننى قـد حـزنت عليها أيضـا وبنفس القـدر الذى تألمت به لما أصابنى منها غفر الله لها .

وبعد وفـاتها استسهل شقيقى الحصول على نصيب أختـى الصغرى وأخى الأصغـر فى ميراثهما مع نفس الوعود التى حصلت عليهـا أنا من قبل، ثم انصرف عنا كليـة لحيـاته الخاصـة وزوجتـه وتركنا واثنان منا مازالا لم يستكملا تعليمهما الجامعى، وقـررت أن أتحمل المسئولية عنهما ربما لأثبت لأمى وإخـوتى إننى ما كنت أستحق منهم هذه المعـاملة غير العـادلة وعملت بالتـدريـس وتحملت مسئوليـة أعمال البيت وإدارته،

فكنت أقوم بها فى الصباح الباكـر وأذهب إلى مدرستى وبعد إنهاء عملى فيها أمارس إعطاء الدروس الخصوصية حتى المساء، وكل قرش أكسبه يدخل آليا فى ميزانية البيت إلى جانب معاشنا من أبينا وأمنا .

ومضت أربع سنوات على هذا الحال، إلى أن وقـع حـادثان صغيران كان لهما أكبر الأثر فى نفسى ، الأول هو أن شقيقتى الصغرى قد منعتنى من ارتداء حـذاء لها بحجـة أن ذلك ليس من حقـى ! فتنبهت فى هذه اللحظة أننى أنفق كل مـا أكسبـه على الأسرة ولا يبقى لى من دخلى ما يسمح لى بشراء شىء، والثـانى أن أختى هذه قـد أمرتنى ذات مـرة بأن أؤدى شيئا من أعمال المنزل فـرفضت بسبب صيغة الأمر التـى حدثتنى بها أمـام أطفـال الجيران، فما إن رجع شقيقـى الأصغـر حتى انحـاز لها كـالعـادة وطلـب منى الانصيـاع لما طلبـت، ولما رفضت انهال علىّ بالضرب المبرح حتى تدخل الجيران لإبعاده عنى . فتركت هذه المعـركة آثارا غـائرة فى نفسى، ووجـدتنى أصرخ فيه : ألا تذكـر لى يوما واحـدا سهـرت فيـه بجـوارك وأنت تذاكـر دروسك أو يومـا فـرحت فيـه بنجاحك؟!.. ألا تذكر لى يومـا حرمت نفسى من شىء أريده لأعطيك وأوفر لك احتياجاتك ؟!

وأقسمت لنفسى وللجميع أنه لابد سوف يجىء يوم أهجـر فيه هذا البيت وأستقل بحيـاتى عنهما وأشعـر بـإنسـانيتى وكيـانى ولجأت إلى

أقاربى شاكيـة، وأكدت لهم أن صبرى قد نفد ولم يعـد فى طاقتى مزيد. وفى هذه الأثناء اختـارنى رؤسـائـى فى العمل لأمثل محافظتى فى دورة تدريبية بإحدى المحافظات الساحلية تختار لها العناصر المتميزة فى اللغة، وقبلت هذه الدورة هربا من بيتـى وحالتى النفسيـة السيئة بعـد ضرب أخى الأصغر لى وأبلغت بها إحـدى قريبـاتى وأكدت لها أننى سأسـافر إليها سـواء وافق إخوتى أم اعترضـوا.. ووافقوا ربما لإزالة أثر المعـركة الأخيرة عن نفسى .

وسـافرت وأنا يسـاورنى إحسـاس غريب بأن هذا السفـر سيكون بداية لمرحلة جديدة فى حيـاتى أشعر فيها بحقـوقى كإنسانة ولا يمتهن فيها أحد كـرامتى .. ورافقنى هذا الإحساس الغريب طوال رحلتى إلى المدينة السـاحليـة وخـرجت من المحطة ووقفت أنتظر سيـارة أجـرة لأذهب إلى العنوان الذى سيقيم فيه المشاركون بالدورة، وجاءت سيارة وقبل أن أركبهـا سبقنى إليها راكب، لكن سـائق السيارة لم يتحـرك بها رغم ذلك وإنما سألنى عن وجهتى وطلب منى الركوب معـه ليوصلنى بعـد توصيل الراكب الأول، ونزل الراكـب فى مقصـده، وبدأ سـائق السيارة بحثه عن العنوان الذى أحمله، فطال سيره فى شوارع المدينة دون أن نصل إلى بغيتنا . وأخيرا قـال إنه يشك فى وجود خطأ مـا فى العنوان الذى أحمله وأنه سـوف ينزل ليتصل بصـديق له ويتحـرَّى منه العنوان

الصحيح، واتصل بالصديق بالفعل ورجع إلىّ مبتهجا، وتوجه إلى العنوان المطلوب، وساعدنى فى إنزال الحقيبة وفوجئت به يرفض أن يتقاضى منى أى أجر ويطالبنى بأن أعتبره أخا لى فى هذه المدينة يسعده أن يؤدى لى أية خدمة ولم أستطع إلا أن أشكره، بل ووجدت نفسى أيضا لا أعترض حين أبلغنى أنه سيجىء إلىّ فى الصباح ليحملنى بسيارته إلى مقر الدورة لأنى لن أجد طريقى إليه بسهولة .

وفى الصباح جاء.. وبدأت الدورة وخرجت منها عند الظهر فوجدته فى انتظارى، وتكرر ذلك يومين آخرين، وفى اليوم الثالث صارحنى برغبته فى أن يتزوجنى، ووجدتنى أوافق بلا تردد وأنا أشعر أن الله قد أراد لى المجىء إلى هذه المدينة فى هذا الوقت بالذات لكى أجده وأجد لديه تعويض السماء لى عن كل معاناتى الأسرية السابقة، وكنت خلال ذلك قد عرفت أنه شاب طيب ومهذب ويحمل مؤهلا متوسطا، وقد فضّل العمل على سيارة الأجرة لأنه يدر عليه دخلا أفضل من أية وظيفة . وانتهت الدورة وحانت ساعة الرحيل فافترقنا عند المحطة ودموع كل منا تسيل على وجهه، ورجعت إلى مدينتى وأعلنت للجميع أننى أنتظر هذا الشاب الذى سيتقدم لخطبتى وأننى سأتزوجه وافق على ذلك إخوتى أو رفضوا ، مع تحملى لمسئوليتى الكاملة عن اختيارى، فاعترض إخوتى على الفور وفرض أخى علىّ

ضروبا مشددة من الرقابة، لكنى صارحت الكل بأنه بعد وفاة أبى وأمى لن يغضب الله علىّ لاختلافى مع إخوتى حول من أتزوجه وأنا فى الثامنة والعشرين من عمرى ومسئولة عن نفسى ولجأت إلى أقاربى مرة أخرى وتدخلوا بينى وبينهم، فوافقوا مضطرين مع تحميلى مسئولية هذا الزواج وتخليهم عن مساعدتى فيه .

وكان أخى الأكبر خارج مصر ولم يكن لدى أمل كبير فى مساعدتهم لى فى زواجى من البداية فلم آبه كثيرا بتخليهم عن مساعدتى، ومضيت فى طريقى فتمت الخطبة وعقد القران وتحمل خطيبى كل وسائل التطفيش التى مارسها معه إخوتى بصبر وفهم وتسامح.. حتى إهانة أختى الصغرى لى وله تحملها وتحملتها لثقتى فى صحة اختيارى. وساعدنا والد خطيبى فوفر لنا شقة صغيرة وبدأنا الاستعداد للزواج وأثثناها بأثاث بسيط؛ لكنه فى نظرى أفخم من أثاث القصور .

وتزوجنا فى حفل بسيط وفرح من أجلى جيرانى وصديقاتى فرحا شديدا كان يستدر دمعى وأنا أرى فرحتهم الصادقة فى وجوههم من أجلى.. أكرمهم الله جميعا وأسعدهم بحياتهم. وبدأت حياتى الزوجية فعرفت لأول مرة فى حياتى معنى السكن والمودة والرحمة، وعرفت أيضا معنى الأسرة.

وانتقلت خلال عام واحد فقط من الجحيم الذى عشت فيه معظم

حيـاتى إلى جنة العطف والمودة ووجـدت زوجى لا يبخل علىّ ولا على إخوتى بشىء، ويعاملنى معـاملة الأب الحنون لابنته . وتمضى أيامنا فى هدوء وسعادة ونحسب الأيام الباقيـة الآن على وصول أول مولود لنا . ولقـد رويت لك قصتى لتقرأها كـاتبـة رسالة «الفـراش الخالى» وتضم ابنتها إلى صـدرها وتشعرهـا بحبها لها وتنقذ عـلاقتها بإخـوتها قبل أن تفسد نهائيـا فتحميها من معـاناة الجحيم الذى عانيتـه بين إخوتى وأمى غفـر الله لها، فلا ذنب للابنة فى حب أبيهـا وتفضيله لها، ولا ذنب لها فى عـدم وفاقـه مع أمهـا وانفصـاله عنها لكى تحملهـا بالتبعيـة عبء هذه المشاعر الكريهة تجاه الأب ممثلا فى ابنتـه المفضلة لديه. وكتبتها لك أيضا لكى تكتب لكـل أب وكل أم أن يرعـوا الله فى أبنائهـم وفى حقـوقهم عليهم وألا يحملوهم مسئوليـة اختيـارهم لشركاء حيـاتهم وتعـاستهم معهم. أسأل الله العلى القدير السعـادة والصحة والحيـاة الهادئة للجميع وأولهم زوجى الحبيب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أسوأ مـا يفعله بعض الآباء والأمهات بأبنائهم هـو أن يحرموهم من حقهم الإنسـانى العادل فى أن تكون لهم طفـولة سعيـدة !.. فكل الآباء والأمهـات يستطيعون إذا كـانوا حقـا من أصحاب الضمائـر والقلوب الحكيمة، أن يهبـوا أبناءهم طفولة سعيـدة، مهما كانت درجة تعـاسة أو

شقاء هؤلاء الآباء والأمهات فى حياتهم الزوجية، ومهما كانت إمكانياتهم المادية وظروفهم الاجتماعية، فحتى فى أسوأ الظروف يستطيع الآباء والأمهات أن يقدموا لأبنائهم الحب والرعاية والعطف والحماية النفسية، وأن يعينوهم على الاستمتاع بطفولتهم وبراءة مشاعرهم واكتمال نموهم النفسى بغير أن تفسد عليهم طفولتهم مخاوف الهجر أو النبذ أو الإحساس الداخلى بالذنب عن وجودهم بين أبوين غير متوافقين .

بل إنه حتى الآباء والأمهات الذين تضطرهم الظروف القاهرة للفشل كأزواج وزوجات، يستطيعون أن يكونوا آباء وأمهات ناجحين إلى حد كبير لأبنائهم سواء اجتمعوا تحت سقف واحد أو تفرقت بهم السبل، إذا التزموا برعاية أبنائهم وأداء حقوقهم عليه، وجنبوهم مرارة الاختيار العاطفى بينهم وبين شركائهم السابقين، وأعفوهم من إشعارهم بتعاستهم الشخصية، وتعففوا عن استخدام هؤلاء الأطفال كسلاح للانتقام الدنىء من البعض الآخر !

والنبذ العاطفى من جانب أحد الأبوين هو أفظع ما يتعرض له بعض الأبناء إذ يتلقى به وجدان الطفل رسالة مؤلمة ترجمتها على النحو التالى :

- لا تزعجنى بوجودك فى الحياة !

وقـد ينقل بعض الآباء والأمهات هذه الرسـالة اللاإنسانيـة لبعض أبنائهم فى بعض الأحيـان، إمـا لأن الأب أو الأم مشغـولان بذاتهما عن كل شىء آخـر فى الوجود ، وإما - كما فى قصتك يـا سيدتى - لأن الأم ترى فى هذا الطفل المنبـوذ الرمز الذى تستطيع أن تفـرغ فيه لاشعـوريا كراهيتها المريرة للأب المسئول فى نظرهـا عن تعاستها، ولا يرشح الابن البرىء لأن يكون هذا المتنفس غير المنطقى سـوى أن الأب كـان يحبه ويميزه عن غيره من الأبناء !

والنفس البشرية مازالت غابة لم نكتشف من أحـراشها ومجاهلها إلا أقل القليل، ومن هذه الأسرار التـى تستعصى على الفهم أن تكره أم أو أب أحـد الأبناء لارتباطه عـاطفيا بالطرف الآخـر الذى يتحامل عليه ويكرهه، مع أنه ابن للطرفين معا، ولم ينفرد أحدهما بإنجابه.

ولأننا نرفض دائما الاعتراف بهذه الحقيقـة التـى تفـزعنا، فإننا نتستر لاشعـوريـا على دوافعنا النفسيـة لنبـذ هذا الابن أو الابنـة بالتماس الأسباب والمبررات لذلك من سلوكيات الطفل البرىء نفسه وليس من عمى بصيرتنا وقلوبنا وسوء طويتنا وافتقادنا للرحمة والعدل والمنطق فى معاملة أبنائنا، ونستريح نفسيا لتبرير نبـذنا العاطفى لأحد هؤلاء الأبناء واضطهـادنا له وتفـرقتنا بينه وبين إخـوته، بـاتهامنا له باعتيـاد الكذب والادعـاء واللـؤم وارتكاب التصرفـات الشريـرة... إلخ، بغير أن

نعى فى نفس الوقت أننا حين ننبذ طفلا ونميز إخوته عليه إنما نحكم عليه بالاضطراب النفسى والاحتشاد الدائم للدفاع عن نفسه وتبرير أخطائه فيلجأ إلى الحيل الدفاعية النفسية اتقاء لأذى أبيه أو أمه فيكثر من الكذب والإنكار، وادعاء الضعف والمرض لاستجداء العطف والاهتمام.

وقد يصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى حد السرقة الصغيرة لجذب الاهتمام إليه وإشعار الأبوين أو أحدهما بوجوده فى الحياة، وبحقه فى العطف والتدليل والرعاية كغيره من الأطفال. وهكذا ندور معه فى حلقة مفرغة صنعناها بأيدينا وشكونا منها، فنعفى أنفسنا من الإحساس بالذنب تجاهه لتمييزنا لإخوته عليه.. لأنه «يستحق» ذلك بالفعل بدليل اختلاف سلوكه عن سلوك باقى إخوته، ويواصل هو ارتكاب الأخطاء دفاعا عن نفسه أو اتقاء للأذى أو تعبيرا عن رغبته الخفية فى الانتقام.. هكذا بلا نهاية.

أما مسئوليتنا نحن عن دفعه لارتكاب هذه الأخطاء فنحن نتناساها ويزعجنا أن يذكرنا بها أحد.. مع أن الروائى الأمريكى جون شتاينبك يقول لنا: «إن الفزع الأكبر الذى يخيف أى طفل هو أن يشعر بأنه غير محبوب، فإذا أحس بذلك تفجر الغضب المكتوم بداخله، وعبر عنه بارتكاب الأخطاء التى قد تصل أحيانا إلى حد الجريمة الصغيرة كنوع

من الانتقـــام».. وهو حين يفعـل ذلك فإنه يستهـــدف به الانتقـــام اللاشعـورى ممن نبذوه وحـرمـوه من حقه الطبيعى فى الحب والرعـاية والمعاملة الإنسانية العادلة، والشعور بعزة الانتماء لأبوين يحبانه ويهتمان بأمـره، وننحى نحن باللائمـة عليـه، مع أننا نحن الذين قتلنا فيـه براءة المشاعر وحاسبناه على ما اضطررناه إليـه ، وكرهنا فيه من كرهناهم من شركاء الحياة وأهدرنا حقوقه ولم نرع حدود الله فى معاملتنا له والمساواة بينه وبين إخوته .

لقـد كان من أقـدارك يا سيـدتى أنت هذا الرمـز الذى كرهت فيـه والدتك أباك غفـر الله لها، وكـان الاتفـاق الصـامت بينك وبينهـا هو الترجمة الفعليـة لهذا النبـذ العـاطفى الذى نفسـت به عن أحقـادها على أبيك فيك بلا ذنب لك .

ومع تقديرى لقسوة ظروفك العائليـة ووطأة ما تعرضت له من قهر نفسى وإحساس مرير بالنبذ والـدونية وعدم الجدارة بين إخوتك حتى اعتـادوا جميعـا معـاملتك كتـابع وليس كأخت لهم، لها كـامل الحقـوق الأخـــوية عليهم، إلا أنى لم أفهم رغم ذلـك كيف استسلمت أنت لهذه التفرقـة العنصرية فى بيتك وأسرتك بلا أدنى مقاومـة من جانبك.. ولا محاولة لانتزاع حقك فى المساواة مع إخوتك فى كل الحقوق والواجبات دون معارك وصدامات عائلية ؟!

نعم.. إننى أسلم بأنك كنت الطائر الضعيف مهيض الجناح ومقهور الإرادة بين إخوة يستشعرون عزة مساندة أمهم وتفضيلها لهم عليك، واعتادوا ممارسة إحساس «السيادة» والقيادة عليك بلا مبرر مفهوم، وبعضهم أصغر منك سنا، نعم.. أسلم بكل ذلك، بل وألتمس لك بعض العذر فى اضطرارك إلى اتباع أسلوب «التقيَّة» وكتمان مشاعرك الحقيقية والتظاهر بغيرها دفعا للأذى . لكن الإنسان مطالب أيضا يا سيدتى بأن يدافع عن حقه العادل فى الحياة، وأن يرفض القهر بغير أن يعنى ذلك تنكره لأبويه أو إخوته، فإذا حرمه الآخرون من حقوقه فمن واجبه الدينى والأخلاقى والإنسانى أن يطالب بأدب بهذه الحقوق، وأن يتمسك بها ويدافع عنها بغير إساءة .

* * *



مخالب الحدأة

أنا سيدة شابة عمرى ٢٩ سنة متزوجة من رجل محترم وطيب القلب، ورسالتى هذه ليست عنى ولكن عن أمى العزيزة التى شهدت حياتها بعض الغرائب التى لم أر لها مثيلا فى حياة أخرى حتى الآن. فلقد تزوجت أمى وهى فتاة صغيرة السن لا يتجاوز عمرها ١٦ عاما وطالبة بالسنة الأولى بإحدى الكليات من أبى وكان رجلا ميسور الحال لكنه أذاقها المر غفر الله له ، وتزوج عليها بعد ٤ سنوات فقط من أخرى وأنجب منها طفلا. وكانت زوجته الأخرى هذه تكره أمى كراهية لا يمكن وصفها ولا أعرف لها تفسيرا مع أنها هى التى اعتدت على أمى وتزوجت زوجها وليس العكس، وبعد عشر سنوات من المعاناة توفى أبى وأمى عمرها ٣٦ عاما وأنا طفلة عمرها ٩ سنوات ، واستولت الزوجة الجديدة على كل مجوهرات أبى وورث ابنها معظم تركته، ومع ذلك فقد أذاقت أمى الأمرين فى مشاكل الميراث وغيرها من المشاكل .

وواصلت حياتـي مع أمي فى شقة بالعمارة التى يملكهـا أبى. وتقدم لأمي خطّاب كثيرون فرفضتهم جميعا، وعشنا معـا وحيدتين. ثم عدت من مـدرستى ذات يوم فـوجـدت أمـى مغمّى عليهـا أمـام باب شقتنا وحـــولها رجـال كثيرون يقف وسطهـم رجل مهيب الشكل، وتبين أن مـالك العمارة السابق كـان قـد باع بغير علم أبى ثلاث شقق من العمارة قبل بيعها له لبعض الأشخـاص، وأن الرجل المهيب الواقف بين هؤلاء الرجـال هو مشترى الشقـة التى نقيم فيها، وقـد أقـام دعـوى قضائيـة لطردنا منها ونال حكما قضائيا بذلك وجاء ذلك اليوم للتنفيذ .

واضطررنا لإخلاء الشقة التـى نقيم بها والانتقال إلى مسكن آخر .. ولم يكتف الرجل المهيب بما فعل.. وإنما طارد أمى بعـد ذلك أيضا حتى وقعت فى حبه وقبلت الزواج منه، وتزوجته أمى بالفعل بعد أن وعدها بتعويضها عما فات من عمـرها فى معاناة وآلام، وعشنا معه أنا وأمى فى بيت واحد وكان لا يقيم معنا سوى ثلاثة أيام فقط كل أسبوع، ويقضى بقية الأسبوع مع أسرته وإخوته .

وبعـد ثلاث سنوات من الزواج الهادىء لاحظت أمى على زوجهـا تغيرا مفـاجئا فى معاملتـه لها، وهلعت حين اكتشفت أنه على علاقـة مع سيدة أخرى، فهل تعرف من كانت هذه السيدة ؟

إنها زوجـة أبى الأخـرى التى خطفتـه من أمى وتزوجتـه بعـد ٤ سنوات فقط من زواجها منه، ولست أعرف حتى الآن كيف ولا فى أى ظروف تعرف بها زوج أمـى وأنشأ معها هذه العلاقـة، كأنما تواصل بها انتقـامهـا المرير من أمى بـلا سبب مفهـوم. وصـدمت أمى فى زوجهـا الثـانى صـدمـة هائلة وتوسلت إليـه بكل الوسـائل أن يبتعـد عن هذه السيـدة، فإذا به يرفض بـإصرار الابتعـاد عنهـا، ويبرر ذلك بأن أمى لم تغدق عليـه من مالها كما كان يتـوقع، فى حين أن «الأخرى» تلبى له كل مطالبه وبكرم بالغ !

ولم تفلح محاولات أمى المستميتـة مع زوجهـا لكى يبتعـد عنهـا، وسلمت بالهزيمـة مرة أخرى أمـام هذه السيدة التى لا أعـرف لماذا لا تريد أن تدعنا فى حـالنا؟!.. ولا لماذا تصمم دائما على مطاردة أمى ولا يحلو لها إلا «مـا فى يدها» فقـط . ولم تمض أيام على طلاق أمـى حتى تزوج زوجهـا الثانـى من ضرتها الأولى! ومرضت أمى مـرضـا طويلا وتعقدت من الحياة والرجال والزواج بكل عقد الدنيا أجمع.. وعشنا أنا وأمى وحيـدتين وأمى مـازالـت شـابة فى عـز شبـابها وجمالها، وراحت ترفض كل عـروض الزواج وتـرد الخاطبين عنهـا حتى أنهيت دراستى الثانوية والتحقت بكليتى .

وبدأ شبان كثيرون يطلبون يدى فاخترت زوجى وهو رجل صالح

وعـادل ومتفـوق فى مجاله، ورغـم المشـاكل التى واجهتنا فى البـداية من جـانب أهلـه فقـد استطعنا والحمـد لله التغلـب عليهـا ورزقنا بطفلين جميلين يملآن علينا حياتنا الهادئة السعيدة..

لكن المشكلة يا سيـدى فى أمى.. فهى تعيش وحيـدة تماما فى شقتهـا الكبيرة وترفض أن تنتقل للإقـامة معنا رغم إلحاحى أنا وزوجى عليهـا معتـذرة عن ذلـك بأنها لا تريد أن تكون عبئا علينا.. وأنـا أرقبهـا وهى تعانى من الوحدة.. وأشفق عليها مما عـانته فى حياتها.. وفى فجيعتها فى زوجيهـا الأول والثانى وعلى يد نفـس السيدة.. وأرثى لحالها ويتمـزق قلبى ألما لها.. وهى سيدة جميلة ومتدينة وتعرف ربها ومازال عمرها ٤٧ عاما فقط .

ولقـد قرأت فى بريدك الجميل رسـالة لفتاة شـابة وحيدة أمهـا مثلى كانت تستعـد للسفر إلى زوجها وتشفق على أمهـا من أن تتركها وراءها وحيدة بلا زوج ولا ابنـة، وتتمنى عليك مساعدتها فى الارتبـاط برجل يملأ عليهـا حياتها.. فهل أستطيع أن أكرر عليك نفس الرجـاء بالنسبة لأمى ؟.. إنها جميلة وطيبـة وعطوف وفى حاجـة إلى رجل يعوضهـا عما لاقته من ظلم الرجـال فى حياتها ، «ولا ينظر» إلى ما تملك أو مـا سوف يناله منها.. وإنما «ينظر» إليهـا كإنسانة وحيدة تعـذبت كثيرا فى حياتها،

وفى حاجة إلى رجل تستظل بظله ويحميها من وحدتها ويعوضها عما عانته .. فهل يتحقق هذا الأمل على يديك يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

«يا إلهى».. كلما ظننت أننى قد عايشت مع رسائل قراء بريد الجمعة طوال اثنى عشر عاما أو تزيد من غرائب الدنيا والنفس البشرية ما لم يعد يتسع لأى جديد يثير دهشتى، أثبتت لى تجربة العمر ورسائل القراء أن باب الغرائب مازال مفتوحا على مصراعيه.. ولم يغلق بعد كباب الاجتهاد !

إننى أرجو معك من كل قلبى أن يتحقق هذا الأمل الذى تنشدينه لأمك إشفاقا عليها من وحدتها وبرا بها.. لكن ما موقف «المرأة الأخرى» الآن بعد كل هذه السنين.. هل مازالت على ذمة زوجها الذى اختطفته من أمك، أم تراها قد انفصلت عنه وزهدت فى الرجال، فإذا تزوجت أمك للمرة الثالثة تنبهت حواسها فجأة واكتشفت أنه مازالت لديها رغبة فيهم فتنسج خيوطها من جديد حول من سوف يختاره الله لمشاركة أمك بقية الرحلة.. ثم تطير بالفريسة بين مخالبها عائدة إلى وكرها.. كما تفعل الحدأة الخطافة بعد كل صيد ثمين ؟!

إن السؤال قد يبدو مزاحا غريبا فى هذا المجال، لكنى جاد فيه

للأسف، فبعض النفوس البشرية لا يغريها الصيد السهل الذى لا تتنافس فيه مع غيرها، وتفضل عليه دائما الصيد الصغير لتستشعر لذة الفوز مضاعفة حين ينهزم الطرف الآخر فى الصراع ويتجرَّع مرارة الهزيمة !

والمرأة الأخرى فى حياتكم من هذا النوع من البشر فيما يبدو، فهى تترصد أمك على الطريق دائما وتختزن ضدها أحقادا لو فرقت على عشرة أشخاص لسممت نفوسهم بالحقد والسواد، ولا تفسير لما فعلته مع أمك فى المرة الثانية بالذات سوى ذلك.. إذ هل خلت الدنيا كلها من الرجال فلم يبق منهم سوى زوج أمك الثانى، لكى تقتنصه منها كما سبق أن تزوجت عليها زوجها الأول ؟

إنه انتقام خسيس بكل تأكيد.. وفوز بالتخصص عليها فى معركة الرجال.. وكل رجائى هو أن يكون زواجها الثانى ناجحا ومستمرا حتى لا تواصل مطاردتها لأمك فى زواجها الثالث إذا أراد لها الله أن تتزوج مرة أخرى.. فهناك حكمة قديمة تقول إن الذهب يختبر بالنار، والمرأة تختبر بالذهب، والرجل يختبر بالمرأة !.. وهى حكمة صحيحة تماما لكنها لا تنطبق على تلك المرأة الأخرى التى لا تختبر بالذهب، وإنما بمن تتزوجه أمك أيًا كان هذا الزوج !

فإذا تركته لشأنه فلقـد نجحت لأول مرة فى الاختبار، وإذا نسجت حوله خيوطها.. فلقد أثبتت من جديد أنها كما تقولين «لا يحلو لها شىء فى الحياة» إلا إذا اغتصبتـه من يد أمك، وفى هذه الحالة فإنها لا تكون فى حاجة إلى الزواج بقدر ما هى فى حاجة إلى طبيب نفسى لعلاج نوازعها الغـامضـة.. وشفـائهــا من داء الانقضـاض على أزواج الأخـريات.. وتلقينها مبـدأ أساسيـا هاما، هو مبـدأ احترام «ملكية» الآخـرين وعدم العـدوان عليهـا.. وأرجـو أن تتصلى بى مسـاء غـد لاستيضـاح بعض الأمور منك، وشكرا..

* * *


المدير العام

ابتسامة الخجل

أنا سيـــدة جـــامعيـــة نشأت فى أسرة بسيطة بين أبـوين طيبين، وكنـت الابنة الـوحيـــدة لهما إلى جـــانـب شقيقين يصغرانني، كان أبى يعمل عـاملا بسيطا فى مصلحة حكومية ويكافح فى الحيـاة لإعـالتنا وإسعـادنا بما فى يده، وقـد حـرص على تعليمنا وتشجيعنا على الدراســة والتفـوق لكـى نحظى بحياة أفضل من حياته، كما كان يقول لنا دائما، وكان يفيض علينا حبّا وحنانا.

أما أمى فكانت ربة منزل طيبة لكنها كانت عصبية بعض الشيء ربما بسبب ضغـوط الحيـاة عليهـا. وقـد وهبنى الله جمالا منذ طفـولتى، كما تفوقت فى دراستى منذ الصغر، ونلـت احترام زميلاتى لتفوقى وجمالى، وسعين إلى صـداقتى، ورغم براءة مشـاعــر الطفـولة فقـد أدركت منذ الصغـر الفــارق الاجتماعى الواضح بينى وبينهن، وحــاولت تغطيتـه بالاهتمام بمظهرى وبالادعـاء لصديقاتى أن أبى مـدير كبير بالحكومة،

وكانت نيران الغيرة تنهشنى حين أسمع من كل تلميذة من صديقاتى عن أبيها الذى يشغل منصبا مرموقا وبيتها المفروش بالأثاث الفاخر.. والرحلات التى يقومون بها... إلخ، فاستمررت فى الادعاء والأكاذيب عن أبى ووظيفته الخطيرة. وشعرت ببعض التعويض فى تفوقى الدراسى عليهن جميعا. لكن حبال الكذب قصيرة دائما، فلم تلبث صديقاتى حين تقدمنا فى السن والدراسة وانتقلنا إلى المرحلة الإعدادية أن استشعرن كذب ادعائى ورقة حالى من خلال بعض المواقف الصغيرة، كتهربى الدائم من دعوتهن لزيارتى فى المناسبات، ومن عدم وجود تليفون ببيتنا يستطعن الاتصال بى من خلاله، وأيضا من تجنبى تلبية دعوتهن للزيارة فى منازلهن، ليس تحرجا منهن، وإنما لأننى كنت كلما زرت إحداهن فى بيتها اشتعلت نار الغيرة والحسرة فى نفسى، فكانت النتيجة أن فترت علاقتى بهن تدريجيا وانقطعت.

وبدلا من أن أقدر لأبى كفاحه فى الحياة وإصراره على تعليمى أنا وأخوَىَّ، وجدت نفسى أضيق به وبأمى تدريجيا، وأحمله فى داخلى المسئولية عن عدم نشأتى فى بيت جميل كبيوت زميلاتى، ووجدتنى - وخاصة وأنا فى المرحلة الإعدادية - أرهقه بمطالبى.. ولا أقبل منه عذرا إذا تأخر فى تلبيتها أو استمهلنى بعض الوقت وأُكثر من الشكوى أمامه من بساطة حالنا ومسكننا ومن الأثاث المتواضع وقلة مصروفى

وحرمـانى مما تتمتع به زميلاتـى من مباهج الحياة، فتثـور أمى وتتهمنى بالجحود والنمردة والغرور وتتـوعدنى بأننى لن أعرف طعم الراحة فى حياتى، لأننـى لا أعرف الرضا ولا أشكر الله على شـىء ولا أقدر لأبى تضحيته بضروراته الشخصية لكى يلبى مطـالب أبنائه وأسرته، فهو لا يدخن ولا يسهر ولا يذهـب إلى المقهى ولا يشترى لنفسه شيئا.. وينفق كل ما فى يده علينا، ومع ذلك فلست راضية. أمـا أبى فكان لا يشاركها ثورتها ويهدئهـا ويلتمس لى بعض العـذر، ويقـول لها إن البنات يحتجن إلى ملابس كثيرة ليحـافظن على مظهرهن وتتهمـه أمى بالضعف معى، وتنصحــه بأن يتركنى لنفسى لكـى أتعلم الرضـا وتقـدير الظروف، ولكيلا أنشأ أنانية لا أرى إلا نفسى.

ولم يكن أبى يستجيب كثيرا لأمى.. بل كان يقتطع من قوته ليشترى لى ما أريد ويعطينى أحيـانا فى السر مبلغا إضـافيا لمصروفى ويطلب منى ألا أصارح أمى به .. أما شقيقاى فقد كانا راضيين بحياتهما، ولا يلحان على أبى فى شىء، وقـد كـافحـا فى التعليـم بسبب ضعف قـدراتهما الدراسيـة، حتى استطاع كل منهما أن يحصل على شهادة متـوسطة بشق الأنفس، وعمل كـل منهما فى أكثـر من عمـل. فى حين حصلت أنا على الثانوية العامـة بمجموع كبير.. وتطلعت لاستكمال دراستى الجامعية،

وسعد أبى بنجاحى سعادة كبرى.. وسألنى عما أنوى أن أفعل بحياتى، وأجبتـه بأننى أريد الالتحـاق بكليـة عمليـة معينـة، وصرخت أمى تسألنى: ومن أين لنا بتكاليف الـدراسة وثمن الكتب فيهـا؟.. ولماذا لا تختارين كلية أخرى؟..

لكنى تمردت كـالعـادة ورفضـت بإصرار وصرخت وولـولت وبكيت، ولم يحتمل أبى دمـوعى فطيّـب خـاطرى وأقسم لى أنه سيفعل المستحيل ليـوفر لى نفقـات الدراسة الغـاليـة، وبالفعل عمل ساعيـا فى شركـة بعـد الظهر منـذ حصولى على الثـانوية العـامـة وحتى خـرج إلى المعـاش من وظيفته الحكوميـة، وكان يخرج من المصلحـة فى الظهر فـلا يرجع إلى البيت وإنما يتوجه إلى الشركة ليعمل بها من الثـالثة بعد الظهر حتى العـاشرة مسـاء، ويرجع إلى البيت مهـدودا. وركـزت أنا هدفى فى النجاح والتخرج والعمل لأنتقل إلى مستوى آخر من الحياة.

وفى الكلية العمليـة رجعت للأسف إلى أكـاذيبى القديمة فـزعمت لزملائى وزميلاتى أن أبى مـدير كبير بالشركة التى يعمل بها، وتحملت سنوات الدراسـة الخمسـة فى صبر وتقشف لأستطيع توفير متطلباتها وتخرجت فى كليتى وأنا فى الـرابعـة والعشرين مـن عمـرى، وعـزفت طوال دراستى عن الاقتراب من الزملاء أو الدخـول فى قصص غرامية مع زملاء مكافحين مثلى يحتـاجون إلى عشر سنوات بعـد التخرج لبناء

حياتهم والزواج.. واتهمنى بعضهم بالغرور والعقد النفسية وبأننى لا أريد إلا زوجا جاهزا فى كل شىء بدون كفاح وبدون مشاعر، ولم يكن ظنهم فىّ بعيدا عن الحقيقة، فلقد حسمت هذه المسألة خلال دراستى الجامعية «وقررت» أنه «لا فائدة» فى هؤلاء الشباب الصغار الذين يتحدثون عن الحب والارتباط والكفاح معا لبناء عش الزوجية، وأن «الأفضل» لى هو أن أتزوج ممن يستطيع مساعدتى على بناء حياتى وتمويل مشروعى المهنى الذى أمارس تخصصى فيه، وعفوا لعدم الإشارة لطبيعته حتى لا يعرفنى من حولى، لكنه مشروع صغير لا يزيد على شقة من غرفتين وبعض الأجهزة المهنية .

وحين ظهرت نتيجة البكالوريوس ورجعت إلى البيت سعيدة، انخرط أبى فى البكاء وهو يقبلنى.. ورفع يديه إلى السماء شاكرا ربه.. وداعيا بالتوفيق فى حياتى، وزغردت أمى مبتهجة ، ورغم ذلك لمزتنى بقولها لى إنه عسى أن «يتمر» فىّ معروف أبى معى وأتذكر له فضله علىّ..! وبلا وعى منى وجدتنى أقول لها : وأين هو هذا الفضل وأنا محرومة من كل شىء تتمتع به زميلاتى ؟.. أليس هذا هو واجبه كأب مع ابنته ؟.. ثم لماذا تنجبوننا إذا كنتم غير قادرين على نفقتنا ؟!

وصعقت أمى لردى وكادت الفرحة تنقلب إلى غم ونكد، وهمت

بأن تنفجر فىّ كعادتها معى، فإذا بأبى يسد فمها براحة يده ويقبل رأسها ويرجوها ألا تفسد علينا هذه الفرحة، وهو يؤكد لها أننى أمزح معها ويسألنى : أليس كذلك يا فلانة ؟ فأجبته بالإيجاب تجنبا للمتاعب ..

وانتهت بذلك صفحة طويلة متقشفة فى حياتى، وبدأت أتطلع للغد المشرق، وتعلق أملى فى أن تعيننى كليتى كمعيدة فيها لتفوقى وتقدم ترتيبى فى التخرج، لكن التعيين تعثر.. ووجدت نفسى بلا عمل، ولا قدرة مادية على ممارسة المهنة على الفور. وبعد بضعة شهور وفقت فى الحصول على عمل لا بأس به بإحدى الهيئات العامة، وبلغ أبى قمة السعادة. أما أمى فقد واصلت انتقاداتها لى وتعجبها من أمرى لأننى رفضت ثلاثة شبان من الجيران والمعارف تقدموا إلىّ واحدا بعد الآخر، فكنت أرفض المبدأ من قبل المناقشة لأنهم شباب مكافحون ولا يملكون شيئا حتى سألتنى أمى مستنكرة : هل تنتظرين وزيرا ؟!.. ولو أجبتها بما كان فى ضميرى وقتها لقلت لها إنه ولا حتى الوزير الذى تتحدث عنه يرضى طموحى المادى .. ولصارحتها بأننى أريد رجلا قادرا ماديا بغض النظر عن سنه، لكنى كنت أتفادى المصادمات معها بقدر الإمكان .

وبدأت عملى فى الهيئة العامة، وقبل أن أقبض أول مرتب فى حياتى

بأيام انتقل أبى فجأة إلى رحمة الله بلا مرض سابق وهو فى الثالثة والستين من العمر.. فلم تسمح لى الظروف حتى أن أسعده بهدية صغيرة من أول مرتب أقبضه. وزلزلتنى صدمة رحيل أبى إلى حد لم أكن أتوقعه أو أتصور عمقه.. فقد وجدت نفسى بعد رحيله وحيدة تماما رغم وجود أمى والشقيقين معى.

وافتقدت سندى الأول فى الحياة ونبع الحب الطاهر والحنان الغامر الذى كنت أنهل منه فى كل مراحل حياتى، ولم أدرك للأسف عمق تأثيره فى حياتى ومدى حاجتى إليه وإلى حضنه الدافىء وابتسامته الطيبة إلا بعد أن فقدته، وشعرت بألم شديد فى صدرى حين تذكرت فى غمرة افتقادى له كيف كنت «أنكره» وأنا تلميذة جاهلة ومغرورة بالمرحلة الإعدادية، فأتفادى زيارة زميلاتى لى بالبيت بكل الحيل حتى لا يرين مسكننا البسيط ولا يتعرفن على أبى ويلمسن رقة حاله وتواضع مظهره.. ولو كنت قد عرفت وقتها قيمته الحقيقية فى حياتى لفاخرت به وبطيبته وحنانه كل زميلاتى بلا استثناء.

ولا أريد أن أطيل فى الحديث عن هذه الفترة الحائرة من حياتى، لكنى أقول لك إنه بوفاة أبى لم يعد هناك فى عالمى الصغير من هو مستعد لتبرير جحودى وغرورى وتمردى والتماس الأعذار لى،

وتحملت مسئوليتى النفسية وحدى وعملت ثلاث سنوات فى هذه الهيئة دون أن أتمكن من تحقيق حلمى القديم فى المشروع المهنى والارتقاء بحياتى، وإن كنت قد حسنت كثيرا من مظهر مسكننا المتواضع وأضفت إليه «صالونا» لائقا و «أنتريه». وخلال هذه السنوات الثلاث رحلت عنى أمى أيضا رحمها الله رحمة واسعة.. وشعرت بالوحدة النفسية الحقيقية وأدركت بعد فوات الأوان كم كانت تحبنى وتحرص على سعادتى ومصلحتى رغم «نقارها» المستمر معى وانتقادها الدائم لى ..

وبعد رحيل أمى بعام التقيت بشريك حياتى، وتزوجت وأنا فى الثامنة والعشرين من عمرى، رغم أن جمالى كان يرشحنى للزواج فى سن أصغر.. ولا أريد أن أذكر أية تفاصيل عن شريكى فى الحياة حتى لا يتعرف على نفسه من رسالتى، لكنى أقول لك إنه يكبرنى «بعض الشىء» ويملك كل ما كنت أطمح فيه من مواصفات شريك الحياة ، وإننى كنت واضحة معه من البداية فصارحته بأننى قد رفضت حب الشباب ومسائل العاطفة لأننى أريد رجلا عاقلا أمينا يتحمل مسئوليتى فى الحياة ويحقق لى أهدافى .. وتقبّل هو الأمر بواقعية، وتجاوب معى فى كل شىء .

وخلال فترة الخطبة والقران، كان قد جهز لى مشروعى المهنى

البسيط وأعد شقته الجميلة للزواج.. وتزوجنا وبدأت عملى المسائى فى المشروع بعد شهر العسل، ووجدت فى شريك حياتى رجلا طيبا وهادىء الطبع فاسترحت إليه وتفاهمت معه وأنجبت منه طفلة أصبحت الآن فى السادسة من عمرها وطفلا أصبح فى عامه الثانى.. وقد تفرق شقيقاى فى الدنيا الواسعة وسافرا للعمل بالخارج فأصبح زوجى وأطفالى وعملى هم كل حياتى..

إذن فما هى المشكلة يا سيدى؟.. المشكلة هو أننى أتذكر الآن كثيرا وجه أبى الطيب المتألم وهو يغطى حسرته بابتسامة الخجل من بنت الثانية عشرة من عمرها.. حين كنت لا أكف عن الشكوى وحين كنت أضغط على جروحه وأشعره بعجزه وفقره وبساطة حياتنا وحرمانى مما تتمتع به البنات الأخريات، لأنه لم يحضر لى طلبا طلبته أو تأخر فى تلبيته.

وأتذكر أيضا وجه أمى رحمها الله المستنكر والمتعجب وهى تتهمنى بالجحود والتمرد والغرور.. أما لماذا أتذكرهما كثيرا الآن وأبكيهما فى مناسبات عديدة؟! فلأننى قد بدأت أرى نفسى وبعض ملامحى القديمة فى ابنتى الصغيرة!.. فبالرغم من أننا نعيش فى مستوى لم أكن وأنا طفلة فى سنها أحلم بواحد فى المائة منه، فإنها هى أيضا ويا للعجب

لا يرضيهـا شـيء .. ولا تشكر على شيء.. ولا تكف عـن الشكوى والمقارنـة بينها وبين بعض زميلاتها الأكثـر ثراء فى المدرسة الراقيـة التى ألحقناها بها !.. كما أنها كثيرة المطالب ولا تحتمل أى رفض لمطالبها وقد بدأت ألاحظ عليها بعض مـلامح تمردها وغرورها منذ حـوالى عامين، وفسرته لنفسى بأنه من طبيعـة الأطفال الصغار. لكن المسـألة استمرت بعـد ذلك وأنـذرتنى بالخطر حتى وجـدت نفسـى أشتبك معهـا كثيرا وأضربها أحيانا لتمـردها أو لكثرة مطالبهـا، فيتدخل أبوهـا بينى وبينها و«يبرر» لها، كما كان يفعل أبى الراحل معى طيب الله ثراه !..

إن ابنتى مـازالت صغيرة.. ومـازال تمردهـا وغـرورها فى حـدود الاحتمال والسيطرة ، لكن ما يقلقنى حقا يا سيدى هو المستقبل..

فهل سيعاقبنـى الله بابنتى على ما آلمت به مشـاعر أبى رحمه الله، حين كنت لا أشعره برضاى أبدا عـن أى شيء.. وأشعره على الدوام بعجزه عن توفير الحيـاة المناسبـة لى؟!.. فلم يكن ينهـرنى لذلك ولا يضربنى، وليته كان قد فعل ذلك.. إذن لعرفت قيمته وقتها وعرفت الرضا، لكنه لم يفعل ذلك.. وإنما كـان – وقـد أدركت ذلك بعـد أن كبرت – يشعـر «بالخجل» منى ويبتسم ابتسـامة خجـولة تتجمع الدمـوع فى عينى كلما تذكـرتها الآن، وهو يعدنى بأن يفعل كل مـا فى وسعه لإرضـائى! إننى

الآن الذى أشعر بالخجل من نفسى ومما فعلت مع أبى حتى بعد أن بلغت سن الشباب وحين لم أقبّل يده ورأسه وقدمه أيضا يوم تخرجى، وأقول له إنه أعظم أب فى الحياة، وإننى بغيره لم أكن لأساوى شيئا، وحين كنت أخجل من أن أقدّمه لزميلاتى وأتفادى ذلك .

إننى أكثر الآن من زيارة قبرى أبى وأمى، وأترحم عليهما كثيرا، وأدعو الله طويلا أن يغفر لى ما آذيت به مشاعرهما من غرورى وتمردى.. فهل يستجيب لدعائى حقا، أم تراه ينفذ فىّ عقابه العادل فى ابنتى وربما ابنى أيضا فيتمردان علىّ ويشعراننى دائما بالعجز وعدم قدرتى على تلبية مطالبهما فى المستقبل؟! فزوجى وإن كان ميسورا فهو ليس مليونيرا.. وعملى فى مشروعى لم يحقق الكثير حتى الآن.. وابنتى تتحدث عن زميلاتها اللاتى لهن شاليهات فى الغردقة والساحل الشمالى .. فهل هو حقا عقاب السماء لى ؟!..

إن الأب والأم فى حياة أبنائهما هما النجوم التى ترشدهم للطريق .. ومن أعماق قلبى أقول لكل فتاة : لا تقتلى أباك بالإنكار أو بالخجل من ظروفه المادية، وافتخرى به أمام الجميع مهما كانت ظروفه المادية، واستمتعى بحضنه وعطفه وحنانه لأنه لن يعيش لك إلى الأبد ، وكذلك بحضن أمك وقلبها وعقلها الناصح لك ولا تتمردى عليهما حتى لا تندمى بعد فوات الأوان .. والسلام عليكم ورحمة الله ..

الآن الذى أشعر بالخجل من نفسى ومما فعلت مع أبى حتى بعد أن بلغت سن الشباب وحين لم أقبّل يده ورأسه وقدمه أيضا يوم تخرجى، وأقول له إنه أعظم أب فى الحياة، وإننى بغيره لم أكن لأساوى شيئا، وحين كنت أخجل من أن أقدِّمه لزميلاتى وأتفادى ذلك .

إننى أكثر الآن من زيارة قبرى أبى وأمى، وأترحم عليهما كثيرا، وأدعو الله طويلا أن يغفر لى ما آذيت به مشاعرهما من غرورى وتمردى.. فهل يستجيب لدعائى حقا، أم تراه ينفذ فىّ عقابه العادل فى ابنتى وربما ابنى أيضا فيتمردان علىّ ويشعراننى دائما بالعجز وعدم قدرتى على تلبية مطالبهما فى المستقبل؟! فزوجى وإن كان ميسورا فهو ليس مليونيرا.. وعملى فى مشروعى لم يحقق الكثير حتى الآن.. وابنتى تتحدث عن زميلاتها اللاتى لهن شاليهات فى الغردقة والساحل الشمالى .. فهل هو حقا عقاب السماء لى ؟!..

إن الأب والأم فى حياة أبنائهما هما النجوم التى ترشدهم للطريق .. ومن أعماق قلبى أقول لكل فتاة : لا تقتلى أباك بالإنكار أو بالخجل من ظروفه المادية، وافتخرى به أمام الجميع مهما كانت ظروفه المادية، واستمتعى بحضنه وعطفه وحنانه لأنه لن يعيش لك إلى الأبد ، وكذلك بحضن أمك وقلبها وعقلها الناصح لك ولا تتمردى عليهما حتى لا تندمى بعد فوات الأوان .. والسلام عليكم ورحمة الله ..

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا يتعلم الإنسان الحكمة إلا بالثمن الغالى، ولا يعرف أقدار من أحبوه وغمروه بعطائهم وحنانهم غالبا إلا بعد أن يفقدهم إلى الأبد للأسف . ونصيب كبير من هواجسك تجاه طفلتك قد لا يرجع إلى سلوكياتها الطفولية أو إلى كثرة مطالبها أو ما تلحظيه عليها من ملامح «الغرور» وعدم اعتياد الشكر، بقدر ما يرجع أساسا إلى شدة إحساسك أنت بالذنب تجاه أبويك، وإدراكك «الآن» فقط وأنت تتعاملين مع طفلتك فى بعض المواقف المشابهة لما كان يحدث بينك وبين أبويك، لعمق إحساسهما وقتها بالمرارة والحسرة والقهر والعجز عن إرضائك رغم كفاحهما فى الحياة من أجلك.. لهذا فإن نصيبا كبيرا من هذه الهواجس ربما يكون نوعا من حساب النفس أكثر منه مؤشرات حقيقية تنبىء بخطر مؤكد لتمرد ابنتك عليك فى المستقبل، ولا عجب فى ذلك ولا غرابة يا سيدتى.. فنحن ندفع دائما ثمن أفعالنا فى الحياة بشكل أو بآخر ، فإن لم ندفعه فى خسائر حقيقية ملموسة.. دفعناه فى هواجس ومخاوف ومعاناة للإحساس بالذنب.

ومن المحتمل جدا أن يكون ما تشكين منه من تصرفات ابنتك، مجرد سلوكيات طفولية لم تشكل بعد ملامح مستقرة لشخصيتها التى

ستصاحبها بقية رحلة الحياة، لكنك بإحساسك بالذنب وبإدراكك «المكتسب أخيرا» للألم الذى كان ينطوى عليه أبوك بالذات، تضخمين من هذه النذر الصغيرة وتتخوفين من مؤشراتها.. وأيّا كان الأمر فلا مفر من التعامل مع هذه المؤشرات المزعجة بما يناسبها من الوسائل التربوية الصحيحة، ولابد من من مكافحة بذور التمرد والغرور والأنانية قبل أن تتأصل فى النفوس وتنبت ثمارها المرة .

وفى كل الأحوال فلابد من أن نعلم أطفالنا منذ الصغر، أن آباءهم لا يملكون الدنيا وما عليها، وأنهم ليسوا من صانعى المعجزات، ولا من أصحاب الخوارق، وأنه ليس من طبائع الأمور أن ينتظروا أو يتوقعوا تلبية ما يبدون من رغبات أو مطالب، كما لو كانت إرادة سنية واجبة التنفيذ، فهناك دائما حدود لما يمكن الاستجابة له وما لا يمكن ، كما لابد أيضا من أن نغرس فى نفوسهم بذور الرضا بما يتيحه لهم الآباء والأمهات من أسباب الحياة، والشكر عليها كذلك لربهم أولا ولأبويهم من بعده، ولابد أن يتعلموا ممارسة فضيلة الشكر مع الجميع ويعرفوا من حقائق الحياة ما تسمح لهم أعمارهم الصغيرة بإدراكه، ومنها أن حظوظ البشر تتفاوت دائما لحكمة إلهية بين الثراء والفقر، والصحة والمرض، والشهرة والخمول ، والأهمية والعادية ... إلخ ،

وأن الأغلبيــة العظمى من سكان الكون كله هـم من «لح الأرض»، أى من البسطاء الـذين يكافحــون فى الحيــاة ليكسبــوا رزقهم ورزق من يعولونهم.

وأنه من واجبـات الإنســان الدينية والأخـلاقيـة أن يسلم بينه وبين نفسه بأن لكل إنسان ظروفه وقدراته وحظوظه التى تختلف عن حظوظ غيره، ولكل إنسان فى النهاية من حظه مـا ينبغى أن يرضيه، ومن همه ما لا مفر من أن يشكوه مهما كان نوع هذه الهموم وليس من الضرورى أن تكون مـادية.. لهذا فليس من الفهـم الصحيح للحيـاة ولا هو حتى من المفيد للإنســان نفسيا وصحيـا وعمليا، أن يتطلع لحظوظ غيره وينشغل بها وبالمقـارنة بينهـا وبين حظه فى الحيـاة، ليس فقط لأن فى ذلك اجتراء واعتراضا على مشيئة مـن يبسط الرزق لمن يشاء ويقـدر، وإنما أيضا لأن ذلك بحساب الربح والخســارة لا عائد له إلا الخسائـر المؤكدة فى سباق الحياة، فـالحكمة الإنجليزية القـديمة تقـول : «إن الحصان الذى يتلفت يمينا ويسارا تسبقه الخيول الأخرى فى الفوز بجائزة السباق »!

وكذلك الإنســان أيضا.. فمن واجبه تجاه نفســه أن يسعى للارتقاء

بحياته وتحقيق أهدافه التى يطمح إليها، وليس مما يساعده على بلوغ الهدف أن يهدر بعض طاقته النفسية والصحية فى الانشغال عن أهدافه فى الحياة بالتلفت يمينا ويسارا ومراقبة حظوظ الآخرين والتحسر لها والمقارنة معها.. وبالتالى فى الحقد والكراهية والمشاعر السلبية العدائية التى تعوق تواصله مع الآخرين، وتقلل من طاقته على العمل والإبداع والنجاح، ولا تثمر فى النهاية سوى فساد الأوقات بالمعاناة والغيرة والحسرة كما لا تثمر أيضا سوى الخسائر الصحية المؤكدة بسبب أمراض القلق النفسى والنظرة السوداوية للحياة التى تفقد الإنسان الإحساس بجمال الأشياء وبقيمة ما حققه لنفسه، حين يقارنه بما حقق الآخرون ..

لقد كان الفيلسوف أرسطو يقول : «إن أشقى إنسان فى الحياة هو الحقود لسبب بسيط هو أنه قد أضاف إلى همه بنفسه، همومه (بسعادة الآخرين وما حققوه لأنفسهم من أسباب» !

ولاشك أنك يا سيدتى قد حققت لنفسك بعض أهدافك فى الحياة لكنك خسرت فى نفس الوقت وخلال رحلتك إلى هذه الأهداف أشياء جوهرية لا تعوض، هى كل الأوقات الجميلة فى طفولتك وصباك

والتى كان ينبغـى لك أن تستمتعى فيها ببراءة المشـاعر.. وجمال المرحلة وصداقـة صديقاتك فى المدرسة، وحبـك للآخرين وحبهم لك، ناهيك عن حب أبـويك وعطائهما الدافق لك.. لقـد أهدرت كـل هذه الأيام الجميلة بنيران الغيرة والحسرة والشكوى وإيلام مشاعر أبيك، فكسبت الكثير بكفـاحك الجاد فى الحيـاة، وخسرت أيضا الكثير بهذه المشـاعـر السلبية التى رافقتك فى صباك وبواكير شبابك .

وليس المهم دائما فى هذا الشأن هو الفـوارق الطبقيـة، وإنما المهم هو درجة الإحسـاس بهذه الفوارق ونوع هذا الإحساس .. فهـذه الفوارق قـائمة فى كل مجتمع فى دنيـا الله الواسعة ، لكنهـا لا تنعكس بنفس الأثر على الجميع.. وإلا فلماذا إذن يشقـى بها البعض ويتعـذبـون، وينشغل عنهـا البعـض الآخـر من أصحـاب النفـوس المطمئنة، فـلا يكادون يشعـرون بها، وإن شعـروا بها لم ينعكس عليهـم إحسـاسهم بها بالمرارة ولا بالحقد؟! ذلك لأنهم يسلمون من البـداية بأن لكل إنسان نصيبه فى الحيـاة وبأنه ليس من شـأن العـاقل أن ينشغل بما أصـابه الآخـرون من خير، فيستصغر شأن ما أصـابه هو ويفقد استمتاعه به ويـذهب سلامه النفسى بددا .

إنه موقف نفسى أخـلاقى عادل وحكيم من الحياة فبحـر «المقارنة»

بلا شطآن ، ومهما حقق الإنسان من إنجـازات فى حياته فلسوف يكون هناك دائما من هو أكثر منه مـالا وأعز نفرا .. فماذا تفيـده إذن «المقارنة» مع هؤلاء سـوى أن يفقد الرضـا عن نفسـه وعما حقق ؟! فيواصل مـا أسماه الكاتب المسرحـى الأمـريكى آرثر ميللـر فى مسرحيتـه الشهيرة «الثمن» «بسباق الفئران المذعـورة»، وهو سباق يتعـذب فيه من يعلون القيم المادية وحدها على كل شىء فى الحيـاة برغبة كل منهم فى أن يكون «الأفضل» والأحسن والأكثر ثراء وليس بأن يكون «الأسعـد» والأكثر توفيقـا فى حياته الخاصـة.. والأكثر رضا عـن نفسه وعن دنيـاه الخاصة وأسرته الصغيرة فينتهى كل شىء فى نهاية السباق إلى حقيقة واحدة هى القلق الدائـم والتطلع الأبدى لحظوظ الآخـــرين والمقـارنـة معهـا، ويكتشف الإنسان فى النهاية وبعد ضياع زهرة العمر ، أنه قد أضاع كل شىء لكى يصل بعـد اللهاث الطويل إلى حيـاة غير حقيقية .. وأهداف خائبة بمقاييس السعادة الحقيقية وصفاء النفس وسلامها .

ولهذا أيضـا فما زالت خسائـرك مستمرة حتى الآن يا سيـدتى ، وإذا كنت لا أسمح لنفسى بأن أختـار لأحـد حيـاتـه، فإنى أقـول لك إنك بسبب «سباق الفئران» هذا، قـد حددت لنفسك فى الحياة أهدافـا مادية بحتـة ونحيت من أجلهـا جـانبـا كل شئون العـاطفـة، فـارتبطت بمن يكبرك فى السن «بعض الشـىء» مفضلة إياه على الشبــاب المكافحين

الذين يبنون حياتهم خطوة خطوة، وعبرت بتصرفك هذا عن اتجاه غير محمود لدى بعض الفتيات يعكس للأسف سيادة القيم المادية على كل ما عداها من القيم الأخرى، ومنها قيمة العاطفة والسعادة وقيمة العمل وقيمة الكفاح الشريف فى الحياة لتحقيق أهداف الإنسان المشروعة، وتفضيل الوسائل الجانبية الأخرى لتحقيقها بلا عمل ولا كفاح ، كالارتباط بمن يكبرهن «بعض الشىء» .

وبسبب هذا السباق أيضا كانت شدة إحساسك بالفوارق الطبقية وتحسُّرك على ما لدى الآخرين وليس لديك ، وإرهاقك لأبيك لتعويض بعض ذلك ولو على حسابه وحساب إخوتك، وكان أيضا إحساسك بالذنب الآن وتخوفك من أن تكرر ابنتك صورتك السابقة فى صباك وشبابك .

وعلى أية حال، فإنى أنصحك بأن تتفاهمى مع زوجك على توحيد الأهداف والقيم التربوية التى تلقنانها لابنتكما وطفلكما ، حتى ولو اختلفتما فى الوسائل وقد اتفقنا على ما ينبغى أن يتشربه الأطفال منذ الصغر من قيم الرضا والعرفان والشكر والتواضع وعدم التطلع لحظوظ الآخرين وعدم الأنانية .

ولكى تتشرب ابنتك هذه القيم، فمن الضرورى أن يعينك على ذلك زوجك بالكف عن الضعف تجاهها وعن «تبرير» سلوكياتها، ثم

بمشاركتك الحزم معها لكبح جماح تمردها وغـرورها فى المهد.. ولا مفر فى هذا الشأن من استخدام الوسائل العقـابية الملائمة عند الضرورة من رفض تلبية بعض مـا تطلب بإصرار ، إلى التوبيخ والنهـر ، إلى الحرمان من المصروف .. إلى الخصـام المؤقت حتى تقـر بالخطأ وتعتـذر .. إلى الضرب الهين فى حالة الإصرار على الخطأ وتكراره .

أمـا عن ندمك وبكائك على أبويك وتحسرك حين تستعيـدين وجـه أبيك وهو يغـالب حرجـه وإحساسه بـالعجز والهوان بتلك الابتسـامة الخجولة المؤلمة ، فلا بأس ببعض الدموع التى تطهرنا من آثامنا من حين إلى آخر ، ولا بأس أيضـا بغصة الندم المؤلمة على أخطائنا السـابقة ، لكى يرشحنا ذلك لنيل العفـو والمغفـرة ممن لا يغفـر الذنوب سـواه، وكلما صح الندم وكثر الاستغفار اقتربنا من عفـو من وسعت رحمته كل شىء سبحانه ، ولا شـك أن ندمك واستغفارك الآن دليل أكيـد على أنك قد عـرفت فى النهـاية حقـائق الحيـاة الجديرة بـالاهتمام .. وخـرجت من «سبـاق الفئران» التى تلهث دائما وراء أهدافهـا المادية وحـدها وبدأت مرحلة جديدة من حياتك ستكون أكثر جمالا وإشراقا بإذن الله .

* * *

الأشياء الجميلة

أنا شاب عمرى ثلاثون عاما توفى أبى وأمى منذ خمسة عشر عاما وتركا لى «تركة» ثمينة أحمد الله عليها كثيرا، وهى ٤ شقيقات.

ومع أن إحدى شقيقاتى تكبرنى فى السن إلا أننى قد أصبحت رجل الأسرة منذ لحظة وفاة أبى، وواجهت مع شقيقاتى ظروف الحياة وتقلبات الأيام، وتخلّى الأقارب عنا ، بروح الصبر والأمل فى المستقبل، بعد وفاة أبى بأربعة شهور طلب منّا عمى الذى ربّاه أبى كما ربّى كل إخوته، أن ننتقل من بيت الأسرة إلى مسكن شعبى سيوفره لنا، لأن البيت لم يعد يتسع لنا، ورفضت ذلك فى البداية، ثم اضطررت للامتثال والخضوع بعد أن هدم دورة مياه البيت .

وانتقلنا بالفعل إلى شقة صغيرة من المساكن الشعبية فى بلدتنا القريبة من القاهرة تم استئجارها من الباطن.. وتنبهت محافظة الإقليم بعد

فترة لذلك فأقامت دعـوى قضائية ضدنا لإخـلاء الشقة بسبب الإيجار من البـاطن، ومازالت الدعـوى منظورة أمـام القضاء حتى الآن، وقـد تعرضنا لهذه المشاكل والتقلبات وأنا فى الثـانوية العامة فأهملت دراستى لألبّى احتياجات أسرتى، وبدأت أسـافر فى الإجازة الصيفية لأعمل فى الأردن أو العراق وأعود بعد عام أو شهور .. وعرفت بالتجربة ووسط المعـاناة والضنك الشديد أن الحيـاة ليست كلها ظلامـا فى ظلام، بل إن فيهـا أيضا مسـاحـات مضيئة كثيرة.. وبعد خمسـة عشر عـاما من وفـاة أبى.. أجد أننا قد عَبرنَا مسافات واسعة من بحر الشقاء .

فأختى الكبرى قـد تخرجت فى كليـة التجارة وتزوجت بعـد معـاناة شديدة فى توفير الجهاز اللازم لها، وأختى الثانية تخرجت فى أحد المعاهد وهى مخطوبة الآن والحمد لله، والثـالثة تخرجت فى كليـة الطب فى العام الماضى ولم تخطب بعد ، والرابعـة مازالت فى المرحلة الثـانوية وتتقدم فى دراستهـا بنجـاح، وكلهن والحمـد لله يرتدين الخمار ويحضرن الدروس الدينيـة فى المسجد، وأنا نفسى قـد عدت لدراستى بعـد فترة وحصلت على الثـانوية العـامـة وتخرجـت فى كليـة التجـارة، صحيح أن معيشتنا مـازالت ضنكا شـديدا.. وأنا مثقل ببعـض الديون لأصـدقـائى الذين يقدرون ظـروفى ويصبرون علىّ، كما أنى لا أعمل حاليـا ولا أجد عملا أو وظيفـة، إلا أننـا قـد تقـدمنا جميعـا دراسيـا، وقطعنا شـوطا كبيرا

من رحلة العنـاء.. ولم يبق إلا القليل الذى أرجـو الله أن يتم به نعمتـه علينا، فأجـد عمـلا مناسبـا وتخطب أختى الثـالثـة.. وينصفنا - أو قل يرحمنا بمعنى أصح - القضاء فلا يحكم بطردنا من المسكن الشعبى حتى لا نجـد أنفسنا فى الطريق، وليس ذلك على الله بكثير ، فـالحق أنه يؤلمنى كـرجل أن أمـد يدى إلى شقيقـاتى لآخـذ منهن نقـودا بعـد أن كنت أعطيهن، وأدعو الله ألا تطول هذه الغُمّة وأن أجد عملا فى أقرب وقت لأواصل مشوارى فى الحياة .

وقـد دفعنى للكتـابة إليك أننى أواجـه موقفـا محيرا منذ فترة، فلقـد أصيب ابن إحدى جـاراتنا منذ فترة بجرح نافـذ .. فحملته إلى الطبيب الذى قـام بخياطة الجرح ، والحمد لله أنـه كان معى نقود فى ذلـك اليوم فدفعت أتعـاب الطبيب وعدت به إلى بيتـه .. وبعد قليل جـاءتنى أخته تشكرنى على مـا فعلت مع أخيهـا ، فـإذا بى أحس برعشـة شـديدة فى جسمى كله وأنا أنظر إلى هـذه الفتـاة الجميلة، واكتشفت فجأة إننى قـد انشغلت خلال كفاحى عن الارتباط أو التفكير فى أية فتاة ..

وبعد أيام صارحتنى جارة لنا بأن هذه الفتاة الجميلة تحبنى وتنتظرنى .. فرفضت تصديق ذلك، لأن ظروفى لا تغـرى أية فتاة بالارتباط بى أو انتظارى، ففـوجئت بهذه الفتـاة نفسهـا تؤكـد لى مـا نقلتـه

عنهـا جارتنا فصـارحتها بمشـاعرى العميقـة تجاهها، لكنى أبلغتهـا فى نفس الوقت أننى لن أقابلها مرة أخرى لأنى لا أرضى بذلك لشقيقتى. والآن يتقدم لها شبـان كثيرون ترفضهم لأنها كما تقول للجميع تنتظرنى وترى فىّ رجلا يعتمد عليه.. ويكفينى عندها من مؤهلات أننى لم أتخلّ عن شقيقاتى بعد وفاة أبوينا ولم أبحث عن نفسى.. أو أفضّل مصلحتى على مصلحتهن.. والمشكلة الآن يا سيـدى ليست فقط فى العمل الذى أبحث عنه وانتظره، ولكن أيضـا فى إحسـاسى بأن «ربطى» لهذه الفتـاة الآن حرام وسوف يحاسبنى عنه الله سبحانه وتعالى لأن مشوارى طويل ولست أرضى لها بما لا أرضـاه لأختى من ارتبـاط طويل بلا أمل ممكن التحقيق، فهل أستمر فى ارتباطـى بهذه الفتاة إلى أن يقضى الله فى أمرى فأعمل أو أحصل على قـرض مـن أحـد البنوك، أم ترى أن من كـان فى مثل ظروفى ليـس من حقــه أن يحلم بمثل هـذه «الأشيـاء» الجميلة فى الحيـاة، لأن ظروفنا لا تسمح بها ؟! لقــد عـانيت كثيرا فى حيـاتى .. وجاءت هذه المعاناة الأخيرة لتضـاعف منها. فهل ترشدنى إلى الطريق الصحيح ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

«الأشيـاء الجميلة» فى الحيـاة ليست حكرا على القـادرين وحـدهم، وإنما هى حق مشروع للجميع ما بقيت لهم قلوب تنبض بأنبل المشـاعر .. ونفوس تحلم بحقها العادل فى السعادة .

فإذا كان ثمة اختلاف فى سبل نيل هذه الأشياء الجميلة.. فهو وعورة الطريق وطول مسافته على المكافحين من أمثالك، ومع ذلك .. فلكل شىءفى الحياة أيضا وجهه الآخر.. ذلك أن ما نناله بلا عناء ولا كفاح.. فإننا قد لا نستشعر قيمته غالبا، ولا نحرص عليه، وما نناله بالعناء والصبر هو وحده الذى نستشعر قيمته الكبرى ونحرص عليه ولا نفرط فيه أبدا ، كوليد العناء الذى يجىء بعد طول انتظار فتتضاعف فرحتنا، واستمتاعنا به أكثر من غيره. وفى عالم السباحة الطويلة يقولون إن ربع المسافة الأخير فى السباق هو دائما أصعبها على السباح البطل الذى صارع الأمواج طوال المراحل السابقة.. وإنها المسافة التى قد تشهد انهياره واستسلامه للفشل ، مضيعا هباء ما بذله من جهد سابق، وقد تشهد أيضا استنفاره لإرادته وكل طاقاته لإكمال السباق بجهد جهيد فيتوَّج كفاحه البطولى بما يستحقه من فوز أكيد .

وأنت يا صديقى قد قطعت ثلاثة أرباع الطريق الصعب إلى الأمان والسعادة لك وشقيقاتك .. فاصمد للربع الأخير من سباقك الصعب .. ولا تسلم باليأس من بلوغ الغاية ولا تحرم نفسك من حقها العادل فى الحلم بالسعادة .

فلقد خبرت عناء الحياة منذ صباك، وعرفت بالتجربة أن الحياة ليست دائما ظلاما دامسا، وأنها لا تخلو أبدا من الدوائر المضيئة بأنبل

المشاعـر والقيم الإنسانيـة مهما اشتدت المعـاناة، وما اختيار فتـاتك لك وتفضيلهـا لك على القـادرين على الارتبـاط بها على الفـور، إلا تأكيـد جديد لهذه القيـم النبيلة نفسها، ومرود عـادل لقيامك بواجبـك العائلى والإنسانى تجاه شقيقـاتك على أكمل وجه.. ولاشك أن فتـاتك محقة فى أن ترى فيك رجـلا يعتمـد عليـه.. ويُشترى بالصبر على ظـروفـه غير المواتية، إلى أن تتحسن الأحوال ويستطيع الارتباط بها .

ويحق لك أنت أن تقول عنهـا ما قاله عطيل عن زوجتـه ديدمونة فى مسرحية شكسبير الشهيرة : «أحبتنى لما لاقيته من أخطار .. وأحببتها لما لقيته منها من عطف».

أما عجز الإمكانيـات المادية فلن يستمر طويلا.. وكما علمتك الحياة من قبـل أنها لا تخلو وسـط أحلك الظـروف من بصيـص للضـــوء، فلسـوف تعلمك أيضـا درسـا جـديدا قيما، هو أنه ليس فقيرا من يحب ويجد من يحبه بإخـلاص وتفان بل لعله أغنى الأغنياء وأكثـرهم سعادة فى الحقيقـة، فهناك من يحبـه بصـدق ويفضله على العـالمين ويحفـزه على الكفاح وتحدى الصعاب ومواصلة الرحلة حتى شاطىء الأمان .

وفى رواية «امــرأة لا أهميـة لها» للأديب البريطـانى أوسكار وايلد. سألت الأم الفقيرة صـديقــة ابنهـا الثـرية التى تتمسـك به وترغب فى

الزواج منه رغم فقـره: هل تحبينه ؟ فأجـابتها بالإيجاب، فقـالت لها متحسرة : ولكننا فقـراء ! فأجابتهـا الفتاة الثـرية فى تعجب نبيل : كيف يكون الإنسان فقيرا وهناك من يحبه ؟!

وهذا صحيح يـا صـديقى، ولعله درس السنين الـذى لا يتعلمـه الإنسـان إلا بالألم والتجربة.. فـالإنسـان لا يكون فقيرا أبدا وهناك من يحبه بإخـلاص، ويحرص عليه مهما كـانت ظروفـه المادية.. ولا يكون «ثريا» أبدا وهو محروم ممن يحبـه، ويعتـز به ويفضله على الآخـرين مهما كان رصيده من المال فى البنوك .

فاقتنع بـذلك ولا تفرط فى هبة السماء لك واتصـل بى مساء الاثنين القادم أو زرنى فى مكتبى بالأهرام، فلعلى أستطيع معاونتك فى الحصول على قرض من الصندوق الاجتماعى تبـدأ به مشروعا صغيرا إذا توفرت لديك الرغبـة والإرادة لممارسة العمل الحر ، أو لعلى أستطيع معـاونتك على أمرك بشكل أو بآخر. وشكرا لك .

* * *



صرخات فى الليل

أنا شاب فى الثانية والعشرين من عمرى.. حين أرجع الآن بذاكرتى إلى طفولتى أستعيد صور سعادة طفل صغير يعيش مع أبويه وشقيقه الأصغر .. ويستمتع بحنان الأبوين ويلهو مع شقيقه ويحب الحياة. أما أبى فقد كان موظفا بسيطا بإحدى الهيئات الحكومية يذهب إلى عمله فى الصباح بقطار الضواحى ويرجع مع الغروب حاملا كيسا من الفاكهة الرخيصة، فيجد أمى ربة البيت الطيبة فى انتظاره ويجدنا نحن الابنين وقد أجهدنا اللعب طوال النهار، وانتزعتنا أمنا من الشارع لنغتسل. ونصلّى بالأمر رغم صغر

سننا.. ثم نجلس فى انتظار أبى لنتناول معه طعام العشاء . وبعد العشاء يجلس أبى بيننا يشرب الشاى ويستمع إلى «شكاوى» أمنا المعتادة منا .. ومن «شقاوتنا» وكيف لوثنا ملابسنا بالتراب والوحل خلال لعب الكرة.. وكيف راوغناها عدة مرات ورفضنا الاستجابة لندائها حين نادتنا من النافذة لنرجع للبيت ... إلخ، وأبى مبتسم وراض وسعيد

ولا يزيد عن أن يقـول لنا من حين لآخر : أهكذا تفعـلان فى غيابى أو أهكذا تتعبـان أمكما التى تشقى مـن أجلكما ؟ وكـانـت أمى تضيق أحيانا بما تسميه تدليله لنا وتعـاتبه فى ذلك متظاهرة بالعبوس فيضحك مبتهجا.. ويسترضيها حتى ترضى. ومن تكرار هذا الموقف فى طفولتى التقطت أذنى عبارة غامضـة كان أبى يقـولها لأمى أحيانا إذا اشتـدت عليه فى العتـاب لتسامحه معنا، وكـانت حين تسمعها تمصمـص شفتيها صـامتـة.. وفى بعض المرات كـانت عينـاها تدمع. أمـا العبـارة فهى: أتشكين من «النعمــة» يا فـــلانة! هل .. نسيت ؟ فإذا سـألت أمى عمَّا يقصـده أبى بهذا الكلام خـلال غيـابه، تشـاغلت عنى وغيّرت مجرى الحديث .

وفى إحـدى المرات سألتها نفس السـؤال، فسالت دمـوعها بغـزارة وفزعتُ فـزعا شديدا ورحت أقبّل رأسها وأعتـذر لها وشعرت بالندم، فكففت عن توجيه هذا السـؤال لها بعد ذلك.. ومضت سنوات قبل أن أعــرف إجــابتـــه، وقبل أن أدرك إننى لم أكن أول أبنـاء أبى وأمى كما أتصـــور، وإنما سبقتنى إلى الحيـاة أخـت ولدت جميلة، ثم مــرضت فى عامها الثـانى مرضا شديدا وتوفـاها الله، ثم أخ لم يطل عمره هو الآخر عن بضعة شهـور، ثم اختاره الله إلى جـواره، فخيم الحزن على حياة أبى وأمى بعد ذلك ثلاث سنوات كـاملة، وتخيلا أن الله سبحـانه وتعالى لن يكتب الحياة لذريتهما .

وازداد تدين أبى فراح يكثر من الصلاة والصوم وقراءة القرآن ، حتى روى لى حين كبرت أنه قد صام هو وأمى فى العام التالى لوفاة الابن الثانى ٣٠٠ يوم كاملة، ثم أنزل الله عليهما سكينته بعد ذلك وأنجبانى، وأنجبا أخى الأصغر بعدى بعام وبضعة شهور. ومضت فترة طفولتنا مسالمة ونشأنا صحيحين.. نلعب ونجرى ونلهو، فسعد بنا أبى سعادة لا توصف وحنا علينا حنوا شديدا، حتى إنى لا أذكر له أنه قد مد يده ذات يوم علىّ أو على أخى بالضرب .

ومضت حياتنا هادئة وادعة.. ولم يحرمنا أبى من شىء فى حدود إمكانياته واشترى لنا دائما الملابس الجديدة والأحذية.. حارما نفسه هو من شراء أى شىء جديد له حتى ترغمه أمى على ذلك.. وتقدمت أنا وأخى فى دراستنا فانتقلنا من المدرسة الابتدائية إلى المرحلة الإعدادية ثم الثانوية، وبدأت مطالبنا ونفقات حياتنا تتزايد .

وكنت قد أدركت منذ صباى واقع أبى، وهو أنه موظف بسيط وليس إلها قادرا على كل شىء كما يتصور كل طفل فى أبيه، فلم أعد أرهقه بمطالبى على عكس شقيقى الأصغر الذى ظل يتعامل مع أبى على أنه قادر على كل شىء .. وأذكر أنه طالب أبى ذات مرة بحذاء رياضى كزملائه فى المدرسة وسأله أبى عن ثمنه وكان مبلغا كبيرا..

فسمعت أبى يتأوه له، ومع ذلك فقد وعده بأن يحضره له خلال أيام.. وسألنى إن كنت فى حاجة لحذاء مثله فنفيت ذلك إشفاقا عليه، ونظر إلىّ مبتسما وفاهما، ثم لم تمض أيام حتى رجع إلى البيت فى المساء ومعه حذاءان رياضيان لى ولأخى، وعلمت من أمى أنه قد اشتراهما بالتقسيط من زميل له بالمصلحة يستعين على حياته بالمتاجرة فى بعض الأشياء وبيعها لزملائه مقابل قسط رحيم يحصل عليه أول الشهر. وازددت حبّا وإكبارا لأبى الذى يكافح فى الحياة بشرف لإسعاد ابنيه وأسرته، واعتمدت فى دراستى على مجهودى وحدى فلم أكلف أبى نفقات إضافية للدروس الخصوصية، وعملت فى الإجازة الصيفية فى محل للفيديو قريب من بيتنا أحمل الأفلام إلى المتعاملين معه لقاء جنيه واحد فى اليوم وبعض البقشيش من الزبائن. وادخرت للثانوية العامة معظم أجرى من عملى خلال الصيف لدفع رسوم مجموعات التقوية، ونجحت بمجموع صغير رغم كل ما بذلت من جهد.. وحزنت لذلك لكن أبى ابتهج بنجاحى كثيرا ولامنى لحزنى، وقال لى إن لكل إنسان نصيبه فى الحياة، والتحقت بمعهد لمدة عامين بعد الثانوية وراح أبى يحلم بيوم تخرجى الذى يأمل بعده أن يتشفع لدى رؤسائه بمدة خدمته الطويلة فى تعيينى بإحدى وظائف الهيئة التى يعمل بها، خاصة أنه كان قد تخطى الخامسة والخمسين ..

ومضت الأيام فى طريقهـا المرسوم، فإذا بزلزال شديد يـزلزل حياتنا البسيطة ويهزها من أركـانها، فلقد مـرض أخى الأصغر مـرضا شـديدا وهو على أعتـاب امتحـان الثـانوية العـامـة، وأصيـب أبى وأمى بالهلع ونقلاه إلى المستشفى فأجـريت له جراحـة عاجلة لكن حـالته تدهورت أكثر وأكثر وحلّ القضاء المحتوم به وأنا ذاهل لا أصدق ما يجرى أمامى ولا أستـوعبـه، وخلت الدنيـا من شقيقـى وصـديقى الوحيـد الذى لم أعرف لى صـديقا سواه والذى شـاركته سنوات العمـر والطفولة، وكنا ننام معـا فى فراش واحـد. أما أبـى وأمى فلا أستطيع أن أصف لك مـا حل بهما من قهـر وضعف وحــزن ومـرض، وبدأت أرى أبى فى البيت بالأسابيع لا يغادره إلا بصعوبة شديدة، ولا يذهب إلى عمله إلا ليجدد الإجازة المرضية .

أما أمى فقد تناوبتها الأمراض حتى عجزت معظم الأيام عن القيام بواجبـاتها المنزلية، واستسلمـت دائما للمرض والفـراش، وبسبب هذه الظروف القــاسيـة رسبـت فى عـامى الأول بـالمعهـد فلم يحزن أحـد لرسوبى.. أو لم يشعر به أحد.. وتحاملت على نفسى وبذلت جهدا كبيرا لاستذكار دروسى فنجحت فى العام التالى، لكن إجازة الصيف شهدت بعد نجاحى كـارثة أخرى غطت على كل شىء وأكملت جبل الحزن فى حيـاتنا، فلقـد رحلت أمـى رحمهـا الله عن الحيـاة بعـد عـام وبضع

عام فقط من وفاة شقيقى. وخلت الشقة الصغيرة التى نعيش فيها علىّ أنا وأبى من بعدهما.. وازداد تهدم أبى وعشش الحزن فى روحه وصوته ووجهه.

أما أنا فقد أصابتنى حالة غريبة من الخوف والفزع خلال الليل فأصبحت أنهض من نومى مذعورا عدة مرات كل ليلة فينهض أبى من نومه مفزوعا على صراخى ويجيء فيحتضننى.. وهو يردد آيات الذكر الحكيم ويضع يده على جبهتى ويستغرق فى التلاوة حتى أهدأ وأستسلم للنوم من جديد، ثم أصحو مرة أخرى صارخا.. وطالت هذه الحالة فعرضنى أبى على طبيب المستوصف القريب، فوصف لى بعض الحبوب المهدئة ونصح أبى بأن أنام إلى جواره لتهدأ مخاوفى ففعل وأصبح يقاسمنى فراشى.

وبدأت الدراسة وجاهدت لكى أستذكر دروسى وأنهى دراستى لأسعد قلب أبى الحزين بشيء يبتهج له بعض الابتهاج.. وهو يهدىء دائما من روعى .. ويبث فىّ الصبر والأمل فى الحياة ويبشرنى بأجر الصابرين حتى نجحت بمعجزة وحصلت على شهادتى، وبدأ أبى مساعيه فى الهيئة التى يعمل بها لتعيينى فى وظيفة مؤقتة بها .. ووعده رؤساؤه بذلك فى أقرب فرصة.. لكن الفرصة لم تأت بعد ذلك أبدا.. فهل تعرف لماذا يا سيدى ؟ إننى أخشى أن أذكر لك السبب فلا تصدقه

لكنها للأسف الحقيقة المرة التى أعيشها وليتهـا كانت كاذبة.. لقد مات أبى الطيب الحنون وهو فى الثـامنة والخمسين من عمره بلا مـرض ولا مقدمات وفاضت روحه الطاهرة وهو جالس بين زملائه فى عمله، وأنا أبحث عن عمل وأتنقـل بين الشركـات الصغيرة التى تعلـن عن طلب موظفين خلال الصيف ، فوجدتنى وفى أقل من أربع سنوات قد فقدت كل أفراد أسرتى كلهم وبقيت وحدى بلا سند ولا معين فى الحياة.. ولا شىء سوى ذكـرى أب طيب وأم حنون وأخ صديق لم نكن نفترق قبل أن تفرقنا الحياة ..

لقد قام زملاء أبى والجيران بكل ما يتطلبه الموقف وجاء أحد زملاء أبى بمصاريف الجنازة من الهيئة، وقامـوا باستصدار إعلام الوراثة لكى أستحق معــاش أبـى.. ووری أبى التراب وأنا أقف أولـول كــالطفل الصغير وزمـلاء أبى يشاركـوننى البكاء ، وبعـد أيام العزاء.. خـرجت لأواصل البحث عن عمل لأعــول نفسى بعـد أن أصبحت وحيـدا فى الحيــاة . وتقـدمت لشركــة صغيرة تطلب شبــابا للعمل فى الصيف ، ورأيت طابورا طويـلا من الشبـاب ينتظر مقـابلة المسئـول فـوقفت فى الصالة يائسا من كل شىء ومستغرقا فى أفكارى وأحزانى فلاحظت أن الموظف الذى يسجل بيـانات الشبـاب قبل إدخالهم إلى لجنة الاختبـار، ينظر إلىّ باهتمام فـارتعبت وكــدت أغـادر الصـالة.. لكنه أشـار لى أن

أقترب منه وسألنى عن اسمى ودراستى، ثم سألنى : ماذا يعمل أبوك ؟ فأجبته بأنه بين يدى الله ففوجئت به يسألنى : متى ؟ فأجبته بلا وعى : منذ ثلاثة أسابيع ! فهز رأسه كأنما يقول لنفسه أن تقديره قد صح ! ثم قال لى: انصرف الآن ولا تدخل إلى اللجنة وعد فى الصباح لمقابلتى ، فشكرته وانصرفت .

ورجعت إليه فى اليوم التالى بالفعل فرحب بى وعرفنى بنفسه وبأنه رئيس قسم التدريب فى الشركة، وقال لى إنه سوف يدربنى بنفسه على العمل ولن يدعنى أعمل كمندوب مبيعات بالعمولة كغيرى من الذين قبلوا بالشركة، وإنما سيعلمنى أعمال السكرتارية والكمبيوتر وسأعمل معه مباشرة . فلم أملك نفسى من البكاء أمامه وأنا أشكره حتى خجلت من نفسى ، لكنه هدّأ من روعى وسألنى عن حكايتى فرويتها له باختصار وتأثر لها كثيرا حتى دمعت عيناه وصارحنى بأننى قد لفتّ نظره من بين الشباب المنتظرين بانكسارى، وبأننى كنت أرتجف بدون أن أدرى خلال وقوفى حتى ظنها حالة عصبية عندى، ثم طلب منى أن أعتبره أخى الأكبر ومسئولا عنى ووعدنى بأن يتم تعيينى بالشركة بمرتب مائة جنيه، وبأنه سوف يساندنى فى الحياة إلى أن أقف على قدمى إن شاء الله .

وبدأت عملى معه فى نفس اليوم وانتظمت فى العمل من التاسعة

صباحا إلى أن يأمرنى بالانصراف فى الخامسة مساء أو السادسة أو السابعة حسب حاجة العمل، واندهش كثيرا حين تأخرت معه فى العمل ذات يوم حتى الثامنة مساء فرجوته أن يسمح لى بالمبيت فى الشركة على أى مقعد حتى الصباح. وكان هو دائما آخر من يغادر الشركة فيطفىء الأنوار، ثم يغلق بابها فتصور أننى لا أملك أجر المواصلات للعودة وعرض علىّ سلفة حتى أقبض أول مرتب، لكنى أكدت له أن معى ما أستطيع به العودة إلى البيت، لكنى لا أريد ذلك واضطررت لمصارحته بالسبب الذى دفعنى لهذا الرجاء وهو مشكلتى التى أكتب لك من أجلها الآن، فلقد كان السبب هو أننى أخاف الليل فى شقتى الخالية بعد رحيل أبى وآخر من كان قد بقى لى من أسرتى الصغيرة، فأصبحت أعجز عن النوم فى غرفتى حيث كان يبيت معى أخى رحمه الله وعوضه عن شبابه فى الجنة، وأعجز عن النوم فى غرفة أبى وأمى رحمهما الله وأنزلهما فسيح جناته، فأضىء الغرفتين والصالة طوال الليل وأنام منذ مات أبى رحمه الله على الكنبة فى الصالة نوما.. السهر أرحم منه.. فقد عاودتنى حالة النهوض من النوم مفزوعا وصارخا وأنا مبهور الأنفاس وضربات قلبى عالية والعرق يغطى وجهى.. فأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. وأنهض فأتوضأ وأصلى.. وأظل أتجول فى الصالة ذهابا وإيابا حتى يهدنى التعب.. وأستسلم

للنوم بعض الوقت وتتكرر معى نفس القصة، فلا أرجع للنوم مرة أخرى وأغادر الشقة مع أول ضوء فى الصباح وأذهب إلى عملى وأنتظر أمامه أو فى المقهى حتى تفتح الشركة أبوابها .

ولقد وافق رئيسى الطيب على أن أبيت فى الشركة كلما تأخرت فى العمل، وليلتها لم تهاجمنى الكوابيس كما يحدث معى فى البيت، ونمت باستغراق حتى الصباح، لكن هذا الوضع ليس حلا لمشكلتى.. لهذا فإنى أسألك : أليس هناك حل لهذا الرعب القاتل الذى أعيشه كل ليلة فى مسكنى؟ .. وهل هناك علاج لمثل حالتى هذه ؟ وهل ستستمر معى إلى النهاية ؟!

إن البعض ينصحوننى بالانتقال إلى شقة أخرى.. لكن كيف السبيل لتحقيق هذا الأمل المستحيل وأنا لا أقدر عليه.. لقد مضت على وفاة أبى الآن ثلاثة شهور، علمنى خلالها رئيسى العمل على الكمبيوتر وشملنى بعطفه ورعايته ودعانى لتناول الساندويتشات معه وقت الظهيرة عدة مرات خلال العمل بالشركة أكرمه الله فى أبنائه وصحته وأسرته كما أكرمنى، والجميع فى الشركة يعاملوننى بحب لأنى أعاملهم جميعا باحترام وأعرض أن أقوم بأى عمل وأى خدمة لأى زميل حتى أطيل ساعات وجودى فى الشركة، وقد سعى رئيسى لدى السيد مدير

الشركة فرفع مكافأتى إلى ١٢٠ جنيها بعد شهرين فقط من العمل، وشهد لى عنده بالطاعة والكفاءة والإخلاص فى العمل. ولقد استرحت للعمل مع رئيسى ونويت ألا أفارقه وألا أترك الشركة أبدا من أجله ومن أجل زملائى الطيبين، حتى ولو جاءتنى وظيفة الهيئة التى وعدنى بها زملاء أبى يرحمه الله.. لكن الليل يا سيدى يعذبنى..ويمرضنى.. ويفتك بصحتى ونفسيتى، وقد نقص وزنى خلال الشهور الثلاثة الأخيرة ٨ كيلو جرامات مع أنى كنت نحيفا من الأصل.. فبماذا تنصحنى أن أفعل ، وهل تستطيع معاونتى فى العلاج من حالتى هذه ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا إلهى.. كل هذه الأحزان والآلام وأنت فى هذه السن الصغيرة ؟!

ماذا أستطيع أن أقول لك يا ولدى لأهدىء من روعك وأعينك على تحمل أقدارك هذه ؟ لقد أشعلت شمعة أحزانك من طرفيها وليس من طرف واحد، فالتهمت سعادتك وأمانك فى وقت قصير عصيب، فهل أقول لك إنك قد استوفيت بذلك قدرك المقدور من كأس الشقاء ولم تبق به ثمالة، ولابد أن تكون حياتك بعد ذلك إبحارا هادئا فى نهر الحياة.. تهب عليك فيه نسائم التعويض وغيث السماء!

إن هذا منطق الأمـور وعـدالة الحظوظ بين البشر.. وهذا أيضـا هو الأمل فى رحمة الله سبحانه وتعالى.. وفى رفقه وحنانه بالمحزونين .

والإنسان قد تعبر بحياته سحابة حالكة السواد .. فى فترة من فترات العمر لكنها لا تتجمـد فوق سمائه للأبد.. ولا يمكن لها أن تفعل، وإنما لابد لها من أن تنقشع بعـد حين مهما طال وقـوفهـا، ولابد أن تصفـو صفحتها وتبزغ شمس الأمـل حاملة إليه جوائز الصـابرين والموعودين بالسعادة بعد الشقاء، وإن الشاعـر الإنجليزى يقول إنه «إذا كان الشتاء قد جاء فليس الربيع ببعيد » !

وشتـاؤك الحزين يا صـديقى قـد حـل عليك مبكرا بكروبه وغمتـه وكآبته، ولابد أن يأتى ربيعك من بعـده وتغدق عليك الحياة بما ينسيك رحلة الآلام .

و«الإخلاص مفرّج الكروب » كما يقول أحد الصالحين.. ويعنى به الإخلاص الذى يسلم به المرء نفسـه لله سبحانه وتعالى.. فـلا يعتمد إلا عليه ولا يتجه إلا إليه.. ولا يطلب السلوى والعزاء إلا منه، فاستمسك بهذا الركن الركين الذى لا سند للإنسـان سـواه فى الملمات والشدائـد.. وإذا كنت قد فقدت كل أفـراد أسرتك فى هذه السنوات الأربع الكئيبة، فلسوف تدور الأيام دورتها الخالدة قريبا .

ولسوف تصنع أنت أسرتك الصغيرة ذات يوم قريب، ولسوف تكون لك شريكة حياة عطوف تعينك على وحدتك وأقدارك وتشاركك رحلة الأيام، ولسوف تنجب منها البنين والبنات فتضج الحياة فى المسكن الخالى عليك الآن.. وتحنو أنت على صغارك كما حنا عليك وعلى أخيك أبواك رحمهم الله جميعا، وهكذا الحياة نتسلم فيها الراية من آبائنا ونسلمها نحن لأبنائنا راضين. ونكرر معهم ما فعله آباؤنا معنا فنرق لهم كما رقّوا لنا ونعطف عليهم كما نهلنا نحن من نبع عطفهم وحنانهم، فلا تُفلت أية فرصة للارتباط المشروع بفتاة تبدأ معها بناء عشك خلال الأعوام القادمة، وأنت شاب طيب وخدوم ومتدين. وقد وضع الله لك القبول عند الناس فنلت خلال وقت قصير حب رئيسك وزملائك وثقتهم بك وبادلتهم أنت حبّا بحب وعرفان، حتى لتقرر ألا تفارق رئيسك العطوف الشهم هذا وزملاءك حتى ولو جاءتك وظيفة الهيئة الحكومية التى يسعى لك فيها زملاء أبيك.

وهذه هى بعض الدوائر المضيئة بالحب والخير والتعاطف الإنسانى النبيل التى لا تخلو منها الحياة رغم عنائها وجهامتها فى بعض الأحيان، فتعامل مع هذا الجانب الطيب من الحياة واستمسك به.. وتفتّح للحياة من جديد، فلسوف تحقق نجاحك وأحلامك وطموحك فى مستقبل آمن سعيد بإذن الله.. فالنجاح أيضا قد ينبع أحيانا من الحزن والألم،

وليس الفن وحده كما قال ذات يوم الفنان الإسبانى العالمى بيكاسو متشكيا من أحزانه وآلامه .

ولقد كان اليتيم الأشهر ومعلم البشرية (صلوات الله وسلامه عليه) كما وصفه أحد الصحابة الأكرمين دائم الفكر متواصل الأحزان، ومع ذلك فلقد غيّر وجه البشرية والحياة إلى يوم الدين، وما أكثر الناجحين والسعداء الذين بدأوا حياتهم بالغوص فى بئر الأحزان والآلام حتى الأعماق السحيقة، ثم هطلت عليهم بعد ذلك جوائز السماء بلا حساب وأكرمتهم الحياة إلى نهاية الرحلة. فانتظر نصيبك العادل من السعادة والنجاح فلقد قدمت كل قرابينك وأديت ضريبة الألم كاملة، ولم يبق لك إلا انتظار الجوائز .. أما الحالة التى تعانى منها الآن، فهى حالة مؤقتة ومرتبطة بالأهوال التى عانيتها خلال تلك السنوات الأربع القاتمة فى حياتك، ولن تلازمك طوال العمر كما تخشى ولن يطول عهدك بها كثيرا بإذن الله، فهى اضطراب من اضطرابات النوم النفسية يسميها أطباء النفس اضطراب الفزع الليلى، ويعتبر مزمنا يتطلب العلاج إذا زادت فترته عن شهر كامل، وهو اضطراب تتكرر فيه نوبات الاستيقاظ المفاجىء أثناء الليل مصحوبا بصرخة هلع ويقع غالبا فى الثلث الأول من النوم، وينتفض من يعانيه جالسا فى فراشه مفزوعا تبدو عليه علامات الهلع مع اتساع فى فتحة إنسان العين إلى

سرعة فى التنفس والنبض والعرق الغزير، ويبقى المفزوع على هذه الحال لفترة حتى يهدأ الفوران الداخلى الذى أحدثه لديه هذا الاضطراب، والذى يرتبط غالبا ببقايا حلم مفزع أو بضغوط نفسية شديدة. وهو اضطراب شائع بين الأطفال فى المرحلة بين أربع سنوات واثنتى عشرة سنة، ويصيب الكبار أيضا فى العشرينيات والثلاثينيات من العمر، وقلّما يصيبهم بشكل مزمن بعد الأربعين.. وعلاجه فى الأطفال هو أن تهدىء الأم أو الأب روع الطفل، ولا يحتاج الأطفال لعلاج متخصص إلا إذا كانت هناك أعراض نفسية أو جسمية أخرى مصاحبة للحالة .

أما فى الكبار، فإنه يحتاج إلى علاج نفسى متخصص يعتمد أساسا على فهم الظروف النفسية والاجتماعية لمن يعانى منه ومساعدته نفسيا على التوافق معها، ويندر أن يحتاج العلاج إلى استخدام العقاقير الطبية إلا فى حالات معينة .

وظروفك النفسية الاجتماعية لا تحتاج إلى تفسير أو تحليل، فأنت - أعانك الله - تحمل جبلا من الأحزان والآلام فوق كاهلك الصغير يجعلك فى حالة دائمة من الفوران الداخلى خلال الليل حين تستسلم للنوم مجهدا .. فيمور ويدمدم هذا الفوران داخلك رافضا وحدتك

وأحزانك، ومعبرا عن نفسه فى هذا الاستيقاظ المفاجىء المصحوب بصرخات الفزع وعلامات الهلع..

لكنه لن يطول إلى الأبد .. وإنما سيخمد هذا الفوران تدريجيا مع مرور الأيام.. وبعد الذكرى .. والتسليم بما حدث والتعايش معه.. كما سيسرع العلاج النفسى بكل تأكيد فى إخماده وإعادة السكينة إلى نفسك وقلبك بإذن الله.. فاتصل بى لأرتب لك أمر هذا العلاج الميسور فى أقرب وقت، وترقب تعويض السماء لك وجوائزها السخية فى قادم الأيام إن شاء الله .

* * *

الرأى الآخر !

أنا إحدى الزوجات اللاتى يشكو أزواجهن من برودهن العاطفى وتجاهلهن المشاعر الحسية والعاطفية بعد أن كبر الأبناء، ويرجعون الأسباب لهذه الفترة من العمر التى تمر بها الزوجة ... إلخ ، وأرجو أن يتسع صدرك لتسمع الطرف الآخر للمشكلة لأنها ليست حالة خاصة، ولأن العديد من الزوجات يعانين ما أعانيه .

فأنا زوجة لرجل يؤدى العبادات كاملة، ولكنه يتناسى أن الدين المعاملة، وأن الولاية التى كلفه الله بها تعنى العطف والرحمة والحنان والحب، ولا تعنى القهر والبطش والقسوة . لقد كرم الله الإنسان واحترم آدميته، فما بالك بالرجل الذى لا يحترم آدمية أهل بيته، ويتعمد إهانتهم بالسب والشتائم وأحيانا بالضرب ويذكرهم فى كل مناسبة أنهم أذلة له ، يأمر فيطيعون دون مناقشة، لأنه المتفضل عليهم بالإعالة المادية .

إن زوجى رجل سليط اللسـان يستخـدم الألفـاظ النابيـة معنا ومع أهله وزملائه بلا حرج، كما أنــه متسلط لا يسمع إلا لنفسه، وإذا خالفه أحد فى الرأى تكون الطامة الكبرى ، وهو يشترى لنفســه أفخر الثياب، ويبخل على أبنائه بمثلها، إيمانا منـه بأن المال ماله وله أن يتصرف فيه كما يشاء ..

وهكذا ، فإن العلاقـات الإنسانيـة لا وجود لها فى حيـاته.. وسوف تسألنى: ولماذا تحملـت كل هذا حتى تعــديت الخمسين من العمــر؟! وسأجيبك بنفس رأيك، وهو أن مصلحـة الأبناء فوق كل الاعتبـارات الشخصيـــة .. والآن كبر الأبناء وتعــدوا سن العشريـن ولا يزالون فى المرحلة الجامعيـــة، ومع ذلـك فهــو لا يزال يتطـاول أحيــانـا عليهم بالضرب، ويسمعنا من الشتــائم مـا لا يليـق برجل فى سنه ومــركـزه الاجتماعى والثقــافى .. فهل تتـوقع منـى يا سيـدى بعــد كل ذلك أن أتجاوب معـه فى المشـاعـر الحسيـــة ؟! لقـد تراكمت الأحـزان والآلام لسنوات طويلة ، وماتت المشاعر من سوء المعاملة وإهدار الكرامة .

وأنا لا أشكو إليك لإيمانى بأن الشكوى لله وحده سبحـانه وتعالى ، وأنه وحـده القـادر على أن يزيح عنـا الكرب والهم الذى نعيش فيـه .. ولكنى أرجـوك أن تنشر الـرأى الآخـر، حتى يسأل كل رجـل يعـانى

الجفاف العاطفى لزوجته نفسه : هل أنا حريص على مشاعر زوجتى وأبنائى ؟ هل أعاملهم بالمعروف وأحسن عشرتهم ؟ هل أعين أولادى على البر بالوالدين؟ وهل يكفى تأدية الفرائض أم أن حسن الخلق من التدين أيضا ؟ ولكل رجل يمثل هذا النموذج من الرجال أقول: ابحث عن المشكلة الحقيقية، ولا تتوارى خلف المرحلة التى تمر بها المرأة فى منتصف العمر .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ومن قال يا سيدتى إن الرجل الذى يهدر آدمية زوجته ويقهر إرادتها بالاحتياج المادى إليه، ويميز نفسه عنها فى الإنفاق على مطالب الحياة، ويتعمد إهانتها بالسب والشتم والضرب.. من قال إن مثل هذا الرجل يحق له أن يشكو من عدم تجاوبها معه عاطفيا ؟! إن المثل الإنجليزى القديم يقول: إن المرأة التى تحصل على أجرها لا يحق لها أن تطالب بالزواج !

وأحسب أننى أستطيع أن أقول على غرار ذلك : والرجل الذى يهدر آدمية زوجته بالضرب والشتم والإهانة لا يحق له كذلك أن يطالب بالحب ! لأن المشاعر لا سلطان عليها لأحد.. وهى ليست «قرارات» يتخذها الإنسان بإرادته واختياره .. وإنما هى نار ذاتية

الاشتعـال تذكيهـا الكلمـة الطيبة والمعـاملة الرقيقـة واللفتـة الكريمـة والعطاء المخلص، وتخمـدها القسوة والكلمـة الجافة والمعاملـة الشرسة والأنانية الكريهة .

ودينا الذى يأخذ منه البعض جـانب العبادات ويهدرون منه جانب المعاملات الإنسانية العادلة، قد أوجزه لنا الرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) بأبلغ عبارة حين قال : الدين المعاملة !

وهو كذلـك فى العدل فى كل تعامـلات الحياة .. والرحمة بالآخـرين والرفق بهم ، خـاصـة بمن يتحمل الإنسـان أمانة المسئوليـة عنهم أمـام خالقـه. ولهذا يأمر الدين الحنيف الأزواج والزوجـات بأن يتعاملوا فيما بينهم بالمودة والرحمة، ويـأمـر الآباء والأمهـات بأن يعـاملوا أبناءهم بالعـدل والإيثـار ، وليس بالأنـانيـة والأثرة . كما يأمـر الأزواج «بأن يقـدمـوا لأنفسهم » حين يفضـون إلى نسـائهـم، وليس هذا «التقـديم» سوى حسـن المعاملة واللطف والرقـة وكل مفردات قـاموس المشـاعر المعاصر .

ولهذا كله، فإنى لا أعتبر رسـالتك هذه «رأيا آخـر» فى المشكلة، لأنه لا خـلاف بيننا على كل مـا قلت فيهـا .. ولأن رسـائل الأزواج الذين يشكون من عدم تجاوب زوجاتهم معهم عاطفيا، لا يفهم منها أن هناك

مشكلة فى التعامل الكريـم بين الأزواج والزوجات، وإنما هناك مشكلة أخـرى فى الفهم الخاطىء لدى بعض الزوجات لمرحلة منتصف العمـر التى يجتزنها .. وفى ضرورة إيمانهن بأن المشاعر لا ترتبط بمرحلة واحدة من مـراحل العمـر دون غيرها وهى مـرحلة الشبـاب وحـدها .. وإنما تتعمق وتتأكد وتعبر عن نفسهـا بأشكال مختلفة فى كل مـراحل العمر .. وذلك كله فى الظروف الطبيعية للعلاقة بين كل زوجين يرعى كل منهما الله فى تعامله مع الآخـر .. وليس بالقهر والإهانة وإهـدار الكرامة لأى من الطرفين ..

فـالجارية وحـــدها فى عصـــور الرقيق هـى التى لم يكن يحق لها أن تعترض على رغبات سيدها .. أحسن معاملتها أو أساءها .

أما الزوجة فهى إنسان مكتمل الحقـوق والمشاعر ، ولا يستطيع أحد أن يجبرها على التجاوب العاطفى مع من يهدر كرامتها، ويذلها بالضرب والقهـر والإهانة ! كما لا يستطيع أحد أيضـا أن يجبر رجلا على الإقبـال على زوجة لا تحترم مشاعره ولا تحسن معاملته ولا تحفظ كرامته .

***



النوافذ المغلقة

ليست رسالتى هذه عن مشكلة شخصية لى، وإنما عن قصة إنسانية مؤلمة لم أعاصر بداياتها .. ولكنى شهدت آثارها البشعة وتألمت لها .. فأنا طالب بإحدى الكليات العملية، وأمر كل يوم فى طريقى من بيتى لركوب وسيلة المواصلات التى تحملنى إلى كليتى على منزل صغير قديم بحى عين شمس له حديقة ذات باب حديدى صدىء تظهر من خلال فتحاته أطلال حديقة تمتلىء بالأشجار وأصص الزهور والتكعيبات الخشبية التى تتسلق عليها النباتات المختلفة. ولقد لفت نظرى من خلال مرورى بهذا البيت يوما بعد
يوم أن الحديقة رغم أشجارها وزهورها وتكعيباتها ميتة ، وأن أوراق الشجر والزهور قد جفت بسبب نقص الماء فيها تصورت، ثم شاهدت صاحبة هذا البيت أو المقيمة فيه فرأيتها سيدة نحيلة وهزيلة الجسم للغاية وشاحبة الوجه، وتعبر قسماتها بغير كلام عن كل ما تعانى منه ..

وأثارت هذه السيدة النحيلة وحديقتها الميتة فضولى، فسألت عن قصتها وعرفت أنها تعيش فى هذا المنزل وحيدة ، وأنها أرملة لمهندس زراعى كان يعانى من مشكلة فى الإنجاب، فلم يرزقا بأطفال، وعوّض هو افتقاد الأطفال فى حياته بتركيز كل اهتمامه ووقته للعناية بهذا البيت وتجميله ورعاية الحديقة وزراعتها وتنسيقها. وكان بالرغم من ذلك بخيلا ومقترا على زوجته فلا يعطيها أية نقود بالمرة، وإنما يأتى هو بمتطلبات البيت أولا بأول ويحاسبها ويدقق معها بشدة فى نفقات المعيشة . واستمرت حياتها معه على هذا النحو لمدة ١٢ عاما ، ثم حدث أن صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق فتوفى على الفور ، وشيع إلى مثواه الأخير وبكته أرملته كثيرا .. وفقدت بفقده - رغم كل شىء - الرفيق الشريك والسند الوحيد فى الحياة، فلم تكد تمضى بضعة أيام على وحدتها فى هذا البيت ، حتى كشف لها إخوة زوجها عن حقيقة مذهلة .. هى أنها ليست أرملة شقيقهم الراحل، وإنما هى مطلقته .. وبالتالى فلا حق لها فى شىء من ميراثه أو معاشه ، أو فى البقاء فى البيت الخالى بعد وفاته !! وقدم لها الإخوة وثيقة طلاق تثبت طلاقه لها بالفعل قبل ثلاث سنوات من رحيله عن الحياة .. وصدمت السيدة صدمة مزلزلة .. وتساءلت مع أى رجل كانت تعيش وقد كان حتى وفاته يحيا معها حياة زوجية كاملة ؟!

وبعد الصدمة المروعة والجرح النفسى الغائر ، بدأت رحلة المعاناة للمطالبة بحقوقها عن طريق القضاء ، وطعنت بالتزوير فى وثيقة الطلاق ، فإذا بتقرير الخبير يثبت صحتها ، وأسقط فى يد الأرملة الحائرة .. ونتج عن إثبات صحة وثيقة الطلاق حرمانها من أية حقوق لها فى الميراث عن زوجها وفى المعاش كذلك .. وأخذت المحكمة - تقديرا لظروفها - بشهادة جيرانها الذين تطوعوا للشهادة لصالحها، وأكدوا جميعا أنها كانت حتى اليوم الأخير من حياة زوجها تعيش معه فى بيته حياة زوجية طبيعية بلا مشاكل ولا أزمات ، وأنها لم تعرف أبدا ولم يعرف أحد من الجيران أنه قد طلقها .. ولم يشر حالهما إطلاقا إلى أنهما مطلقان أو منفصلان، فقضت لها المحكمة رأفة بحالها بالبقاء فى منزل الزوجية، وكفت أيدى إخوة الزوج عن التصرف فى البيت طوال حياتها، ورفضت الدعوى التى أقامها عليها الإخوة لطردها منه .

وهكذا واجهت هذه السيدة الحياة بعد رحيل زوجها .. وهى تقيم فى بيت لا تملك طوبة واحدة منه ولا حق لها عليه .. وبلا أى ميراث أو معاش وبلا مدخرات ولا أقارب يتكفلون بها .. وعلى عكس ما يفعله الزوج الطيب الذى يرحل عن الحياة، فيترك لزوجته الذكريات الجميلة وما يقيم أودها ويقيها شر الحاجة، فلقد رحل هذا الزوج عن الحياة تاركا لها الإحساس المر بالدنس والعار والحاجة، مما يجعلها كما علمت

تلعنه فى كل صلاة ومع كل أذان بدلا من أن تترحم عليه !

وشيئا فشيئا نفد كل ما كانت تملكه من مصاغ قليل باعته لكى تسد بثمنه رمقها، وانعكس حالها المؤلم على حال الحديقة التى كانت زاهرة .. فتماثل الاثنان فى المحنة وغدر الأيام بهما فهزل جسم السيدة ، وجفت دماء الحياة فيها تدريجيا من أثر سوء التغذية، وذبلت أشجار الحديقة وجفت أوراق أصص الزهور وماتت النباتات المتسلقة لقلة الماء ونقص الرعاية ، فلقد تراكمت على هذه السيدة فواتير الماء والكهرباء ، حتى انتهى الأمر بقطعهما عنها نهائيا منذ عدة سنوات .

ومنذ ذلك الحين والسيدة تعيش فى ظلام دامس وبدون قطرة ماء .. ووهنت قواها حتى لم تعد تقوى على فتح نوافذ البيت كل فترة لتهويته، فيظل مغلق الأبواب والنوافذ دائما وكأنه مقبرة ، وشكت السيدة من آلام مبرحة فى قدميها حتى كادت تعجزها عن الحركة ، ولقد يمر عليها اليوم واليومان والأيام الثلاثة دون أن تقوى على فتح نوافذ بيتها ، ناهيك عن أن تجد ما تقيم أودها .. ولك أن تتخيل يا سيدى أن هذه السيدة رغم كل ما تعانيه، فإن ما أعطيه لها من ماء قليل كل فترة أو يعطيه لها جيرانها .. فإنها تستخدمه فى النظافة والوضوء ، ولا تشكو حالها لأحد سوى لربها .

وفى كل مـرة أذهب فيهـا إليها حـامـلا بعض الماء أتعجب لاحتمالها لكل هـذه الأهوال وبصبرهـا العظيم على هذا الابتـــلاء حتـى لأدير وجهى عنها لكيلا ترى دمعى .. وأدعـو الله العلى العظيم أن يرفع عنها هذا البـلاء .. لقد كتبت إليك هذه الكلمات لعجـزى عن أن أفعل لهذه السيدة المزيد، وأرجو أن تصل هذه الكلمات إلى مـن بيده أن يرفع عنها بعض هذه المعاناة .. مع رجاء العلم بأن هذه السيدة تحتاج إلى من ينتقل إليهـا لبحث حـالتهـا .. لأنها لا تقـوى على الخروج من شـدة الهزال وضعف الصحـة وانعـدام العناية الطبيـة . والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قد وصلت «الرسالة» بالفعل إلى مالك الملك ومن بيده ملكوت كل شىء سبحـانه، فجرت مشيئتـه عز شأنه بأن ترجع الكهـرباء إلى المنزل المظلم المقبـور .. والماء المقطوع إلى الحديقـة العطشى والأشجار الجافـة والأصص الخابيـة ، وتنفتح نوافـذ هذا البيت المغلقـة ويتجـدد هواؤه، وتسترد سيـدته دماء الصحـة والعافيـة بأمر ربها ومشيئتـه وهو الرحيم العليم ، فلقد سمع الله نجوى هذه السيدة لربها وهيأك لنقل الرسالة إلىّ وأكرمنا بتسخير بريد الجمعة لإنفاذ مشيئته برعاية هذه السيدة الوحيدة والتكفل بأمرها ، وتوفير الحياة الكريمة والرعاية الصحية اللازمة لها ،

ولسوف تزورك خلال ساعات الإخصائية الاجتماعية لبريد الجمعة ، لتصطحبها لزيارة هذه السيدة فى بيتها وحل مشكلتها بما يحفظ عليها كرامتها ويقيها شر الحاجة ومذلة السؤال باذن الله .. فهى ممن عناهم الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا**﴾ .

وهؤلاء هم الأحق بالرعاية والعطاء ، لأنهم عاجزون نفسيا عن سؤال الغير ولو كانت بهم خصاصة، ولقد تعتصر الحاجة أحدهم فلا يطيعه لسانه فى الطلب أو الشكوى لغير ربه ، ولهذا أمرنا بأن نتحرى هؤلاء فى مواقعهم وخلف أستارهم التى يستترون وراءها بعوزهم عن الغير وبأن نبادرهم بالعطاء بغير طلب ونترفق بهم ونشعرهم بحقهم علينا .. ونكفيهم مؤنة السؤال ، ونتحرى حفظ كرامتهم والستر عليهم بما نقدمه لهم ، ولولا أنى قد أردت أن يشاركنى قراء هذا الباب فى قصة هذه السيدة ليستفيدوا بدروسها المؤلمة ، ويطلعوا على وجه آخر من وجوه النفس البشرية الملغزة ، لما نشرت رسالتك هذه ولبادرت بإرسال الإخصائية الاجتماعية إليك على الفور بغير نشرها ، لكن كيف كان لنا أن نعلم عن النفس البشرية وشحها وبخلها وحساباتها الدنيوية الحقيرة فى بعض الأحيان ما علمناه من هذه القصة المحزنة ؟!..

---

(١) سورة البقرة آية / ٢٧٣.

لقد تحيرت طويلا فى فهم الأسباب التى تدعو رجلا يشارك زوجته تحت سقف واحد ، وترضى هى بحياتها معه رغم حرمانها من الإنجاب ، وبخله معها ، لأن يطلقها سرا ويتكتم عنها أمر هذا فلا تعلم به فى حينه ، ثم يواصل حياته معها كزوجين يجمعهما فراش واحد، ويرضى هو لنفسه بهذا الوضع الآثم ويقبل بهذا الخنا على زوجته متحملا عنها وزره الكامل، لأنها لا تعرف به ويعلم به أيضا إخوته فلا ينهونه عنه ، ولا يحثونه على تصحيح وضعه الشائن ووضع هذه السيدة الضحية، ولا يبرئون ذمتهم من إثم المشاركة بالصمت فى خداع هذه السيدة . ثم يرحل عن الحياة فجأة، فإذا بهؤلاء الإخوة يشهرون فى وجه أرملته وثيقة طلاق عمرها ثلاث سنوات ويسعون لطردها من بيت أخيهم وحرمانها من ميراثه ومعاشه ، بغير أن يتوقف أحدهم ويسأل نفسه : كيف رضى بأن يعلم عن أخيه أنه يعاشر من تحرم عليه معاشرتها بغير أن يبرىء ذمته من إثمه بنصحه أو على الأقل بإعلام هذه السيدة بما علم به لترى رأيها فى حياتها معه ، ويبرأ هو من حقها عليه؟!..

وأى شىء من متاع الحياة يستحق أن يشارك إنسان أخاه بالصمت الشائن على مثل هذا الدنس الذى ينكره الشرع والدين والقانون ؟!.. لقد فكرت طويلا فى دوافع هذا الرجل لما فعل، فلم أجد له تفسيرا

ســوى بخله الذى تمكن منه حتى صبـغ نظرته إلى كل شىء فى الحيـاة بالصبغـة المادية الكريهة، حتى لو كـان ذلك على حساب الحق والعـدل والفضائل الدينية والأخلاقية .

فلقد كره الرجل أن تشاركه السيـدة التى تقاسمه حياته فى شىء من أملاكه أو معاشه أو ماله وهو على قيد الحياة وبعد رحيله عنها، وكره أن تنازع إخوته بعد وفاته فى ملكيـة البيت الذى يملكه، ويبدو أن لإخوته نصيبـا منه بالميراث عن الأب، فطلق زوجتـه وتحايل على عدم إبلاغهـا بذلك، وتستر عليـه إخوته طلبـا لمتـاع الدنيا الرخيص، وواصل حيـاته معها فى الدنس والإثم مقدرا فيما يبـدو أنه سيطول به العمر ، وقد يأتى الوقت الذى يراه هو مناسبا لإخراج هذه الزوجـة من حياته بلا خسائر كبيرة ويكتفى بوحدته فى البيت والحديقة، أو يستبـدل بها زوجة أخرى أقل نفقــة إذا رغب فى ذلك ، فإذا بمكـره يخيب ، وإذا بأقــداره تسبق مكره وتدبيره ويرحل عن الحياة تاركـا وراءه كل شىء للآخرين ومخلفا الزوجة التى عاشرها سنوات طوالا لا تدرى أكانت أرملته أم مطلقته! ولا تجد ما تواجه به الحياة، وتعانى مما تشعر به من إحساس غائر بالإثم لغـدره بها ومعاشرته لها بغير زواج لثـلاث سنوات قبل الوفـاة .. وكل ذلك لكى لا تنازع إخـوته فى حصـة محدودة من بيـت صغير وحصـة

بائسة من معاش هزيل مهما بلغ قدره.. فأى إثم .. وأى مكر حقير ؟!

يا إلهى .. إننى لم أستطع حتى الآن برغم خبرة السنين أن أفهم هذا التناقض الغريب بين ضن رجل كهذا الرجل على زوجته بأن ترث حقها المشروع فى ماله بعد الرحيل مما يقطع بشحه وبخله الفاضح وعدم عدالته، وبين هذا الإحساس العائلى المفترض فيه أن يكون من الفضائل بشرط العدل والذى يدفع مثل هذا الرجل لإيثار إخوته بميراثه دون زوجته.. فهل يستطيع أحد أن يفسر لى هذا التناقض الغريب بين المنع للزوجة والإيثار للإخوة ، وهما نقيضان تناقض المنع والعطاء ولا يجتمعان فى النفس الشحيحة إلا نادرا ؟.. أم ترى أن هذا الرجل لم يكن يضع حتى إخوته فى حساباته، وكان مطمئنا إلى الدنيا.. وإلى أنه سوف يعمر طويلا فينفرد فيها دون زوجته والجميع بماله وأملاكه إلى ما لا نهاية ؟!

فلندع إذن أمره لخالقه ، ولنفكر معا فى كيفية تعويض هذه السيدة المتعففة عما تعرضت له من عناء كاد يقضى عليها فى وحدتها .. كما قضى من قبل على أشجار حديقتها وزهورها ونباتاتها .. وشكرا لك على رسالتك الكريمة هذه .. وأرجو الله أن يجزيك عنها خيرا كثيرا فى حياتك ومستقبلك بإذن الله .

* * *

كتب للمؤلف

الكتاب	النوع	الطبعة	السنة
١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٨
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٨
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة	٢٠٠١
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٨ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٩ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
١٠ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
١١ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
١٢ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
١٣ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٤ ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
١٥ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٦ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعه	٢٠٠٠
١٧ ـ مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانيه	٢٠٠٠
١٨ ـ أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٩ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٠ ـ أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢١ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٢ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
٢٣ ـ قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٤ ـ صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	١٩٩٧
٢٥ ـ أهلاً .. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٦ ـ قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٧ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩

● كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »

٢٨ ـ حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	٢٠٠١
٢٩ ـ صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	٢٠٠١
٣٠ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٣١ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٣٢ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٣٣ ـ خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٣٤ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٣٥ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٦ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
٣٧ ـ ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٨ ـ الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٩ ـ دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠
٤٢ ـ الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠
٤٣ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
٤٤ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٤٥ ـ حكايات شارعنا		الطبعة الأولى	٢٠٠١

الفهرس

هو وهى والآخرون

من النادر أن يعيش الإنسان حياة تغمرها سعادة دائمة .. بل كثيرًا ماتحيط بالإنسان أنواع من المشاكل قد تغرقه فى بحر من الهموم والآلام والأحزان.

والناس أمام هذه المشاكل ينقسمون إلى جماعتين متناقضتين : جماعة منهما تكتم أحزانها فى الصدور ولاتبوح بها .. وجماعة أخرى تجهر بتلك المشاكل التى يصادفونها فى حياتهم من أجل البحث عن من يستطيع أن يواسيهم أو من يجد لهذه المشاكل حلاً يرضيهم ويخفف عنهم وطأة مايعانون من آلام وأحزان.

وفى باب (بريد الجمعة) الشهير بجريدة الأهرام يتلقى الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع سيلاً من الرسائل التى يكتبها له المحزونون والمهمومون الذين يعانون من مشاكل إنسانية أو اجتماعية يستعصى عليهم حلها ، راجين منه إرشادهم إلى الطريق السليم لحلها والتخفيف من آلامها.

وقد من الله جلت قدرته على الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بموهبة فذة وقدرة فائقة على إرشاد هؤلاء المحزونين إلى الحلول السليمة ، ومواساتهم فيما يعانونه من آلام وهموم وأحزان .. وهكذا يكون التراحم بين الناس!



* مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
* يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
* صدر له ٤٥ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
* له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتنسنى) ، (والحب فوق البلاط).



